دار الكتب المصرية

القســم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهرس الجزء التاسع عشر

ســـورة الجن

صفحة

سورة المزمل

ســورة المــدّثر

سورة عبس

سورة التكوير

سـورة الآنشقاق

صفحة

ســـورة البروج

استـــدراك

ورد فى الجزء الخامس عشر من هذا التفسير صفحة ٢٥٩ البيت الآتى محرّفا :

الضاربون عميرا عن بيوتهم * بالليـل يوم عمـير ظالم عادى

وصـــوابه :

الضاربين عُمَيْراً عن بُيُوتِهِمُ * بالتَّـلِّ يَـوْمَ عُمَـيْرٌ ظالمٌ عادِى

والبيت للقُطامى واسمه عُمَيْر بن شُيَيْم من قصيدة يمدح بها زفر بن الحرث الكلابى ؛ وكان زفر أسره فى الحرب ، فمنّ عليـه ، ووهب له مائة ناقة ، وردّه إلى قومه . وقـد ساق ابن الشجرى البيت فى كتابه (الأمالى) شاهدا على إضافة « يوم » إلى جملة الابتداء .

محمد محمد حسنين

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

مكية في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية

قوله تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي قل يا محمد لأمتك أوحى الله إليّ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ إليّ ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وما كان عليه السلام عالما به قبل أن أوحى إليه . هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي . وقرأ ابن أبي عَبْلة «أُحِيَ» على الأصل؛ يقال : أوحى إليه ووحى فقلبت الواو همزة؛ ومنه قوله تعالى : «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة . وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة و «إِعَاءِ أَخِيهِ» ونحوه .

الثانية — واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى : «ٱسْتَمَعَ» وقوله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» وفي صحيح مسلم والترمذي عن ابن عباس قال : ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

---

(١) اللفظ لمسلم وأما الترمذي ففي لفظه زيادة .

على الجنّ وما رآهم، آنطلق رســول الله صلى الله عليه وســلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وقد حيــل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا و بين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فآنظروا ما هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ؟ فآنطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخل عامدين إلى سُــوق عُكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن آستمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهــم فقالوا : يا قومنا « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْــدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم « قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » . رواه الترمذى عن آبن عباس قال : قول الجنّ لقومهم « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْــهِ لِبَدًا» قال : لمـا رأوه يصلى وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال : فعجبوا من طواعية أصحابه له قالوا لقومهم « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » قال : هذا حديث حسن صحيح؛ ففى هذا الحديث دليل على أنه عليــه السلام لم يرا الجنّ ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته . وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لمـا رموا بالشّهب . وكان المرميــون بالشّهب من الجنّ أيضا . وقيل لهم شياطين كما قال : «شَيَاطِينَ الإِنسِ والجِنِّ» فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله . وفى الترمذى عن آبن عباس قال : كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحى فإذا سمعــوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقّــا وأما ما زاد فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليــه وسلم مُنِعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض ! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلى بين جبلين — أُراه قال بمكة — فأتوه فأخبروه فقال : هذا الذى حدث فى الأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح . فدل

هـذا الحديث على أن الجنّ رموا كما رميت الشياطين . وفى رواية السدىّ : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : آيتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة . فبعث نفرا من الجنّ قيل : كانوا سبعة . وقيل : تسعة منهم زوبعة . وروى عاصم عن زرّ قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الثمالىّ : بلغنى أنهم من بنى الشيصبان ، وهم أكثر الجنّ عددا ، وأقواهم شوكة ، وهم عامة جنود إبليس . وروى أيضا عاصم عن زرّ أنهم كانوا سبعة نفر ؛ ثلاثة من أهل حرّان وأربعة من أهل نصيبين . وحكى جويبر عن الضحاك أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين ؛ قرية باليمن غير التى بالعراق . وقيل : إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جنّ نينوى . وقد مضى بيان هذا فى سورة «الأحقاف» (١) . قال عكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» وقد مضى فى سورة «الأحقاف» التعريف بآسم النفر من الجنّ فلا معنى لإعادة ذلك . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت ؛ روى عامر الشّعبى قال : سألت علقمة هل كان آبن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ فقال علقمة : أنا سألت آبن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشّعاب ، فقلنا آستُطير أو آغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يجىء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ؛ فقال : "أتانى داعى الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن " فآنطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة ؛ فقال : "لكم كلُّ عَظْم ذكر آسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة عَلَفٌ لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجنّ" قال آبن العربى : وآبن مسعود أعرف من آبن عباس ؛ لأنه شاهده وآبن عباس سمعه

---

(١) راجع ج ١٦ ص ٢١١ فما بعدها .

وليس الخبر كالمعاينة . وقد قيل : إن الجنّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين إحداهما بمكة وهى التى ذكرها آبن مسعود، والثانيـة بنخلة وهى التى ذكرها آبن عباس . قال البيهقى : الذى حكاه عبد الله بن عباس إنما هو فى أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبى صلى الله عليه وسـلم وعلمت بحاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعى الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود . قال البيهقى : والأحاديث الصحاح تدل على أن آبن مسعود لم يكن مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغـيره يريه آثار الجنّ وآثار نيرانهم . قال : وقد روى من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الأحقاف» والحمد لله . روى عن آبن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ فمن يذهب معى" فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم قال عبد الله بن مسعود : أنا أذهب معك يا رسول الله، فآنطلق حتى جاء الحَجُـون عند شِـعْب أبى دُبّ[(1)] فخطّ على خطّا فقال : "لا تجاوزه" ثم مضى إلى الحَجُـون فآنحدر عليه أمثال الحَجَـل يحدرون الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون فى دُفوفهم كما تَقْرع النِّسوة فى دُفوفها حتى غَشَوه فلا أراه، فقمت فأومى إلىّ بيده أن أجلس ، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما آنفتل إلىّ قال : "أردت أن تأتينى" قلت : نَعَم يا رسول الله . قال : "ما كان ذلك لك هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن ثم وَلّوا إلى قومهم منذرين فسألونى الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستطِيبَنّ أحدكم بعظم ولا بعر" قال عِكرمة : وكانوا آثنى عشر ألفا من جزيرة الموصل . وفى رواية : آنطلق بى عليه السـلام حتى إذا جئنا المسجد الذى عنـد حائط عوف خطّ لى خطّا ، فأتاه نفر منهم فقـال أصحابنا كأنهم رجال الزُّطّ[(2)] وكأن وجوههم المَكَاكِى[(3)]، فقالوا : ما أنت؟ قال : "أنا نبىّ الله" قالوا : فمن

(١) شعب أبى دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) الزط : جنس من السودان والهنود .

(٣) المكاكى : جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسـطه واسع ، ومكيال معروف لأهل العراق بهذه الصفة أيضا . ولعله من باب قول العرب : ضرب مكوك رأسه على التشبيه .

يشهد لك على ذلك ؟ قال : "هذه الشجرة" فقال : "يا شجرة" فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه، فقال : "على ماذا تشهدين" قالت : أشهد أنك رسول الله . فرجعت كما جاءت تجر بعروقها الحجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت . ثم روى أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال : "هل من وضوء" قال : لا ، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ . فقال : "هل هو إلا تمر وماء" فتوضأ منه .

الثالثة — قد مضى الكلام في الماء في سورة « الحجر »(١) وما يستنجى به في سورة « براءة »(٢) فلا معنى للإعادة .

الرابعة — واختلف أهل العلم، في أصل الجن، فروى إسمعيل عن الحسن البصري : أن الجن ولد إبليس والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولي الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وروى الضحاك عن ابن عباس : أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين وهم يؤمنون؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . واختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم؛ فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرية إبليس قال : يدخلون الجنة بإيمانهم . ومن قال : إنهم من ذرية إبليس فلهم فيه قولان : أحدهما — وهو قول الحسن يدخلونها . الثاني — وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار . حكاه الماوردي . وقد مضى في سورة «الرحمن»(٣) عند قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » بيان أنهم يدخلونها .

الخامسة — قال البيهقي في روايته : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال : "لكم كل عظم" دليل على أنهم يأكلون ويطعمون . وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، وقالوا : إنهم بسائط ولا يصح طعامهم . اجتراء على الله وافتراء والقرآن والسنة ترد عليهم،

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥ فما بعدها .　　(٢) راجع ج ٨ ص ٢٥٩ فما بعدها .
(٣) راجع ج ١٧ ص ١٨١

وليس فى المخلوقات بسـيط مركب مزدوج إنما الواحد الواحد سبحانه ، وغيره مركب ليس بواحد كيفما تصرف حاله . وليس يمتنع أن يراهم النبي صلى الله عليه وسلم فى صورهم كما يرى الملائكة . وأكثر ما يتصـوّرون لنا فى صـور الحيات ؛ ففى الموطأ أن رجلا حديث عهـد بعرس آستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله . الحديث ، وفيه : فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فآنتظمها ، وذكر الحديث . وفى الصحيح أنه عليه السلام قال : " إن لهـذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئا فحرّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فآقتلوه فإنه كافر " وقال : " آذهبوا فادفنوا صاحبكم[(1)] " وقد مضى هذا المعنى فى سورة «البقرة»[(2)] وبيان التحريج عليهنّ . وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة ؛ لقوله فى الصحيح : " إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا " وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها . قلنا : هـذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها ؛ لأنه لم يعالِل بحرمة المدينة فيكون ذلك الحكم مخصوصا بها ، وإنما عالَل بالإسلام ، وذلك عام فى غيرها ، ألا ترى قوله فى الحديث مخبرا عن الجنّ الذى لقى : وكانوا من جنّ الجزيرة ؛ وهـذا بيّن يعضُده قوله : " ونهى عن عوامر البيوت " وهذا عام . وقد مضى فى سورة «البقرة» القول فى هذا فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُـرْآنًا عَجَبًا ﴾ أى فى فصاحة كلامه . وقيـل : عجبا فى بلاغة مواعظه . وقيل: عجبا فى عظم بركته . وقيل : قرآنا عزيزا لا يوجد مثله . وقيل : يعنون عظيما . ﴿ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى إلى مراشد الأمور . وقيل: إلى معرفة الله تعالى . و « يهدى » فى موضع الصفة أى هاديا . ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ أى فآهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ أى لا نرجـع إلى إبليس ولا نطيعه ؛ لأنه الذى كان بعثهـم ليأتوه بالخبر ثم رمى الجنّ بالشّهب . وقيل : لا نتخذ مع الله إلها آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية . وفى هـذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركى قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن . وقوله

---

(١) هذا ينبغى أن يكون قبل الحديث السابق له كما فى آبن العربى .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣١٥ فما بعدها طبعة ثانية .

تعالى : « ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » أى ٱستمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله . ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه . والنفر الرهط ؛ قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة . وقرأ عيسى الثقفي « يَهْدِى إِلَى الرَّشَدِ » بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ كان علقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وٱبن عامر وخلف وحفص والسلمي ينصبون « أن » في جميع السورة في ٱثنى عشر موضعا وهو « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَّا ظَنَنَّا » « وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » « وأَنَّهُمْ ظَنُّوا » « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » « وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ » « وأَنَّا لا نَدْرِى » « وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ » « وأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ » « وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » « وأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ » عطفا على قوله : «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ» و «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ» لا يجوز فيه إلا الفتح ؛ لأنها في موضع ٱسم فاعل «أُوحِىَ» فما بعده معطوف عليه . وقيل : هو محمول على الهاء في «آمَنَّا بِهِ» أى و بـ « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أنّ » . وقيل : المعنى أى وصدّقنا أنه جدّ ربنا . وقرأ الباقون كلها بالكسر وهو الصواب ، وٱختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفا على قوله : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » لأنه كله من كلام الجنّ . وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع ؛ وهى قوله تعالى : « وأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » قالا : لأنه من الوحى وكسرا ما بقى ؛ لأنه من كلام الجنّ . وأما قوله تعالى : « وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » فكلهم فتحوا إلا نافعا وشيبة و زرّ بن حبيش وأبو بكر والمفضّل عن عاصم فإنهم كسروا لا غير . ولا خلاف في فتح همزة « أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » « وأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » « وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » و « أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا » وكذلك لا خلاف في كسر ما بعد القول ؛ نحو قوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » و « قَالَ[(١)] إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى » و « قُلْ إِنْ أَدْرِى » و «قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ» وكذلك لا خلاف في كسر ما كان بعد فاء الجزاء ؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » و « فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » لأنه موضع ٱبتداء .

(١) كذا فى الأصل على قراءة نافع . وقراءة حفص « قل » .

قوله تعالى : « جَدُّ رَبِّنَا » الجدّ فى اللغة العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدّ فى عيوننا ، أى عَظُم وجلّ؛ فمعنى « جَدُّ رَبِّنَا » أى عظمته وجلاله ؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة . وعن مجاهد أيضا : ذِكره . وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا : غناه . ومنه قيل للحظ جَدٌّ ورجل مجدود أى محظوظ؛ وفى الحديث : "ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ" قال أبو عبيدة والخليل : أى ذا الغنى، منك الغنى إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرته . الضحاك : فعله . وقال القرظىّ والضحاك أيضا : آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدّىّ : أمره . وقال سعيد بن جبير : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » أى تعالى ربنا . وقيل : إنهم عنوا بذلك الجَدّ الذى هو أب الأب ويكون هذا من قول الجنّ . وقال محمد بن على بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة فلم يؤاخذوا به . وقال القشيرى : ويجوز إطلاق لفظ الجَدّ فى حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن، غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى . وقراءة عِكرمة « جِدّ » بكسر الجيم على ضد الهزل . وكذلك قرأ أبو حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع . ويروى عن ابن السَّمَيْقع أيضا وأبى الأشهب « جَدَا رَبِّنَا » وهو الجدوى والمنفعة . وقرأ عكرمة أيضا « جَدًّا » بالتنوين « رَبُّنَا » بالرفع على أنه مرفوع بـ « تعالى » و « جَدًّا » منصوب على التمييز . وعن عكرمة أيضا « جَدٌّ » بالتنوين والرفع « رَبُّنَا » بالرفع على تقدير : تعالى جَدٌّ جَدُّ ربِّنا ؛ فجَدّ الثانى بدل من الأول وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ومعنى الآية ؛ وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والربّ يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾ الهاء فى « أنه » للأمر أو الحديث ، وفى « كان » آسمها وما بعدها الخبر . ويجوز أن تكون « كان » زائدة . والسفيه هنا إبليس فى قول مجاهد وآبن جريج وقتادة . ورواه أبو بُرْدة بن أبى موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المشركون من الجنّ ؛ قال قتادة : عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس . والشطط والآشتطاط الغلو فى الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . الكلبي : هو الكذب . وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأيّة حالٍ حكّموا فيك فاشتطّوا * وما ذاكَ إلا حيث يَمَّمَكَ الوَخْطُ(١)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أى حسبنا ﴿ أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ فلذلك صدقناهم فى أن لله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحقّ . وقرأ يعقوب والجحدرى وآبن أبى إسحق « أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ »(٢) . وقيل : آنقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله : « أَنَّهُ آسْتَمَعَ » ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى . والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيّد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ؛ فيبيت فى جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وآبن زيد وغيرهما . قال مقاتل : كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم . وقال كَرْدَم بن أبى السائب : خرجت مع أبى إلى المدينة أوّل ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما آنتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلا من الغنم ، فقال الراعى : يا عامر الوادى [أنا](٣) جارك . فنادى منادٍ ياسرحان أرسله ، فأتى الحَمَل يَشْتد(٤) . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ

(١) يممك قصدك . والوخط الطعن بالرمح ، ومن معانيه أيضا الشيب .

(٢) قال الألوسى : « تَقَوَّلَ » أصله تتقول بتاءين فحذفت إحداهما ، فكذبا مصدر مؤكد لأن الكذب هو التقول .

(٣) الزيادة من الدر المنثور للسيوطى .		(٤) يشتد : يعدو .

الجنّ فزادوهم رهقا) أى زاد الجنُّ الإنسَ «رهقا» أى خطيئة و إثما، قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة . والرهق الإثم فى كلام العرب وغِشيان المحارم ؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك . ومنه قوله تعالى : « وترهقهم ذلة » وقال الأعشى :

لا شيءَ ينفعنى مِن دونِ رؤيتهــا * هل يشتفِى وامِقٌ ما لم يُصب رَهَقَا

يعنى إثما، وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سببا لها . وقال مجاهد أيضا : « فزادوهم » أى إن الإنس زادوا الجنّ طغيانا بهذا التعوذ، حتى قالت الجنّ سدنا الإنس والجنّ . وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وآبن زيد : آزداد الإنس بهذا فَرَقا وخوفا من الجنّ . وقال سعيد آبن جبير : كفرا . ولا خفاء أن الآستعاذة بالجنّ دون الآستعاذة بالله كفر وشرك . وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هــذا الوادى . قال القشيرى : وفى هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا ﴾ هذا من قول الله تعــالى للإنس، أى وأن الجنّ ظنّوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم. الكلبى : المعنى ظنت الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يقيم به الحجــة عليهم. وكل هذا توكيد للحجة على قريش ؛ أى إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد فأنتم أحق بذلك .

قوله تعــالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ هــذا من قول الجنّ أى طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فوجدناها ﴾ قد ﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أى حفَظة يعنى الملائكة والحَــرَس جمع حارس

﴿ وَشُهُبًا ﴾ جمع شهاب وهو آنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن آستراق السمع . وقد مضى القول فيه في سورة « الحجر »(١) « والصافات »(٢) و « وجد » يجوز أن يقدّر متعدّيا إلى مفعولين فالأوّل الهاء والألف ، و « مُلِئَتْ » في موضع المفعول الثاني . ويجوز أن يتعدّى إلى مفعول واحد ويكون « مُلِئَتْ » في موضع الحال على إضمار قد و « حَرَسًا » نصب على المفعول الثاني بـ « مُلِئَتْ » و « شديدا » من نعت الحرس أي ملئت ملائكة شدادا . ووحد الشديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السَّلَف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السَّلَف أسلاف وجمع الحرس أحراس ؛ قال(٣) :

« تجاوزتُ أحراسًا وأهوالَ مَعْشَرٍ »

ويجوز أن يكون « حَرَسًا » مصدرا على معنى حُرِست حراسةً شديدة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ « مِنها » أي من السماء و « مَقَاعِدَ » مواضع يقعد في مثلها لآستماع الأخبار من السماء ؛ يعني أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدّم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشُّهب المحرقة ، فقالت الجنّ حينئذ : « فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » يعني بالشهاب الكوكب المحرِق ؛ وقد تقدّم بيان ذلك . ويقال : لم يكن آنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته . وآختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الكلبي : وقال قوم لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه خمسمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشُّهب .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعدها .　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٦٦ فما بعدها .

(٣) هو آمرؤ القيس ويروى : ✽ تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا ✽ وتمام البيت وهو من معلقته :

✽ على حراصا لو يشرون مقتلي ✽

قلت : ورواه عطية العوفى عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقى . وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذى نُبِّئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب . وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشُّهب ، ومُنعت عن الدنو من السماء . وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى الفترة تَسمع فلا تُرمى، فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب . ونحوه عن أبىّ بن كعب قال : لم يُرَم بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبِّئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرُمِىَ بها . وقيل : كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذارا بحاله ؛ وهو معنى قوله تعالى : « مُلِئَتْ » أى زيد فى حرسها ؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهلىّ :

فانْقَضَّ كالدُّرِّىِّ يَتْبَعُه * نَقْعٌ يَثُورُ تَخالُه طُنُبَا

وهذا قول الأكثرين . وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر روى فيه فهو مصنوع، وأن الرمى لم يكن قبل المبعث . والقول بالرمى أصح؛ لقوله تعالى : « فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا » . وهذا إخبار عن الجنّ، أنه زيد فى حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم ؛ ولما روى عن ابن عباس قال : بينما النبىّ صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من أصحابه إذ رُمِى بنجم فقال : "ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية" قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إنها لا تُرْمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا فى السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فتتخطّف الجنّ فيرمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه" وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث . وروى الزهرىّ نحوه عن علىّ بن الحسين عن علىّ بن أبى طالب عن ابن عباس . وفى آخره قيل للزهرىّ : أكان يُرمَى فى الجاهلية؟ قال: نعم . قلت : أفرأيت قوله سبحانه « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ

مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا» قال : غُلظت وشُدّد أمرُها حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال القتبي . قال ابن قتيبة : كان ولكن اشتدّت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويُرمون في بعض الأحوال ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مُنعت من ذلك أصلا . وقد تقدّم بيان هذا في سورة « والصافات » عند قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » قال الحافظ : فلو قال قائل كيف تتعرض الجنّ لإحراق نفسها بسبب استماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم ؟ فالجواب أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة ، كما ينسى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم ، وأن الله تعالى قال له : « وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » ولولا هذا لما تحقق التكليف . والرَّصَد قيل من الملائكة ؛ أي ورصدا من الملائكة . والرصد الحافظ للشيء والجمع أرصاد ، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعا كالحرس والواحد راصد . وقيل : الرصد هو الشهاب أي شهابا قد أرصد له ليرجم به ؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفَض .

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي خيرا . قال ابن زيد : قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا . وقيل : هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . أي لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم ، فإنهم يكذّبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذّب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا ؛ فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان ؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي . وقيل : لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين ؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أو يؤمنون .

قوله تعالى : وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُون ومِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ هـذا من قول الجنّ ؛ أى قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنا كنا قبل آستماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون . وقيل : « وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » أى ومن دون الصالحين فى الصلاح ، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك . ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى فرقا شتى ؛ قاله السدى . الضحاك : أديانا مختلفة . قتادة : أهواء متباينة ، ومنه قول الشاعر :

القَابِضُ البَاسِطُ الهَادِى بِطاعَتِهِ * فى فِتْنَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْواؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى : أى لم يكن كل الجنّ كفارا بل كانوا مختلفين ، منهم كفّار ومنهم مؤمنون صلحاء ، ومنهم مؤمنون غير صلحاء . وقال المسيّب : كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وقال السدى فى قوله تعالى : «طَرَائِقَ قِدَدًا» قال : فى الجنّ مثلكم قَدَرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية . وقال قوم : أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون منا المؤمنون ومنا الكافرون . أى ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح . والأول أحسن ؛ لأنه كان فى الجنّ من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة ، وكان هـذا مبالغة منهم فى دعاء من دعوهم إلى الإيمان . وأيضا لا فائدة فى قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر . والطرائق جمع الطريقة وهى مذهب الرجل ؛ أى كنا فرقا مختلفة . ويقال : القوم طرائق أى على مذاهب شتى . والقِدد نحو من الطرائق وهو توكيد لها واحدها قِدّة . يقال : لكل طريق قِدّة وأصلها من قَدّ السيور وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثى أخاه أَرْبَد :

لم تبلُغِ العينُ كلَّ نَهْمَتِها　*　ليلةَ تُمْشِى الجيادُ كالقِدَدِ (١)

وقال آخر :

ولقد قُلْتُ وزيدٌ حاسِرٌ　*　يومَ ولَّتْ خيلُ عَمْرٍو قِدَدَا

والقِدّ بالكسر سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ ؛ ويقال : ماله قِدٌّ ولا قِحْف فالقِدّ إناء من جلد والقِحف من خشب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين وهو خلاف الظنّ فى قوله تعالى : « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » أى علمنا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله أنا فى قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره . و﴿ هَرَبًا ﴾ مصدر فى موضع الحال أى هاربين .

قوله تعالى : وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ﴾ يعنى القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله وصدّقنا محمدا صلى الله عليه وسلم على رسالته . وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الإنس والجنّ . قال الحسن : بعث الله محمدا صلى عليه وسلم إلى الإنس والجنّ ، ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجنّ ولا من أهل البادية ولا من النساء ؛ وذلك قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقد تقدم هذا المعنى (٢) . وفى الصحيح : " وبعثت إلى الأحمر والأسود "

(١) يقول : لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ما تريد فى هذه الليلة التى فيها الخيل كالقدد من شدة السير والإتعاب .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٤ .

أى الإنس والجنّ . ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال آبن عباس : لايخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته؛ لأن البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِن دُونِ رُؤْيَتِهَا * هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَالَمْ يُصِبْ رَهَقَا

الوامق المحبّ ؛ وقد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أى أحبّه فهو وامق . وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجنّ ؛ لقوّة إيمانهم وصحة إسلامهم . وقراءة العامة « فَلَا يَخَافُ » رفعا على تقدير فإنه لا يخاف . وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم « فَلَا يَخَفْ » جزما على جواب الشرط و إلغاء الفاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون فمنا من أسلم ومنا من كفر . والقاسط الجائر؛ لأنه عادل عن الحق والمقسط العادل ؛ لأنه عادل إلى الحقّ ؛ [يقال :] قسط أى جار وأقسط إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قومٌ هم قتلوا آبنَ هِندٍ عَنْوَةً * عَمْراً وهم قَسَطُوا على النُّعمانِ

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه ومنه تحرى القبلة ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى الجائرون عن طريق الحقّ والإيمان ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى وقودا . وقوله : « فَكَانُوا » أى فى علم الله تعالى .

قوله تعالى : وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ هذا من قول الله تعالى . أى لو آمن من هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم فى الدنيا وبسطنا لهم فى الرزق . وهذا محمول على الوحى؛ أى أوحى إلى أن لو آستقاموا . ذكر آبن بحر : كل ما فى هذه السورة من « إن » المكسورة المثقلة فهى حكاية لقول الجنّ الذين آستمعوا القرآن فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من

أن المفتوحة المخففة فهى وحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن الأنبارى : ومن كسر الحروف وفتح « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أضمر يمينا تاما تأويلها : والله أن لو استقاموا على الطريقة ؛ كما يقال فى الكلام : والله أَنْ قمتَ لقمتُ ووالله لو قمتَ قمتُ ؛ قال الشاعر :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كُنتَ حُرًّا * وما بِالحُرِّ أنتَ ولا العتِيقِ

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها — أعنى الخفيفة — على « أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ » « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أو على « آمَنَّا بِهِ » وبأن لو استقاموا (١) . ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى « أن » المخففة أن يعطف المخففة على « أُوحِىَ إِلَىَّ » أو على « آمَنَّا بِهِ » ويستغنى عن إضمار اليمين . وقراءة العامة بكسر الواو من « لو » لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن وثّاب والأعمش بضم الواو . و ﴿مَاءً غَدَقًا﴾ أى واسعا كثيرا، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين ؛ يقال : غَدِقت العينُ تَغدَق فهى غَدِقة إذا كثر ماؤها . وقيل : المراد الخلق كلهم أى « لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين « لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا » أى كثيرا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم . وقال عمر فى هذه الآية : أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة . فمعنى « لَأَسْقَيْنَاهُمْ » لوسعنا عليهم فى الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون فأقيم مقامه ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » أى بالمطر . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبى رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشى ففتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتلوه . يعنى عثمان بن عفان . وقال الكلبى وغيره : « وَأَنَّ

(١) وفى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « قال ابن الأنبارى : ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح « وأن لو استقاموا » أضمر قسما تقديره : والله « أن لو استقاموا على الطريقة » أو عطفه على « أنه استمع » أو على « آمنّا به » وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضا بين المعطوف والمعطوف عليه » .

لوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَـةِ » التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا لوسعنا أرزاقهم مكرا بهم وٱستدراجا لهم، حتى يفتتنوا بهـا فنعذبهم بها فى الدنيا والآخرة . وهذا قول قاله الربيع آبن أنس وزيد بن أسلم وآبنه والكلبي والثمالى ويمـان بن رباب وآبن كيسان وأبو مجلز؛ وٱسـتدلوا بقوله تعـالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » الآية؛ وقوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّـاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » الآية ؛ والأول أشـبه ؛ لأن الطريقة معرّفة بالألف واللام فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى . وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا" قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال : "بركات الأرض" وذكر الحديث . وقال عليه السلام : "فو الله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيـا [كما بُسطت على من قبلكم](1) فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ يعنى القرآن؛ قاله آبن زيد . وفى إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول إن قيـل إنها فى أهل الكفر . الثـانى عن العمل إن قيل إنها فى المؤمنين . وقيل : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى لم يشكر نعمه ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ قرأ الكوفيون وعياش عن أبى عمرو « يَسْلُكْهُ » بالياء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر ٱسم الله أوّلا فقال : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » . الباقون « نَسْلُكْهُ » بالنون . وروى عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام . وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان سلكه وأسلكه بمعنًى أى ندخله . « عَذَابًا صَعَدًا » أى شاقا شديدا . قال آبن عباس : هو جبـل فى جهنم كلما جعلوا أيديهم عليـه ذابت . وعن آبن عبـاس : أن المعنى مشقة من العـذاب . وذلك معلوم فى اللغة أن الصَّعَد المشقة، تقول : تَصعَّدنى الأمر إذا شـقّ عليك؛ ومنه قول عمر : ما تَصعَّدنى شىء ما تَصـعدتنى خِطبة النكاح . أى ما شقّ علىّ .

---

(1) الزيادة من صحيح الترمذى .

وعذاب صَعَدٌ أي شديد . والصَّعَد مصدر صَعِد ؛ يقال : صعِد صَعَدا وصُعودا فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذَّب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقال أبو عبيدة : الصَّعَد مصدر أي عذابا ذا صَعَد، والمشي في الصَّعود يشقّ . والصَّعود العقبة الكؤود. وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودها فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم . وقال الكلبي : يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا في النار من صخرة ملساء ، يجذب من أمامه بسلاسل ، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها، ولا يبلغ في أربعين سنة، فإذا بلغ أعلاها أُحدِر إلى أسفلها ، ثم يكلّف أيضا صعودها ، فذلك دأبه أبدا ، وهو قوله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً » .

قوله تعالى : وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً ﴿١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ « أَنَّ » بالفتح قيل : هو مردود إلى قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » أي قل أوحي إليّ أن المساجد لله . وقال الخليل : أي ولأن المساجد لله . والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة . وقال سعيد بن جبير : قالت الجنّ كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أي بنيت لذكر الله وطاعته . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : "أينما كنتم فصلوا" "فأينما صليتم فهو مسجد" وفي الصحيح : "وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" . وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق ابن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه؛ يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة الله . قال عطاء : مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها . وفي الصحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين" . وقال العباس قال النبي

صلى الله عليه وسلم : " إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب[١] " . وقيل : المساجد هي الصلوات : أي لأن السجود لله ، قاله الحسن أيضا ؛ فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مَسجِد بكسر الجيم ، ويقال بالفتح ؛ حكاه الفراء . وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مَسجَد بفتح الجيم . وقيل : هو جمع مَسجَد وهو السجود ، يقال : سجدت سجودا ومَسجَدا ؛ كما تقول : ضربت في الأرض ضَرْبا ومَضرَبا بالفتح إذا سرت في ٱبتغاء الرزق . وقال ٱبن عباس : المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسميت مكة المساجد ؛ لأن كل أحد يسجد إليها . والقول الأوّل أظهر هذه الأقوال إن شاء الله ، وهو مروىّ عن ٱبن عباس رحمه الله .

الثانيــة — قوله تعالى : «لِلَّهِ» إضافة تشريف وتكريم ، ثم خص بالذكر منها البيت العتيق فقال : «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» وقال عليه السلام : " لا تُعمَل المَطِيّ إلا إلى ثلاثة مساجد " الحديث خرجه الأئمة . وقد مضى الكلام فيه[٢] . وقال عليه السلام : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " قال ٱبن العربي : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي " ولو صح هذا لكان نَصًّا .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حسب ما بيناه في سورة « إبراهيم[٣] » .

الثالثــة — المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفا فيقال : مسجد فلان . وفي صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي أضمرت من الحيفاء وأَمَدُها ثَنِيّة الوَدَاع ، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق . وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها في قبلتهم ، وقد تكون بتحبيسهم ، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن ٱختلفوا في تحبيس غير ذلك .

(١) آراب : أعضاء واحدها « إرب » بالكسر والسكون .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١١ والرواية المشهورة في الصحاح " لا تشدّ الرحال " كما مرّ للقرطبي .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٧١ فما بعدها .

الرابعة — مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال . ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل . ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عَرِى عن الباطل . وقد مضى هذا كله مبينا فى سورة « براءة »(١) . « والنور »(٢) وغيرهما .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا توبيخ للمشركين فى دعائهم مع الله غيره فى المسجد الحرام . وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها . يقول : فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يعبد . وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله، ولا تتخذوها هزوا ومتجرا ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا . وفى الصحيح : "من نشد ضالّة فى المسجد فقولوا لا رَدَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا" وقد مضى فى سورة « النور » ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادسة — روى الضحاك عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم : كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى . وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حق وأنت خير مَزور فأسالك برحمتك أن تفك رقبتى من النار" فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى ، وقال : "اللهم صُبَّ على الخير صَبًّا ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدا ولا تجعل معيشتى كَدًّا واجعل لى فى الأرض جَدًّا" أى غنى .

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

(١) راجع ج ٨ ص ١٠٤ فما بعدها . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٦٥ فما بعدها .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ يجـوز الفتح أى أوحى الله إليـه أنه ، ويجوز الكسر على الاستئناف ، و « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليـه وسلم حين كان يصلى ببطن نخـلة ويقرأ القرآن ، حسب ما تقدّم أوّل السورة . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أى يعبده . وقال ابن جُريج : « يَدْعُوهُ » أى قام إليهـم داعيا إلى الله تعالى . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال الزبير بن العوّام : هم الجنّ حين استمعوا القـرآن من النبي صلى الله عليه وسلم . أى كاد يركب بعضهـم بعضا ازدحاما و يسقطون حرصا على سماع القرآن . وقيـل : كادوا يركبونه حرصا ؛ قاله الضحاك . ابن عبـاس : رغبة فى سماع الذكر . وروى بُرْد عن مكحول : إن الجنّ بايعوا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفـا ، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر . وعن ابن عباس أيضا : إن هذا من قول الجنّ لمـّا رجعوا إلى قومهـم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم وائتمامهم به فى الركوع والسجود . وقيـل : المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حَردا على النبي صـلى الله عليه وسـلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعنى « لمـا قام عبـد الله » محمد بالدعوة تلبّدت الإنس والجنّ على هـذا الأمر ليطفئوه وأبى الله إلا أن ينصره و يتم نوره . واختـار الطبرى أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبي صـلى الله عليه وسـلم و يتظاهرون على إطفاء النور الذى جاء به . وقال مجاهـد : قوله « لِبَدًا » جماعات وهو من تلبد الشيء على الشيء أى تجمع ، ومنه اللبـد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شيء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ، وجمع اللِبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب . و يقال للشعر الذى على ظهر الأسـد لِبدة وجمعها لِبد ؛ قال زهير :

لَدَى أَسَـدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ * لـه لِبَـدٌ أَظْفَـارُه لم تُقَـلَّمِ

و يقال للجراد الكثير لِبـد . وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهى قراءة العامة . وضم اللام وفتح الباء ، وهى قراءة مجاهد وابن محيصن وهشام عن أهل الشام واحدتها لُبْـدَة . و بضم اللام والباء ، وهي قراءة أبي حَيْوة ومحمـد بن السَّمَيْقع وأبى الأشهب العُقَيلى

والجحدري واحدها لُبْدة مثل سَقْف وسُقُف ورَهْن ورُهُن . وبضم اللام وشدّ الباء وفتحها ، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجحدري أيضا واحدها لابِد مثل راكِع ورُكَّع وساجِد وسُجَّد . وقيل : اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم ؛ ومنه قيل لنسر لقمان لُبَد لدوامه وبقائه ؛ قال النابغة :

* أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

القشيريّ : وقرئ «لُبُدا» بضم اللام والباء وهو جمع لَبِيد وهو الجُوَالق الصغير . وفي الصحاح : [وقوله تعالى] « أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا » أي جَمًّا . ويقال أيضا : الناس لُبَد أي مجتمعون ، واللبد أيضا الذي لا يسافر ولا يبرح [منزله] . قال الشاعر :
(١)		(٢)

مِن ٱمرِئٍ ذِى سَمَاحٍ لا تَزَالُ لَهُ * بَزْلاءُ يَعْيَا بِهَا الجَثَّامَةُ اللُّبَدُ

ويروى اللَّبِد . قال أبو عبيد : وهو أشبه . والبزلاء ذو الرأى الجيد وفلان نَهّاض ببزلاء إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام ؛ قال الشاعر :

إِنِّي إِذا شَغَلَتْ قومًا فُرُوجُهُمُ * رَحْبُ المَسَالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلاءِ

ولُبَد آخر نسور لقمان وهو ينصرف ؛ لأنه ليس بمعدول . وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقى لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بَعَرات سُمْر من أَظْبٍ عُفْرٍ في جبل وَعْرٍ لا يَمسها القَطْر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر فٱختار النُّسور ، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا ، وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :
(٣)

أَضْحَتْ خَلاءً وأَمْسَى أَهْلُها ٱحْتَمَلوا * أَخْنَى عليها الّذى أَخْنَى على لبد

واللَّبِيد الجُوَالق الصغير؛ يقال : ألبدت القربة جعلتها في لَبِيد . ولَبِيد ٱسم شاعر من بني عامر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ أي قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى » ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء «قَالَ» على الخبر . وقرأ حمزة وعاصم «قُلْ» على

---

(١) الزيادة من اللسان مادة « لبد » . (٢) هو الراعي : والبزلاء أيضا الحاجة التي أحكم أمرها ، والجثامة الذي لا يبرح من محله وبلدته . (٣) قال شارح القاموس : هو بالعين المهملة ، ويوجد في بعض نسخ الصحاح « بقرات » بالقاف والذي في نسخ القاموس هو الأشبه إذ لا تتولد البقر من الظباء .

الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فآرجع عن هذا فنحن نجيرك فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق لكم خيرا . وقيل : « لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا » أى كفرا « وَلَا رَشَدًا » أى هدى أى إنما علىّ التبليغ . وقيل : الضر العذاب والرشد النعيم . وهو الأوّل بعينه . وقيل : الضر الموت والرشد الحياة .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ أى لا يدفع عذابه عنى أحد إن آستحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا آترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك . وروى أبو الجوزاء عن آبن مسعود قال : آنطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ حتى أتى الحَجُون فخطّ علىّ خطّا، ثم تقدّم إليهم فآزدحموا عليه فقال سيّد لهم يقال له وِرْدان : أنا أَزْجُلُهم[1] عنك ؛ فقال : "إنى لن يجيرنى من الله أحد" ذكره الماوردى . قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرنى مع إجارة الله لى أحد . الثانى لن يجيرنى مما قدره الله تعالى علىّ أحد . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملتجأ ألجأ إليه؛ قاله قتادة . وعنه : نصيرا ومولى . السدى : حِرزا . الكلبي : مدخلا فى الأرض مثل السَّرَب . وقيل : وليا ولا مولى . وقيل : مذهبا ولا مسلكا . حكاه آبن شجرة والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

---

(١) أزجلهم أى أدفعهم وفى نسخة أزحلهم بالحاء أى أنحيهم .

يا لهف نفسي ولهفي غير مجدية * عني وما من قضاء الله ملتحد

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة ؛ قاله الحسن . وقال قتادة : « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ » فذلك الذى أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . فعلى هذا يكون مردودا إلى قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لا أملك لكم إلا أن أبلغكم . وقيل هو استثناء منقطع من قوله : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى إلا أن أبلغكم أى لكن أبلغكم ما أرسلت به ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : « مُلْتَحَدًا » أى « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » إلا أن أبلغ ما يأتينى من الله ورسالاته ؛ أى ومن رسالاته التى أمرنى بتبليغها . أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته فآخذ نفسي بما آمر به غيرى . وقيل هو مصدر و « لا » بمعنى لم و « إن » للشرط والمعنى لن أجد من دونه ملتحدا أى إن لم أبلغ رسالات ربى بلاغا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى التوحيد والعبادة . ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ كسرت إن ؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ نصب على الحال ، وجمع « خالدين » لأن المعنى لكل من فعل ذلك ، فوحد أولا للفظ « من » ثم جمع للمعنى . وقوله ﴿ أَبَدًا ﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك . وقيل : هو المعاصى غير الشرك ، و يكون معنى « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » إلا أن أعفوا وتلحقهم شفاعة ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « النساء »(١) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ « حَتَّى » هنا مبتدأ أى « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ » من عذاب الآخرة أو ما يوعدون من عذاب الدنيا ، وهو القتل ببدر ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا ﴾ أهم أم المؤمنون . ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ معطوف .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣٣ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني قيام الساعة . وقيل : عذاب الدنيا أي لا أدرى فـ«إن» بمعنى «ما» أو «لا» ؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله . و « ما » في قوله «مَا يُوعَدُونَ» يجوز أن تكون بمعنى الذي ويقدّر حرف العائد . ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أي غاية وأجلا . وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح .

قوله تعالى : عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ « عالمُ » رفعا نعتا لقوله « رَبِّي » . وقيل : أي هو « عَالِمُ الغَيْبِ » والغيب ما غاب عن العباد . وقد تقدّم بيانه في أوّل سورة « البقرة »(١) ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفي التنزيل(٢) « وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » . وقال ٱبن جبير: « إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » هو جبريل عليه السلام . وفيه بعد والأولى أن يكون المعنى ؛ أي لا يظهر على غيبه إلا من ٱرتضى أي ٱصطفى للنبوّة فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه ؛ ليكون ذلك دالا على نبوّته .

الثانيـة — قال العلماء رحمة الله عليهم : لمـا تمدّح سبحانه بعلم الغيب وٱستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم ٱستثنى من ٱرتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم . وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى و ينظر في الكتب و يزجر بالطـير ممن ٱرتضاه من

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٣ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٩٥

رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . قال بعض العلماء : وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف إنسان على آختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسُّوقة ، والعالم والجاهل ، والغنى والفقير ، والكبير والصغير ، مع آختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على آختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة أبدا فى عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقىّ ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه آستحلال دمه على هذا التنجيم ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

حكم المنجِّمُ أنَّ طالعَ مولِدِى * يقضِى علىَّ بميتَةِ الغَـرَقِ
قُلْ لِلمُنَجِّم صَبْحَةَ الطُّوفانِ هَلْ * وُلِدَ الجَميعُ بكَوْكَبِ الغَـرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر فى العقرب ؟ فقال رضى الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك فى آخر الشهر . فآنظر إلى هذه الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها من المبالغة فى الرّد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم . وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تَسِرْ فى هذه الساعة وسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له على رضى الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال على رضى الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم مُنَجِّمٌ ولا لنا من بعده — فى كلام طويل يحتَجُّ فيه بآيات من التنزيل — فمن صدّقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن آتخذ من دون الله نِدّا أو ضِدّا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يأيها الناس إيا كم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون

به فى ظلمات البر والبحـر ؛ وإنما المنجم كالساحر والساحر كالكافر والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنهـا ، وافى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار فى الساعة التى أمر بهـا المنجم ، ما كان لمحمد صـلى الله عليه وسـلم منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان — ثم قال : يأيها الناس ! توكلوا على الله وثقوا به ؛ فإنه يكفى ممن سواه . ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ يعنى ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منـه شيطان ، فيحفظ الوحى من آستراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة . قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا : هذا شيطان فآحذره . وإن جاءه الملك قالوا : هـذا رسول ربك . وقال آبن عباس وآبن زيد : « رَصَدًا » أى حفظة يحفظون النبى صـلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين . قال قتادة وسعيد بن المسيِّب : هم أربعـة من الملائكة حفظة . وقال الفراء : المراد جبريل ؛ كان إذا نزل بالرسالة نزلت معـه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحى فيلقوه إلى كهنتهم فيسبقوا به الرسول . وقال السدىّ : « رَصَدًا » أى حفظة يحفظون الوحى ، فمـا جاء من عند الله قالوا إنه من عنـد الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان (١) . و « رَصَـدًا » نصب على المفعول . وفى الصحاح : والرَّصَـد القوم يرصُدون كالحرس يستوى فيـه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادا والراصد للشىء الراقب له ؛ يقال : رَصَده يرصُده رَصْدا ورَصَدًا . والترصد الترقب والمَرْصَد موضع الرّصد .

(١) هذا الكلام ينافى قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد عصمنى من الإنس والجن" (الحديث جـ ٦ ص ٢٤٤) وأن الشياطين لا يمكن أن ينالوا منه عليه السـلام ، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحى إلى أن تبينه له الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ قال قتادة ومقاتل : أى ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة . وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق . وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله آبن جبير . قال : ولم ينزل الوحى إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم الرسول أىّ رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : أى ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وآستراق أصحابه . وقال آبن قتيبة : أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلغوا ما أنزل عليهم ولم يكونوا هم المبلغين بآستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم . وقراءة الجماعة « لِيَعْلَمَ » بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه . وقرأ آبن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب بضم الياء أى لِيُعلَمَ الناسُ أنّ الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : أى لِيَعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء ؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » المعنى ؛ ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا . ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى أحاط علمه بما عندهم ؛ أى بما عند الرسل وما عند الملائكة . وقال آبن جبير : المعنى ؛ ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته . ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ أى أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء . و « عددا » نصب على الحال ؛ أى أحصى كل شيء فى حال العدد ، وإن شئت على المصدر ؛ أى أحصى وعدّ كل شيء عددا ، فيكون مصدر الفعل المحذوف . فهو سبحانه المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شيء . وقد بينا جميعه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . والحمد لله وحده .

ســورة المزّمّــل

وهى سبع وعشرون آية مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها « وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » والتى تليها ؛ ذكره الماوردى . وقال الثعلبى : قوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ » إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « المزّمّل » أصله المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى وكذلك «المدّثّر» . وقرأ أُبَىّ بن كعب على الأصل «المُتَزَمِّل» و «المتدثّر» . وسعيد « المُزَمَّل »(١) . وفى أصل « المزّمّل » قولان : أحدهما أنه المتحمل ؛ يقال : زَمَل الشىءَ إذا حمله ، ومنه الزّاملة ؛ لأنها تحمل القُمَاش(٢) . الثانى أن المزّمّل هو المتلفّف ؛ يقال : تزمل وتدثّر بثوبه إذا تغطى وزمّل غيره إذا غطّاه ، وكل شىء لُفّف فقد زُمّل ودُثّر؛ قال امرؤ القيس :

* كبيرُ أناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ(٣) *

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم : قرأ بعض السلف « المزمل » بفتح الزاى وتخفيفها وفتح الميم وشدها . (٢) قماش البيت متاعه .

(٣) صدر البيت : * كأن أبانا فى أفانين ودقه *

الثانيـــة — قوله تعالى : «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال : الأول قول عكرمة « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » بالنبوّة والملتزم للرسالة . وعنه أيضا : يأيها الذى زُمِّلَ هذا الأمر أى حُمِّله ثم فتر؛ وكان يقرأ «يَأَيُّهَا الْمُزَمَّلُ» بتخفيف الزاى وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك « الْمُـدَثَّر » والمعنى المزمِّل نفسه والمـدثِّر نفسه ، أو الذى زَمَّله غيره . الثانى « يَأَيُّهَـا الْمُزَّمِّلُ » بالقرآن ؛ قاله ابن عباس . الثالث المزمل بثيابه ؛ قاله قتادة وغيره . قال النخعى : كان متزملا بقطيفة . عائشة : بمِرطٍ طوله أربعة عشر ذراعا، نصفه علىّ وأنا نائمـة ، ونصفه على النبي صلى الله عليـه وسلم وهو يصلى ، والله ما كان خَزّا ولا قَزّا ولا مِرْعِزَاءَ(١) ولا إبريسما ولا صوفا؛ كان سَداه شعرا ولُحْمته وَبَرا؛ ذكره الثعلبى .

قلت : وهذا القول من عائشة يدل على أن السورة مدنية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بها إلا فى المدينـة . وما ذكر من أنهـا مكية لا يصح . والله أعلم . وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه . وقيـل : بلغه من المشركين سوء قول فيـه ، فآشتد عليه فتزمل فى ثيابه وتدثر فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » و « يَأَيُّهَـا الْمُدَّثِّرُ » . وقيل : كان هذا فى آبتداء ما أوحى إليه، فإنه لمـا سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرِّعدة فأتى أهله فقال : ”زملونى دثرونى“ روى معناه عن آبن عباس . وقالت الحكماء : إنمـا خاطبه بالمزمل والمدثر فى أول الأمر؛ لأنه لم يكن بعد آدّثر شيئا من تبليغ الرسالة . قال آبن العربى : وآختلف فى تأويل « يأيها المزمل » فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له : يامن تلفف فى ثيابه أو فى قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وقتادة . ومنهم من حمـله على المجاز كأنه قيل له : يامن تزمل بالنبوة؛ قاله عكرمة . وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذى لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينـا أنها على حذف المفعول، وقد قرئ بها فهى صحيحة المعـنى . قال : وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح فى المجاز لكنه قد قدّمنا أنه لا يحتاج إليه .

---

(١) المرعزاء بكسر الميم والعين : الزغب الذى تحت شعر العنز .

الثالثة — قال السهيلى : ليس المزمّل بٱسم من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدّوه فى أسمائه ، وإنما المزمّل ٱسم مشتق من حالته التى كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثّر . وفى خطابه بهذا الأسم فائدتان : إحداهما الملاطفة فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه بٱسم مشتق من حالته التى هو عليها ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : "قم يا أبا تراب" إشعارا له أنه غير عاتب عليه وملاطفةً له . وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة : "قم يا نومان" وكان نائما ملاطفة له وإشعارا لترك العتب والتأنيب . فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « يَأَيُّهَا المزمّل . قُم» فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه . والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأن الأسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وٱتصف بتلك الصفة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لٱلتقاء الساكنين . وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعا لضمة القاف . وحكى الفتح لخفته . قال عثمان بن جنّى : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هربا من ٱلتقاء الساكنين ، فبأى حركة تحركت فقد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه إلا أن ظرف المكان لا يتعدّى إليه إلا بواسطة ؛ لا تقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار . وقد قيل : إن « قم » هنا معناه صَلِّ ؛ عبر به عنه وٱستعير له حتى صار عرفا بكثرة الأستعمال .

الخامسة — « اللَّيْلَ » حدّ الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقد تقدّم بيانه فى سورة « البقرة »[(1)] وٱختلف هل كان قيامه فرضا وحتما ، أو كان ندبا وحضّا ، والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

دون بعض ؛ لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتى . وآختلف أيضا هل كان فرضا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ، أو عليه وعلى أمته ؛ ثلاثة أقوال : الأول قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة . الثانى قول آبن عباس ، قال : كان قيام الليل فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله . الثالث قول عائشة وآبن عباس أيضا وهو الصحيح ؛ كما فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ؛ الحديث . وفيه فقلت لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : ألستَ تقرأ «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» قلت : بلى! قالت : فإن الله عز وجل آفترض قيام الليل فى أوّل هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمتها آثنى عشر شهرا فى السماء ، حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوّعا بعد فريضة . وذكر الحديث . وذكر وكيع ويَعْلَى قالا : حدّثنا مِسْعر عن سماك الحنفى قال : سمعت آبن عباس يقول لما أنزل أوّل « يَأَيُّهَا المزمِّل » كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة . وقال سعيد بن جبير : مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » فخفّف الله عنهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ آستثناء من الليل ، أى صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ؛ فحكى عن وهب بن منبه أنه قال : القليل مادون المعشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثلث . ثم قال تعالى : ﴿ نِصْفَهُ أَوِ آنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وقال الأخفش : « نِصفَه » أى أو نصفَه ؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة . وقال الزجاج : « نِصفَه » بدل من الليل

و « إِلَّا قَلِيلًا » آستثناء من النصف . والضمير فى « منه » و « عليه » للنصف . المعنى : قم نصف الليل أو آنقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ؛ فكأنه قال : قم ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نصفه » بدل من قوله « قليلا » وكان مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه، و بين الناقص منه ، و بين قيام الزائد عليه ، كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيبَ له من ذا الذى يسألنى فأعطيَه من ذا الذى يستغفرنى فأغفرَ له فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر" ونحوه عن أبى هريرة وأبى سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثى الليل . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مضى شَطْر الليل — أو ثلثاه — ينزل الله " الحديث . رواه من طريقين عن أبى هريرة هكذا على الشك . وقد جاء فى كتاب النَّسائى عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل يمهل حتى يمضى شَطْر الليل الأوّل ثم يأمر مناديا يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى " صححه أبو محمد عبد الحق فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل . وخرّج آبن ماجه من حديث آبن شهاب، عن أبى سلمة وأبى عبدالله الأغر، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة فيقول من يسألنى فأعطيَه من يدعونى فأستجيبَ له من يستغفرنى فأغفرَ له حتى يطلعَ الفجر" فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوّله . قال علماؤنا : وبهذا الترتيب آنتظم الحديث والقرآن فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . وفى الموطأ وغيره من حديث آبن عباس : بتُّ عند خالتى ميمونة حتى إذا آنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل آستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءا خفيفا، وذكر الحديث .

السابعــة — اختلاف العلماء فى الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن ابن عباس وعائشــة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » إلى آخر السورة . وقيــل قوله تعــالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وعن ابن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى » . وعن عائشــة أيضا والشافعى ومقاتل وابن كيسان : هو منسوخ بالصــلوات الخمس . وقيل الناسخ لذلك قوله تعــالى : «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . قال أبو عبدالرحمن السُّلَمى : لمــا نزلت « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » قاموا حتى وَرِمت أقدامهم وسُوقهم ، ثم نزل قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . قال بعض العلماء : وهو فرض نسخ به فرض ؛ كان على النبى صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ؛ كما قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » .

قلت : القول الأوّل يعم جميع هــذه الأقوال ، وقد قال تعــالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصــلوات الخمس . وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قــدر حلب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال فى هذه الآية : الحمد لله تطوع بعد الفريضة . وهــو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لمــا جاء فى قيامه من الترغيب والفضل فى القرآن والسنة . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أجعل للنبى صلى الله عليه وسـلم حصيرا يصلى عليــه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جمــاعتهم كره ذلك ، وخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضَب ، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال : " أيها الناس اكْلَفوا (١) من الأعمال ما تُطيقون فإن الله لا يَمَلّ من الثواب حتى تَمَــلّوا من العمل وإن خير العمل أدومه وإن قلّ " فنزلت « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » فكتب عليهم ، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى أن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فمكثوا ثمانية أشهر فرحمهم الله وأنزل « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوّعوا به .

(١) اكلفوا : هو من كلفت بالأمر إذا أولعت به وأحببته .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله : " وإن قل " وباقيه يدل على أن قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدّم عنها في صحيح مسلم : حولا . وحكى المـاوردي عنها قولا ثالثا وهو ستة عشر شهرا لم يذكر غيره عنها . وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوّل المزمّل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رســول الله صلى الله عليه وســلم فقد كان فرضا عليــه ؛ وفي نسخه عنه قولان : أحدهما — أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثاني — أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفي مدّة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما — المدّة المفروضة على أمته في القولين المـاضيين يريد قول ابن عباس حولا وقول عائشــة ستة عشر شهرا . الثـاني — أنها عشر سنين إلى أن خفّف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ماذكره الثعلبي عن سعيد بن جبير حسب ما تقدّم فتأمله . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أي لاتعجل بقراءة القــرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعـاني . وقال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . وقال مجاهد : أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل بكسر العين وفتحها إذا كان حسن التنضيد . وقد تقدّم بيانه في مقدّمة الكتاب (1) . وروى الحسن أن النبيّ صلى الله عليه وســلم مر برجل يقرأ آية ويبكى فقال : " ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » هذا الترتيل " . وسمع عَلْقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتّل القــرآنَ فداه أبي وأمي . وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر في لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه . وروى عبد الله بن عمرو قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف في أوّل درج الجنة ويقال له اقــرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا فإن منزلك عند آخر

(1) راجع جـ ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

آية تقرؤها " خرجه أبو داود وقد تقدّم في أوّل الكتاب[١]. وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمدّ صوته بالقراءة مدّا .

قوله تعـالى : إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هومتصل بما فرض من قيام الليل أى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ؛ لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . مجاهد : حلاله وحرامه . الحسن : العمـل به . أبو العالية : ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلا على المنافقين . وقيل : على الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم ، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم ، والكشف عما حرفه أهل الكتاب . السدى : ثقيل بمعنى كريم ؛ مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل علىّ أى يكرم علىّ . الفراء : « ثَقِيلًا » رزينـا ليس بالخفيف السّفْساف لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل : ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينـة بالتوحيد . وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا يثقل فى الميزان يوم القيامة . وقيل « ثَقِيلًا » أى ثابتـا كثبوت الثقيل فى محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبدا . وقيـل : هو القرآن نفسه ؛ كما جاء فى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسـلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جِرانهـا — يعنى صدرها — على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرّى عنه[٢]. وفى الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل كيف يأتيك الوحى؟ فقال: " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه على فيُفصم عنّى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثـل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول " . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيُفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عَرَقا . قال ابن العربي : وهـذا أولى ؛ لأنه الحقيقة ، وقد جاء

(١) راجع جـ ١ ص ٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أى الوحى .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقال عليه السلام : " بُعِثت بالحنيفية السَّمْحة "
وقيل : القول فى هذه السورة هو قول لا إله إلا الله؛ إذ فى الخبر : خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان؛ ذكره القشيرى .

قوله تعالى : إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ قال العلماء : ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته لأن أوقاته تنشأ أوّلا فأولا؛ يقال : نشأ الشيء ينشأ إذا ٱبتدأ وأقبل شيئا بعد شيء فهو ناشيء وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ؛ فناشئة فاعلة من نشأت تنشأ فهى ناشئة، ومنه قوله تعالى : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » والمراد أن ساعات الليل الناشئة، فٱكتفى بالوصف عن الٱسم فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث . وقيل : الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل][1] كالخاطئة والكاذبة ؛ أى إن نشأة الليل هى أشدّ وطأ . وقيل : إن ناشئة الليل قيام الليل . قال ٱبن مسعود : الحبشة يقولون نشأ أى قام . فلعله أراد أن الكلمة عربية ولكنها شائعة فى كلام الحبشة غالبة عليهم، وإلا فليس فى القرآن ما ليس فى لغة العرب . وقد تقدّم بيان هذا فى مقدّمة الكتاب مستوفى[2] .

الثانيـــة — بين تعالى فى هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الٱستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر، وأجلب للثواب .

وٱختلف العلماء فى المراد بناشئة الليل ؛ فقال ٱبن عمر وأنس بن مالك : هو ما بين المغرب والعشاء، تمسكا بأن لفظ نشأ يعطى الٱبتداء فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر :

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة ؛ وهى كذلك فى كتب التفسير .

(٢) راجع جـ ١ ص ٦٨ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ولولا أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ * لَقلتُ بِنفسِيَ النَّشأُ الصِّغارُ

وكان علىّ بن الحسين يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : هذا ناشئة الليل . وقال عطاء وعكرمة : إنه بدء الليل . وقال آبن عباس ومجاهد وغيرهما : هى الليل كله ؛ لأنه ينشأ بعد النهار وهو الذى آختاره مالك بن أنس . قال آبن العربى : وهو الذى يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة . وقالت عائشة وآبن عباس أيضا ومجاهد : إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم . ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة . فقال يمان وآبن كيسان : هو القيام من آخر الليل . وقال آبن عباس : كانت صلاتهم أوّل الليــل . وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدرى متى يستيقظ . وفى الصــحاح : وناشئة الليل أوّل ساعاته . وقال القتبى : إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة . وعن الحسن ومجاهد : هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح . وعن الحسن أيضا : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة . ويقال : ما ينشأ فى الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهرى .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ أبو العاليـة وأبو عمرو وآبن أبى إسحق ومجاهد وحميد وآبن محيصن وآبن عامر والمغـيرة وأبو حَيْوة « وِطاءً » بكسر الواو وفتح الطاء والمد ، وآختاره أبو عبيد . الباقون « وَطْأً » بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، وآختاره أبو حاتم ؛ من قولك : آشتدت على القوم وطأة سلطانهم . أى ثقل عليهم ما حمَّلهم من المؤن ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " اللهم آشدد وطأتك على مُضَر " فالمعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار . وذلك أن الليــل وقت منام وتودّع وإجمام ، فمن شـغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة . ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أى وافقته . آبن زيد : واطأته على الأمر مواطأة إذا وافقته من الوفاق ، وفلان يواطئ آسمه آسمى ، وتواطؤوا عليه أى توافقوا ؛ فالمعنى أشد موافقـة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لآنقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وآبن أبى مُلَيكة وغيرهما . وقال آبن عباس بمعناه أى يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى : « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أى ليوافقوا . وقيل : المعنى أشد مِهادا للتصرف فى التفكر والتدبر . والوِطاء خلاف الغِطاء . وقيل : « أَشَدُّ وَطْأً » بسكون الطاء وفتح

الواو أى أشد ثباتا من النهار ؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل وأنفى[1] لما يلهى ويشغل القلب . والوطء الثبات تقول : وطئت الأرض بقدمى . وقال الأخفش : أشد قياما . الفراء : أثبت قراءة وقياما . وعنه : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أشد نشاطا للمصلى؛ لأنه فى زمان راحته . وقال عبادة : « أَشَدُّ وَطْأً » أى نشاطا للمصلى وأخفّ ، وأثبت للقراءة .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار، أى أشد استقامة واستمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. وقال أبو على : « أَقْوَمُ قِيلًا » أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل. وقيل : أى أعجل إجابة للدعاء . حكاه ابن شجرة . وقال عكرمة: عبادة الليل أتم نشاطا، وأتم إخلاصا، وأكثر بركة . وعن زيد ابن أسلم : أجدر أن يتفقه فى القرآن . وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلًا» فقيل له : «وَأَقْوَمُ قِيلًا» فقال : أقوم وأصوب وأهيأ سواء . قال أبو بكر الأنبارى : وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، واحتجوا بقول أنس هذا ، وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها لجاز أن يقرأ فى موضع « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » الشكر للبارى ملك المخلوقين، ويتسع الأمر فى هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن، ويكون التالى له مفتريا على الله عز وجل ، كاذبا على رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا حجة لهم فى قول ابن مسعود: نزل القرآن على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدكم : هَلُم وتعال وأقبل، لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد

(١) فى نسخة : وأنق .

الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا آختلفت ألفاظها، وآتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف فى هلم وتعال وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم رضى الله عنهم فإنه من أورد حرفا منه فى القرآن بهت ومال وخرج عن مذهب الصواب . قال أبو بكر: والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة أى تصرفا فى حوائجك، و إقبالا و إدبارا وذهابا ومجيئا . والسبح الجرى والدوران، ومنه السابح فى الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه . وفرس سابح شديد الجرى؛ قال آمرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (١)

وقيل : السبح الفراغ، أى إن لك فراغا للحاجات بالنهار . وقيل : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا » أى نوما والتسبح التمدد؛ ذكره الخليل . وعن آبن عباس وعطاء : «سَبْحًا طَوِيلًا» يعنى فراغا طويلا لنومك وراحتك، فآجعل ناشئة الليل لعبادتك . وقال الزجاج : إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ الآستدراك .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل « سَبْخًا » بالخاء المعجمة . قال المهدوى : ومعناه النوم؛ روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة . وقيل : معناه الخفة والسعة والآستراحة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق ردائها : " لا تُسَبِّخي عنه بدعائك عليه " أى لا تخففى عنه إثمه؛ قال الشاعر :

---

(١) مسح : معناه يصب الجرى صبا . والونى : الفتور والكلال . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

فَسَبِّخْ عليكَ الهَمَّ واعلَمْ بأنَّهُ * إذا قَدَّرَ الرحمٰنُ شيئًا فكائنُ

الأصمعيّ : يقال سَبَّخ اللهُ عنك الحُمَّى أى خَفَّفها . وسَبَخ الحَرُّ فتر وخفّ . والتَّسبيخ النـوم الشديد . والتّسبيخ أيضا توسيع القطن والكتّان والصّوف وتنفيشها ؛ يقـال للمرأة : سبّخي قطنك . والسَّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعـد النَّدف أى يُلَفّ لتغزله المرأة ، والقطعة منه سبيخة ، وكذلك من الصوف والوبر ، ويقال لقطع القطن سبائخ ؛ قال الأخطل يصف القُنّاص والكلاب :

فأرسَلوهُنّ يُذْرِينَ التّرابَ كما * يُذْرِى سَبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوْتارِ

وقال ثعلب : السَّـبْخ بالخاء التردّد والاضطراب ؛ والسَّبْخ أيضا السكون ، ومنه قول النبي صلى الله عليـه وسلم : "الحُمّى من فَيْـح جهنم فسبِّخوها بالمـاء" أى سكّنوها ؛ وقال أبو عمرو : السَّبْخ النوم والفراغ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، وتكون بمعنى السَّبْح بالحاء غير المعجمة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّـلْ إِلَيْـهِ تَبْتِيـلًا ﴾ (٨)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أى ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبـة . وقيل : أى اقصد بعملك وجه ربك . وقال سهل : اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم فى ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك ، وتقطعك عما سـواه . وقيل : اذكر اسم ربك فى وعده ووعيده ، لتوفّر على طاعته وتعدل عن معصيته . وقال الكلبي : صلّ لربك أى بالنهار .

قلت : وهذا حسن فإنه لمـا ذكر الليل ذكر النهار ؛ إذ هو قسيمه ؛ وقد قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » (١) على ما تقدّم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٥ فما بعدها .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التبتل الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل . أي آنقطع بعبادتك إليه ولا تشرك به غيره . يقال : بتلت الشيء أي قطعته ؛ ومنه قولهم : طلّقها بَتَّة بَتْلَة ، وهذه صَدَقة بَتَّة بَتْلَة ؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها ؛ أي قطع ملكه عنها بالكلية ؛ ومنه مريم البتول لآنقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتل ؛ لآنقطاعه عن الناس وآنفراده بالعبادة . قال :

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كَأَنَّهـا * مَنَـارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّـلِ (١)

وفي الحديث النهي عن التبتل وهو الآنقطاع عن الناس والجماعات . وقيل : إن أصله عند العرب التفرد ؛ قاله آبن عرفة . والأول أقـوى لمـا ذكرنا . ويقـال : كيف قال « تبتيلا » ولم يقـل تبتلا ؟ قيل له : لأن معنى تَبَتَّل بَتَّل نفسَه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل .

الثالثـــة ــ قـد مضى في « المـائدة (٢) » في تفسير قوله تعـالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » [حالُ الدين في الكراهية (٣)] لمن تبتل وآنقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية . قال آبن العربي : وأما اليوم وقـد مَرِجت عهودُ الناس ، وخفّت أماناتهـم ، وآستولى الحـرام على الحطام (٤) ، فالعزلة خير من الخلطة ، والعُزْبة أفضـل من التأهل ؛ ولكن معـنى الآية : آنقطع عن الأوثان والأصـنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك قال مجاهـد : معناه أخلص له العبـادة ، ولم يرد التبتل فصار التبتل مأمورا به في القرآن منهيا عنه في السنة ، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي فلا يتناقضان ، وإنما بعث ليبين للناس ما نزل إليهـم ؛ فالتبتـل المأمور به الآنقطاع إلى الله بإخلاص العبـادة كما قال تعـالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » والتبتل المنهي عنه هو سلوك مسلك النصارى

(١) البيت من معلقة آمرئ القيس ومعناه : إذا آبتسمت بالليل رأيت لثناياها بريقا وضوءا ، وإذا برزت في الظلام آستنار وجهها حتى يغلب ظلمة الليل . وممسى راهب أي إمساؤه .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦١ فما بعدها .		(٣) الزيادة من آبن العربي .

(٤) في نسخة : الحكام .

فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن .

قوله تعالى : رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ﴾ قرأ أهل الحرمين وآبن محيصن ومجاهد وأبو عمرو وآبن أبى إسحق وحفص « رَبُّ » بالرفع على الآبتداء والخبر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . وقيل : على إضمار «هو» . الباقون « رَبِّ » بالخفض على نعت الرب تعالى فى قوله تعالى : « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » « رَبِّ الْمَشْرِقِ » ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب آنقطع بعمله وأمله إليه . ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى قائما بأمورك . وقيل : كفيلا بما وعدك .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى من الأذى والسبّ والآستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعائهم . ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ أى لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإن فى ذلك ترك الدعاء إلى الله . وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم ، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ؛ قاله قتادة وغيره . وقال أبو الدرداء : إنا لَنَكْشِر فى وجوه [أقوام](١) ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي والْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى آرض بى لعقابهم . نزلت فى صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين . وقال مقاتل : نزلت فى المُطْعِمين يوم بدر وهم عشرة ، وقد تقدم ذكرهم فى « الأنفال »(٢) . وقال يحيى بن سلّام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير أخبرت أنهم آثنا عشر رجلا . ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أولى الغنى والترفّه واللذة فى الدنيا . ﴿ وَمَهِّلْهُمْ

(١) الزيادة من نهاية آبن الأثير . (٢) راجع جـ ٨ ص ٥٣ .

قَلِيلاً ﴾ يعني إلى مدة آجالهـم . قالت عائشة رضي الله عنها : لمـا نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر . وقيل : « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً » يعني إلى مدة الدنيا .

قوله تعـالى : إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ﴾ الأنكال القيود . عن الحسن ومجاهد وغيرهما واحدها نِكل وهو ما منع الإنسان من الحركة . وقيل سمى نِكلا؛ لأنه ينكل به . قال الشعبي أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النـار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا ٱستفلت بهـم . وقال الكلبي : الأنكال الأغلال . والأول أعرف في اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكـالَهُ * وقَدْ كُنَّ(1) قَبْلَكَ لا تُقْطَعُ

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل . وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يحبّ النَّكَل على النَّكَل " بالتحريك؛ قاله الجوهري . قيل : وما النَّكَل؟ قال : " الرجل القويّ المجرّب على الفرس القويّ المجرَّب "؛ ذكره المـاوردي . قال : ومن ذلك سمى القيد نِكْلا لقوته؛ وكذلك الغُلّ وكل عذاب قوى فٱشتد . والجحيم النار المؤججة . ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي غير سائغ ؛ يأخذ بالحلق لا هو نازل ولا هو خارج ؛ وهو الغسلين والزّقوم والضّريع ؛ قاله ٱبن عباس . وعنه أيضا : أنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج . وقال الزجاج : أي طعامهم الضّريع ؛ كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ »وهو شوك كالعوسج . وقال مجاهد : هوالزقوم؛ كما قال : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ » . والمعنى واحد وقال حُمْران بن أَعْيَن : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ »

(1) في ديوان الخنساء : ظلّ .

فصعق . وقال خليد بن حسان : أمسى الحسن عندنا صائمـا ، فأتيته بطعـام فعرضت له هذه الآية « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا » فقال : آرفع طعامك . فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : آرفعوه . ومثله فى الثالثة ، فآنطلق آبنه إلى ثابت البُنَانى و يزيد الضَّبِّى ويحيى البكّاء فجاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق . والغُصَّة الشَّجا وهو ما يَنشَب فى الحلق من عَظْم أو غيره وجمعها غُصَص . والغَصَص بالفتح مصدر قولك : غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ فأنت غاصّ بالطعـام وغصّان ، وأغصصته أنا ، والمنزل غاصٌّ بالقوم أى ممتلئ بهم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَـالُ ﴾ أى تتحرك وتضطرب بمن عليها . وآنتصب « يَوْم » على الظرف أى ينكل بهم ويعذّبون « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » . وقيل : بنزع الخافض يعنى هذه العقوبة فى يوم ترجف الأرض والجبال . وقيل : العامل « ذَرْنِى » أى وذرنى والمكذبين يوم ترجف الأرض والجبال . ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ أى وتكون والكثيب الرمل المجتمع ؛ قال حسان :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ (١) * كَخَطِّ الْوَحْيِ فِى الْوَرَقِ الْقَشِيبِ

والمَهِيل الذى يمرّ تحت الأرجل . قال الضحاك والكلبى : المهيل هو الذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله آنهال . وقال آبن عباس : « مَهِيـلًا » أى رملا سائلا متناثرا . وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك : هِلْت عليه التراب أَهِيـله هَيْلا إذا صببته . يقال : مَهِيل ومَهْيول ، ومَكِيل ومَكْيول ، ومَدِين ومَدْيون ، ومَعِين ومَعْيون ؛ قال الشاعر (٢) :

قد كان قَوْمُكَ يَحْسَبونَكَ سَيِّدًا * وإِخَالُ أنّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنهم شَكَوا إليه الجدُوبة ؛ فقال : "أَتَكِيلون أم تَهِيلون"

(١) ويروى فى الرق . والوحى هنا الكتابة . والقشيب : الجديد . شبه حسان رضى الله عنه آثار الديار بالسطور .

(٢) هو عباس بن مرداس .

قالوا : نَهِيل . قال : " كِيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه " . وأَهَلْت الدقيقَ لغـة فى هِلْت فهو مُهال ومَهِيل . وإنما حذفت الواو ؛ لأن الياء تثقل فيها الضمة فحذفت فسكنت هى والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ يريد النبى صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُـولًا ﴾ وهو موسى ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُـولَ ﴾ أى كذب به ولم يؤمن . قال مقاتل : ذكر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة آزدروا محمدا صلى الله عليه وسـلم وآستخفّوا به ؛ لأنه ولد فيهم كما أن فـرعون آزدرى موسى ؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهـم ؛ كما قال تعالى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » . قال المهدوى : ودخلت الألف واللام فى الرسول لتقدّم ذكره ؛ ولذلك آختير فى أوّل الكتب سلام عليكم وفى آخرها السلام عليكم . ﴿ وَبِيلًا ﴾ أى ثقيلا شديدا وضَرْب وبيل وعذاب وبيل أى شديد ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . ومنه مطر وابل أى شـديد؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : أى ثقيلا غليظا . ومنه قيـل للطر وابل . وقيـل : مهلكا [والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة] (١) قال :

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى ✻ وجَدْتِ مَرَارةَ الْكَلَإِ الْوَبِيلِ

وآستوبل فلان كذا أى لم يحمد عاقبته . وماء وبيل ؛ أى وخيم غير مرىء ، وكلأٌ مستوبَل وطعام وبيل ومُستوبَلٌ إذا لم يُمْرِئْ ولم يُستمْرأْ ؛ قال زهير :

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبى ونص بأنها عبارته .

فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا * إلَى كَلَإٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

وقالت الخنساء :

لَقَدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لَاقَتْ * فَوَارِسَ مَالِكٍ أَكْلًا وَبِيلَا

والوبيل أيضا العصا الضخمة ؛ قال :

لَوَ اَصْبَحَ فى يُمْنَى يَدَىَّ زِمامُها * وفى كَفِّىَ الْأُخْرَى وَبِيلٌ تُحَاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء ، والمَوْبِلة أيضا الحُزْمة من الحطب ، وكذلك الوَبِيل ؛ قال طَرَفة :

* عَقِيلَةُ شَيْخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ[(1)] *

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ هو توبيخ وتقريع ، أى كيف تتقون العذاب إن كفرتم . وفيه تقديم وتأخير؛ أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم . وكذا قراءة عبد الله وعطية . قال الحسن : أى بأى صلاة تتقون العذاب ؟ بأى صوم تتقون العذاب ؟ . وفيه إضمار ؛ أى كيف تتقون عذاب يوم . وقال قتادة : والله ما يتَّقى من كفر بالله ذلك اليوم بشىء . و « يوما » مفعول بـ « تتقون » على هذه القراءة وليس بظرف ، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول « كفرتم » . وقال بعض المفسرين : وقف التمام على قوله « كفرتم » والابتداء « يوما » يذهب إلى أن اليوم مفعول « يجعل » والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيبا فى يوم . قال ابن الأنبارى : وهذا لا يصلح ؛ لأن اليوم هو الذى يفعل هذا من شدّة هوله . المهدوى : والضمير فى « يجعل » يجوز أن يكون لله عز وجل ، ويجوز أن يكون لليوم ، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له ، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال : يوما يجعل الله الولدان فيه شيبا . ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم

(1) يلندد شديد الخصومة . وصدر البيت :

* فمرت كهاة ذات خيف جلالة *

بـ « كفرتم » وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا علّق بـ « كفرتم » آحتاج إلى صفة . أى كفرتم بيوم . فإن آحتج محتج بأن الصفة قـد تحذف وينصب ما بعـدها ، آحتججنا عليه بقراءة عبد الله « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يوماً » .

قلت : هذه القراءة ليست متواترة ، وإنما جاءت على وجه التفسير . وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ « يوما » مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها ؛ أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء . وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب « فكيف تتقونِ » بكسر النون على الإضافة . و « الْوِلْدَانَ » الصبيان . وقال السدى : هم أولاد الزنى . وقيل : أولاد المشركين . والعموم أصح ؛ أى يشيب فيه الصغير من غير كبر . وذلك حين يقال : " يا آدم قم فآبعث بعث النار " . على ما تقدّم فى أوّل سورة « الحج »(1) . قال القشيرى : ثم إن أهل الجنة يغير الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد . وقيل : هـذا ضرب مثل لشـدّة ذلك اليوم وهو مجاز ؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلْدانٌ ، ولكن معناه أن هيبـة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة . ويقال : هذا وقت الفزع ، وقبل أن ينفخ فى الصور نفخة الصعق ؛ فالله أعلم . الزمخشرى : وقـد مر بى فى بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشـعر كحنك الغراب ، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحيـة كالثغامة ، فقال : أُرِيت القيامة والجنـة والنار فى المنام ، ورأيت الناس يقادون فى السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

قوله تعـالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ أى متشقّقة لشدّته . ومعنى « بِهِ » أى فيه ؛ أى فى ذلك اليوم لهوله . هذا أحسن ما قيل فيه . ويقال : مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى آنفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ؛ كقوله تعـالى : « ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقيـل « بِهِ » أى له أى لذلك اليوم ؛ يقال : فعلت كذا بحرمتك ولحـرمتك والباء واللام وفى متقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال الله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى فى يوم القيامة . وقيل : « بِهِ » أى بالأمر أى السماء منفطر بمـا يجعل الولدان شيبا .

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢ فما بعدها .

وقيـل : منفطر بالله أى بأمره . وقال أبو عمـرو بن العلاء : لم يقل منفطرة ؛ لأن مجازها السقف ؛ تقول : هذا سماء البيت ؛ قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوماً * لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ وبِالسَّحابِ

وفى التنزيل : « وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وقال الفراء : السماء يذكر و يؤنث . وقال أبو على : هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » . وقال أبو على أيضا : أى السماء ذات ٱنفطار ؛ كقولهم : ٱمرأة مرضع أى ذات إرضاع بجرى على طريق النسب . ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أى بالقيامة والحساب والجزاء ﴿ مَفْعُولًا ﴾ كائنا لا شك فيه ولا خلف . وقال مقاتل : كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عظة . وقيل : آيات القرآن إذ هو كالسورة الواحدة . ﴿ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ أى من أراد أن يؤمن و يتخذ بذلك إلى ربه ﴿ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له ؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل . ثم قيل : نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » قال الثعلبي : والأشبه أنه غير منسوخ .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هــذه الآية تفسير لقوله تعالى : « قُمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » كما تقــدّم ، وهى الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدّم . « تَقُومُ » معناه تصلّى و ﴿ أَدْنَى ﴾ أى أقل . وقرأ ٱبن السَّمَيقع وأبو حيوة وهشام عن أهــل الشام ﴿ ثُلْثَيِ ﴾ بإسكان اللام . ﴿ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِـهِ ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفا على « ثُلُثَيِ » ؛ المعنى : تقوم أدنى من ثلثى الليل ومن نصفه وثلثه . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ كقوله تعـالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه . وقرأ ٱبن كثير والكوفيون « وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ » بالنصب عطفا على « أَدْنَى » التقدير : تقوم أدنى من ثلثى الليل وتقوم نصفَه وثلثَه . قال الفراء : وهو أشبه بالصواب ؛ لأنه قال أقل من الثلثين ، ثم ذكر نفس القِلة لا أقل من القلة . القشيرى : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف ؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر ، وكانوا يزيدون وفى الزيادة إصابة المقصــود ، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامــه فلا يصيبونه وينقصون منــه . ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل ، ورخص لهم فى الزيادة والنقصان ، فكانوا ينتهون فى الزيادة إلى قــريب من الثلثــين وفى النصف إلى الثلث . ويحتمل أنهم قــدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث والزيادة إلى الثلثين ، وكان فيهم من يفى بذلك ، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم . وقال قوم : إنما ٱفترض الله عليهم الربع وكانوا ينقصون من الربع . وهذا القول تحكم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأنتم تعلمــون بالتحرى والٱجتهاد الذى يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أى لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به . وقيل : أى لن تطيقوا قيام الليل . والأوّل أصح ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل (١) وغيره : لمــا نزلت « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ

(١) فى نسخة : قال النقاش .

أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فٱنتفخت أقدامهم ، وٱنتُقعت ألوانُهم ، فرحمهم الله وخفّف عنهم ؛ فقال تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » و « أَنْ » مخففة من الثقيلة ؛ أى علم أنكم لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، وٱحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضا ، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أى فعاد عليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به . وقيل : أى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم . وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر . وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرّى ، فخفف عنهم ذلك التحرّى . وقيل : معنى «وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» يخلقهما مقدَّرين ؛ كقوله تعالى : «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا» . ٱبن العربى : تقدير الخلقة لا يتعلق به حكم ، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة ؛ أى فٱقرءوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم . قال السدى : مائة آية . الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجّه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح ؛ لقوله عليه السلام : "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين(١)" خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو . وقد ذكرناه فى مقدّمة الكتاب(٢) والحمد لله . القول الثانى : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أى فصلّوا ما تيسر عليكم والصلاة تسمى قرآنا ؛ كقوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى صلاة الفجر . ٱبن العربى : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر وإليها يرجع القول .

---

(١) أى أعطى من الأجر قنطارا . (٢) راجع ج ١ ص ٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : الأوّل أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثانى مجاز فإنه من تسمية الشيء ببعض ماهو من أعماله .

الخامســة — قال بعض العلماء قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه . ثم آحتمل قول الله عز وجل : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » معنيين أحدهما أن يكون فرضا ثانيا؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره . والآخر أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » فآحتمل قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » أى يتهجد بغير الذى فرض عليه مما تيسر منه . قال الشافعى : فكان الواجب طلب الآستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادســة — قال القشيرى أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حقّ الأمة، وبقيت الفريضة فى حقّ النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : نسخ التقدير بمقدار وبقى أصل الوجوب؛ كقوله تعالى : « فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » فالهدى لابدّ منه ، كذلك لم يكن بدٌّ من صلاة الليل، ولكن فوّض قدره إلى آختيار المصلى؛ وعلى هذا فقد قال قوم : فرض قيام الليل بالقليل باق . وهو مذهب الحسن . وقال قوم : نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا . وهو مذهب الشافعى . ولعل الفريضة التى بقيت فى حقّ النبىّ صلى الله عليه وسلم هى هذا، وهو قيامه ومقداره مفوّض إلى خيرته . وإذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » معناه آقرءوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم . وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر فى حقّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أيضا ، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه ، وقوله : « نَافِلَةً لَكَ » محمول على حقيقة النفل . ومن قال : نسخ المقدار وبقى أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثانى وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ » وقوله : « فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ » وما فى الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع . وقيـل : وقع النسخ بقوله تعـالى : « وَمِنَ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » والخطاب للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم وللأمة ، كما أن فرضية الصلاة وإن خوطب بهـا النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعـالى : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْـلَ » كانت عامة له ولغيره . وقد قيل : إن فريضة الليل امتدّت إلى مابعد الهجرة ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعـالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وإنمـا فرض القتـال بالمدينة ؛ فعلى هـذا بيان المواقيت جرى بمكة فقيام الليـل نسخ بقوله تعـالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » . وقال ابن عباس : لمـا قدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم نسخ قول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ » وجوبَ صلاة الليل .

السابعـــة — قول الله تعـالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ الآية ؛ بين سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخلق منهم المريض ويشقّ عليهم قيام الليل، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر فى التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء . و « أَنْ » فى « أَنْ سَيَكُونُ » مخففة من الثقيلة؛ أى علم أنه سيكون .

الثامنـــة — سوّى الله تعالى فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المـال الحلال للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال ، فكان هذا دليلا على أن كسب المـال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد فى سبيل الله . وروى إبراهيم عن علقمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء “ ثم قرأ رسول الله صـلى الله عليه وسـلم « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال ابن مسعود : أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء . وقرأ « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » الآية . وقال ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعـد الموت فى سبيل الله أحبّ إلىّ من الموت بين شعبتى رَحْلِي ابتغى من

فضل الله ضاربا فى الأرض . وقال طاوس: الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله . وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة فى السعر ؛ فقال التجار للوكيل : إن أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من الاحتكار كفافا لا على ولا لى . ويروى أن غلاما من أهل مكة كان ملازما للمسجد ، فافتقده ابن عمر ، فمشى إلى بيته فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ؛ فلقيه فقال له : يا بنى ! مالك وللطعام ؟ فهلا إبلا ، فهلا بقرا ، فهلا غنما : إن صاحب الطعام يحب المحْل ، وصاحب الماشية يحب الغيث .

التاسعة — قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى صلوا ما أمكن ؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم . قال ابن العربى : وقد قال قوم إن فرض قيام الليل سُنّ فى ركعتين من هذه الآية ؛ قاله البخارى وغيره ، وعقد بابا ذكر فيه حديث "يعقد الشيطان على قافية[1] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب على كل عُقْدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقْدة فإن توضأ انحلت عُقْدة فإن صلى انحلت عُقَده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان" وذكر حديث سَمُرة بن جُنْدب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا قال : "أما الذى يُثْلَغ[2] رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه[3] وينام عن الصلاة المكتوبة" وحديث عبد الله بن مسعود قال : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل ينام الليل كله فقال : "ذلك رجل بال الشيطان فى أذنيه" فقال ابن العربى : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة فيحمل المطلق على المقيد ؛ لاحتماله له ، وتسقط الدعوى ممن عينه

(١) قافية الرأس مؤخره ، وقيل : وسطه ؛ أراد تثقيله فى النوم وإطالته .
(٢) الثلغ : وهو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ .		(٣) يرفضه : يتركه .

لقيام الليل . وفى الصحيح واللفظ للبخارى : قال عبد الله بن عمرو، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل " ولو كان فرضا ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذم. وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاما شابا عَزَبا، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار، فإذا هى مطوية كطى البئر، و إذا لها قرنان ، و إذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : ولقينا ملك آخر، فقال لى : لم تُرَعْ[1] . فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " نعم الرجلُ عبد الله لو كان يصلى من الليل " فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا ؛ فلو كان ترك القيام معصية لما قال له الملك : لم تُرَعْ . والله أعلم .

العاشرة — إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، وأن قوله : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ » ، « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » محمول على ظاهره من القراءة فى الصلاة، فاختلف العلماء فى قدر ما يلزمه أن يقرأ به فى الصلاة؛ فقال مالك والشافعى : فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها، وقدره أبو حنيفة بآية واحدة من آى القرآن كانت . وعنه ثلاث آيات ؛ لأنها أقل سورة . ذكر القول الأول الماوردى والثانى ابن العربى . والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعى على ما بيناه فى سورة « الفاتحة[2] » أول الكتاب والحمد لله . وقيل : إن المراد به قراءة القرآن فى غير الصلاة؛ قال الماوردى : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب . وهذا قول الأكثرين؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأه لوجب عليه أن يحفظه . الثانى أنه محمول على الوجوب ؛ ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد و بعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل

(١) لم ترع : لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك . (٢) راجع جـ ١ ص ١٢٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

التوحيد منه أن يحفظه؛ لأن حفظ القــرآن من القرب المستحبة دون الواجبة . وفي قــدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن؛ لأن الله تعالى يسره على عباده؛ قاله الضحاك . الثاني ثلث القرآن؛ حكاه جويبر . الثالث مائتا آية؛ قاله السدي . الرابع مائة آية؛ قاله ابن عباس . الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة؛ قاله أبو خالد الكناني .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها . ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة في أموالكم؛ قاله عكرمة وقتــادة . وقال الحرث العُكْلي : صــدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوع . وقيل : كل أفعــال الخير . وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانيــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصا من المــال الطيب . وقد مضى في سورة « الحديد »(١) بيانه . وقال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله .

الثالثــة عشرة — ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْــدَ اللَّهِ ﴾ تقدّم في سورة «البقرة»(٢) . وروى عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حيسا — يعني تمرا بلبن — فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه . فقال بعضهم : مايدري هذا المسكين ماهذا؟ فقال عمر : لكن ربّ المسكين يدري ما هو . وكأنه تأوّل « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا » أي مما تركتم وخلفتم، ومن الشح والتقصير . ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجرا؛ لإعطائه بالحسنة عشرا . ونصب «خيرًا وأعظمَ» على المفعول الثاني لـ« تَجِدُوهُ» و «هو» فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين لا محل له من الإعراب . و «أجرًا» تمييز . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ أي سـلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمــا كان قبل التوبة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لكم بعدها؛ قاله سعيد بن جبير . ختمت السورة .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٢

(٢) راجع ٢ ص ٧٣ طبعة ثانية .

سورة المدثر

مكية فى قول الجميع وهى ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ أى ياذا الذى قد تدثّر بثيابه ، أى تغشى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقرأ أبىّ « المُتَدَثِّر » على الأصل . وقال مقاتل : معظم هذه السورة فى الوليد بن المغيرة . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُحدِّث — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحى — قال فى حديثه : " فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسىّ بين السماء والأرض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَجُئِثْتُ(١) منه فرقا فرجعت فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله تعالى " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ " فى رواية — قبل أن تفرض الصلاة — وهى الأوثان قال : " ثم تتابع الوحى " خرجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . قال مسلم : وحدّثنا زهير بن حرب ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثنا الأوزاعى قال : سمعت يحيى يقول : سألت أبا سلمة أىّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « اقرأ » فقال :

---

(١) جئثت أى فزعت وخفت وفى رواية جثثت بثاءين بمعناه .

سألت جابر بن عبد الله أيّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « آقرأ » فقال جابر : أحدّثكم ما حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت فآستبطنت بطن الوادى فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحدا ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء — يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم — فأخذتنى رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت دثّرونى فدثّرونى فصبّوا علىّ ماء فأنزل الله عز وجل « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » خرّجه البخارى وقال فيه : " فأتيت خديجة فقلت دثّرونى وصُبّوا علىّ ماء باردا فدثّرونى وصبّوا علىّ ماء باردا فنزلت « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » " . آبن العربى : وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من عُقْبة [بن ربيعة] (١) أمر فرجع إلى منزله مغموما ، فقلق وآضطجع فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » وهذا باطل . وقال القشيرى أبو نصر : وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر فوجد من ذلك غمًّا وحُمَّ فتدثّر بثيابه ، فقال الله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » أى لا تفكر فى قولهم وبلغهم الرسالة . وقيل : آجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عدىّ وقالوا : قد آجتمعت وفود العرب فى أيام الحج ، وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد آختلفتم فى الإخبار عنه ؛ فمن قائل يقول مجنون ، وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر ، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع فى رجل واحد ، فسموا محمدا بآسم واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به ، فقام منهم رجل فقال : شاعر ؛ فقال الوليد : سمعت كلام آبن الأبرص وأمية بن أبى الصَّلْت ، وما يشبه كلامُ محمد كلامَ واحد منهما ؛ فقالوا : كاهن . فقال : الكاهن يَصدُق ويكذب وما كَذَب محمد قط ؛ فقام آخر فقال : مجنون ؛ فقال الوليد : المجنون يَخْنُق الناس وما خَنَق محمد قط . وآنصرف الوليد إلى بيته فقالوا : صبأ الوليد بن المغيرة ؛ فدخل عليه أبو جهل وقال : مالك يا أبا عبد شمس !

(١) الزيادة من آبن العربى .

هذه قريش تجمع لك شيئا يعطونكه، زعموا أنك قد آحتجت وصبأت . فقال الوليد : مالى إلى ذلك حاجة، ولكنى فكرت فى محمد، فقلت : ما يكون من الساحر؟ فقيل : يفرق بين الأب وآبنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها؛ فقلتُ : إنه ساحر . شاع هـذا فى الناس وصاحوا يقولون : إن محمدا ساحر . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى بيته محزونا فتدثّر بقطيفة، ونزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وقال عِكرمة : معنى « يَأَيُّهَا الْمُـدَّثِّرُ » أى المدثر بالنبوّة وأثقالها . آبن العربى : وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد . وعلى أنها أوّل القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثانى ما نزل .

الثانيـــة — قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذا ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقـل يا محمد ويافلان ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدّم فى سورة « المزمّل » . ومثله قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إذ نام فى المسجد : " قم أبا تراب " وكان خرج مغاضبا لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداءه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : " قم يا نومان " وقد تقدّم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى خوّف أهل مكة وحذّرهم العـذاب إن لم يُسلموا . وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته؛ لأنه مقدمة الرسالة . وقيل : هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها . وقال الفراء : قم فصل وأمر بالصلاة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد . وفى حديث أنهم قالوا : بم تُفتتح الصلاةُ؟ فنزلت « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » أى وصفه بأنه أكبر . قال آبن العربى : وهـذا القول وإن كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد فيه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه؛ وقـد روى أن أبا سـفيان قال يوم أُحُد : آعلُ هُبَل ؛ فقال النبى صلى الله عليـه وسلم : " قولوا الله أعلى وأجلّ " وقد صار هـذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا

وصلاة وذكرا بقوله : « الله أكبر » وحمــل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وســلم الوارد على الإطلاق في مواردها ؛ منها قوله : " تحريمها التكبير وتحليلها التسليم " والشرع يقتضي بعرفه ما يقْتضي بعمومه ، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصا له من الشِّرك ، وإعلانا باسمه في النُّسك ، وإفرادا لمـا شرع منه لأمره بالسَّفْك .

قلت : قد تقدّم في أوّل سورة « البقرة »(١) أن هــذا اللفظ « الله أكبر » هو المتعبد به في الصلاة ، المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي التفسير : إنه لمـا نزل قوله تعــالى « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قام رسول الله صلى الله عليه وســلم وقال : " الله أكبر " فكبرت خديجة وعلمت أنه الوحي من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الخامســـة — الفاء في قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في « فَأَنْذِرْ » أي قم فأنذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج . وقال ٱبن جني : هو كقولك زيدا فٱضرب ؛ أي زيدا ٱضرب ، فالفاء زائدة .

السادســة — قوله تعــالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثمانية أقوال : أحدها أن المراد بالثياب العمل . الثاني القلب . الثالث النفس . الرابع الجسم . الخامس الأهل . السادس الخلق . السابع الدين . الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر . فمن ذهب إلى القول الأوّل قال : تأويل الآية وعملك فأصلح ؛ قاله مجاهد وٱبن زيد . وروى منصور عن أبي رَزين قال : يقول وعملك فأصلح ؛ قال : وإذا كان الرجل خبيث العمــل قالوا إن فلانا خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمــل قالوا إن فلانا طاهر الثياب ؛ ونحوه عن السدي . ومنه قول الشاعر :

لاهُمَّ إنّ عامرَ بنَ جَهْمِ * أَوْذَمَ حَجًّا في ثيابٍ دُسْمِ(٢)

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢) ثياب دسم : وسخة ؛ ومعنى البيت : أنه حج وهو متدنس بالذنوب . وأوذم الحج أوجبه .

ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُحشَر المرءُ فى ثوبيه اللذين مات عليهما" يعنى عمله الصالح والطالح ؛ ذكره الماوردى . ومن ذهب إلى القول الثانى قال : إن تأويل الآية وقلبك فطهر؛ قاله آبن عباس وسعيد بن جبير ؛ دليله قول آمرئ القيس :

* فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ(١) *

أى قلبى من قلبك . قال الماوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما — معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصى ؛ قاله آبن عباس وقتادة . الثانى — وقلبك فطهر من الغدر ؛ أى لا تغدر فتكون دنس الثياب . وهذا مروى عن آبن عباس ، وآستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ * لبستُ ولا مِن غَدْرةٍ أتقنَّعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال : تأويل الآية ونفسك فطهر ؛ أى من الذنوب . والعرب تكنى عن النفس بالثياب ؛ قاله آبن عباس . ومنه قول عنترة :

فشككتُ بالرُّمحِ الطَّويلِ ثيابَهُ * ليس الكريمُ على القَنَا بمُحَرَّمِ

وقال آمرؤ القيس :

* فَسُلِّى ثيابى من ثيابِك تَنْسُلِ *

وقال(٢) :

ثيابُ بنى عوفٍ طَهارَى نقيَّةٌ * وأوجُهُهم بيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

أى أنفس بنى عوف . ومن ذهب إلى القول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر؛ أى عن المعاصى الظاهرة . ومما جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلا :

رموها بأثْوابٍ خِفافٍ فلا تَرَى * لها شَبَهًا إلّا النَّعامَ المُنَفَّرا

(١) صدر البيت : * وإن كنت قد ساءتك منى خليقة *

(٢) نسب المؤلف هذا البيت فيما سيأتى لآبن أبى كبشة مرة ولآمرئ القيس مرة أخرى ، وفى « اللسان » و « شرح القاموس » أنه لآمرئ القيس ولم نعثر عليه فى ديوانه ، وقد نسبه آبن العربى لابن أبى كبشة .

أى ركبوها فرموها بأنفسهم . ومن ذهب إلى القول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمى الأهل ثوبا ولباسا وإزارا ؛ قال الله تعالى : «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» . الماوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما — معناه ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف . الثانى — الاستمتاع بهن فى القبل دون الدبر، فى الطهر لا فى الحيض . حكاه ابن بحر . ومن ذهب إلى القول السادس قال : تأويل الآية وخلقك فحسّن . قاله الحسن والقُرَظى ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه . وقال الشاعر :

وَيَحْيَى لا يُلامُ بسوءِ خُلْقٍ　*　وَيَحْيَى طاهِرُ الأثوابِ حُرُّ

أى حسن الأخلاق . ومن ذهب إلى القول السابع قال : تأويل الآية ودينك فطهر . وفى الصحيحين عنه عليه السلام قال : "ورأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجره" . قالوا : يا رسول الله فما أولت ذلك ؟ قال : الدين . وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبنى أن أقرأ القرآن إلا فى الصلاة والمساجد لا فى الطرق، قال الله تعالى : «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين . وقد روى عبد الله بن نافع عن أبى بكر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس فى قوله تعالى : «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى لا تلبسها على غدرة ؛ ومنه قول أبى كبشة :

ثِيابُ بَنِى عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ　*　وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

يعنى بطهارة ثيابهم سلامتهم من الدناءات، ويعنى بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم فى الخلقة أو كليهما ؛ قاله ابن العربى . وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عكرمة . ومنه قول الشاعر :

* أَوَدَمَ حَجًّا فى ثيابٍ دُسْمِ *

أى قد دنّسها بالمعاصى . وقال النابغة :

رِقاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهـم * يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يومَ السَّباسِبِ (١)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات فلهم فى تأويله أربعة أوجه ؛ أحدها — معناه وثيابك فأنق؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* ثيابُ بنى عَوْفٍ طَهارَى نقِيَّةٌ *

الثانى — وثيابك فشمِّرْ وقصِّرْ؛ فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة ، فإذا آنجرّت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس . الثالث — «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» من النجاسة بالماء؛ قاله محمد بن سيرين وآبن زيد والفقهاء . الرابع — لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام . وعن آبن عباس : لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طاهر . آبن العربى وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهى تتناول معنيين : أحدهما — تقصير الأذيال؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيا : آرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إِزْرَةُ المؤمنِ (٢) إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففى النار" فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم الغاية فى لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكبر ، وقائدة العجب ، [وأشدّ ما فى الأمر أنهم يعصون وينجسون ويلحقون أنفسهم](٣) بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه . قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء" ولفظ الصحيح : "من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة" . قال أبو بكر : يارسول الله ! إن أحد

(١) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحرث الغسانى . وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم ، وبطيب حجزاتهم عفتهم . والسباسب يوم « السعانين » وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانيا .

(٢) الإزرة بالكسر : الحالة وهيئة الائتزار .

(٣) الزيادة من آبن العربى .

شق إزاري يسترخي إلا أني أتعاهد ذلك منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لست ممن يصنعه خيلاء" فعم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي واستثنى الصديق ، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء (١) ، وليس ذلك لهم . والمعنى الثاني — غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها صحيح فيها . المهدوي : وبه استدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال ابن سيرين وابن زيد : لا تصلّ إلا في ثوب طاهر . واحتج بها الشافعي على وجوب طهارة الثوب . وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل . وقد مضى هذا القول في سورة « براءة » (٢) مستوفى .

قوله تعالى : وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : يعني الأوثان ؛ دليله قوله تعالى : « فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ » وقاله ابن عباس وابن زيد . وعن ابن عباس أيضا : والمأثم فاهجر ؛ أي فاترك . وكذا روى مغيرة عن إبراهيم النخعي قال : الرجز الإثم . وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة صنمان كانا عند البيت . وقيل : الرجز العذاب على تقدير حذف المضاف ؛ المعنى وعمل الرجز فاهجر ، أو العمل المؤدي إلى العذاب . وأصل الرجز العذاب ، قال الله تعالى : « لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » وقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » فسميت الأوثان رجزا ؛ لأنها تؤدي إلى العذاب . وقراءة العامة «الرِّجْزَ» بكسر الراء . وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم . «والرُّجْزَ» بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر . وقال أبو العالية والربيع والكسائي : الرُّجز بالضم الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية . وقال الكسائي أيضا : بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدي : الرَّجز بنصب الراء (٣) الوعيد .

---

(١) في ابن العربي : بالأقصياء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦١ فما بعدها .

(٣) قوله بنصب الراء ... كذا في نسخ الأصل ولم نظفر به في المراجع التي بأيدينا .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ فيه أحد عشر تأويلا؛ الأول — لا تمنن على ربك بما تحمله من أثقال النبوة ، كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير . الثانى — لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ؛ وقاله مجاهد . الثالث — عن مجاهد أيضا : لا تضعف أن تستكثر من الخير؛ من قولك حبل متين إذا كان ضعيفا؛ ودليله قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ » . الرابع — عن مجاهد أيضا والربيع : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله عليك . قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك مِنّة من الله عليك؛ إذ جعل الله لك سبيلا إلى عبادته . الخامس — قال الحسن : لا تمنن على الله بعملك فتستكثره . السادس — لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به . السابع — قال القرظى : لا تعط مالك مصانعة . الثامن — قال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك . التاسع — لا تقل دعوت فلم يستجب لى . العاشر — لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها، ولكن اصبر حتى يكون الله هو الذى يثيبك عليها . الحادى عشر — لا تفعل الخير لترائى به الناس .

الثانيــة — هذه الأقوال و إن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال ؛ يقال : مننت فلانا كذا أى أعطيته . و يقال للعطية المِنّة ؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا ؛ ولهذا قال : " ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفا إلى مصالح المسلمين ؛ ولهذا لم يورث ؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء ، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة فى شيء من

الدنيا ؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية ، فكان يقبلها ويثيب عليها . وقال: "لو دعيت إلى كُرَاع[1] لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت" ابن العربى : وكان يقبلها سُنّة ولا يستكثرها شِرعة ، وإذا كان لا يعطى عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب ؛ لأنها باب من أبواب المذلة ، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطى عطية تنتظر ثوابها ، فإن الانتظار تعلق بالأطماع ، وذلك فى حيزه بحكم الامتناع ، وقد قال الله تعالى له : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » وذلك جائز لسائر الخلق ؛ لأنه من متاع الدنيا ، وطلب الكسب والتكاثر بها . وأما من قال أراد به العمل أى لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح ؛ فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ» قراءة العامة بإظهار التضعيف، وقرأ أبو السّمّال العدوى وأشهب العقيلى والحسن « وَلَا تَمُنَّ » مدغمة مفتوحة . « تَسْتَكْثِرُ » قراءة العامة بالرفع وهو فى معنى الحال ، تقول : جاء زيد يركض أى راكضا ؛ أى لا تعط شيئا مقدّرا أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه . وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهى وهو ردىء ؛ لأنه ليس بجواب . ويجوز أن يكون بدلا من « تَمْنُنْ » كأنه قال : لا تستكثر . وأنكره أبو حاتم وقال : لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه . ويحتمل أن يكون سكن تخفيفا كعضد . أو أن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش ويحيى « تَسْتَكْثِرَ » بالنصب توهم لام كى كأنه قال : ولا تمنن لتستكثر . وقيل : هو بإضمار « أن » كقوله[2] :

« أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغَى »

ويؤيده قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ » . قال الكسائى : فإذا حذف « أن » رفع وكان المعنى واحدا . وقد يكون المنّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم ، فيرجع إلى

(١) الكراع بوزان غراب وهو مستدق الساق من الرجل ، وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير .

(٢) البيت لطرفة بن العبد من معلقته وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى *

القول [الثانى][(١)]؛ ويعضده قوله تعالى: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» وقد يكون مرادا في هذه الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته . وقال مجاهد : على ما أوذيت . وقال ابن زيد : حملت أمرا عظيما ؛ محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله . وقيل : فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى . وقيل : فاصبر على البلوى ؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه . وقيل : على أوامره ونواهيه . وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ إذا نفخ في الصور . والناقور فاعول من النقر ؛ كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر في كلام العرب الصوت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

أُخَفِّضُــهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَــلَوْتُهُ * وَيَرْفَـعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِـيضِ

وهم يقولون : نَقَّر باسم الرجل إذا دعاه مختصا له بدعائه . وقال مجاهد وغيره : هو كهيئة البوق ويعني به النفخة الثانية . وقيل : الأولى ؛ لأنها أول الشدة الهائلة العامة . وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «النمل»[(٢)] و «الأنعام»[(٣)] وفي كتاب «التذكرة» والحمد لله . وعن أبي حبان قال : أمّنا زرارة بن أوفى فلما بلغ «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ» خرّ ميتا . ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي على من كفر

(١) زيادة يقتضيها المعنى . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعدها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠

بالله و بأنبيائه صلى الله عليهم ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى غير سهل ولا هين ؛ وذلك أن عُقَدَهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشدّ منها ، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخفّ منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى . و « يَوْمَئِذٍ » نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ . وقيل : جرّ بتقدير حرف جر؛ مجازه : فذلك فى يومئذ . وقيل : يجوز أن يكون رفعا إلا أنه بنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن .

قوله تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ « ذَرْنِي » أى دعنى ؛ وهى كلمة وعيد وتهديد . « وَمَنْ خَلَقْتُ » أى دعنى والذى خلقته وحيدا ؛ فـ« وَحِيدًا » على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف؛ أى خلقته وحده لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته. والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى، و إن كان الناس خلقوا مثل خلقه . و إنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة و إيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد فى قومه . قال ابن عباس : كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ » بزعمه « وَحِيدًا » لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد . وقال قوم : إن قوله تعالى «وَحِيدًا» يرجع إلى الرب تعالى على معنيين؛ أحدهما — ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . والثانى — أنى انفردت بخلقه ولم يشركنى فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ؛ فـ« وحيدا » على هذا حال من ضمير الفاعل وهو التاء فى « خَلَقْتُ » والأوّل قول مجاهد ؛ أى خلقته وحيدا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد فأنعمت عليه فكفر ؛ فقوله « وحيدا » على هذا يرجع إلى الوليد ؛ أى لم يكن له شىء فملكته . وقيل : أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيدا

كما خلق وحيدا . وقيل : الوحيد الذى لا يُعرَف(١) أبوه وكان الوليد معـروفا بأنه دعىّ ؛ كما ذكرنا فى قوله تعالى : « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » وهو فى صفة الوليد أيضا .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى خوّلته وأعطيته مالا ممدودا ، وهو ما كان للوليـد بين مكة والطائف من الإبل والحجور والنَّعَـم والجنان والعبيد والجوارى ؛ كذا كان آبن عباس يقول . وقال مجاهد : غلة ألف دينار ؛ وقاله سعيد بن جبير وآبن عباس أيضا . وقال قتادة : ستة آلاف دينار . وقال سفيان الثورى وقتادة : أربعة آلاف دينار . الثورى أيضا : ألف ألف دينار . مقاتل : كان له بستان لا ينقطع خيره شتاء ولا صيفا . وقال عمر رضى الله عنـه : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » غلة شهر بشهر . النعمان بن سالم : أرضا يزرع فيهـا . القشيرى : والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه ، بل يتـوالى كالزرع والضرع والتجارة .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أى حضورا لا يغيبون عنـه فى تصرف . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقيل : آثنا عشر ؛ قاله السدى والضحاك . قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا . مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ؛ أسلم منهم ثلاثة ؛ خالد وهشام والوليد بن الوليد . قال : فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل : شهودا ؛ أى إذا ذكر ذكروا معه ؛ قاله آبن عباس . وقيل : شهودا ؛ أى قد صاروا مثله فى شهود ما كان يشهده ، والقيام بما كان يباشره . والأول قول السدىّ ؛ أى حاضرين مكة لا يظعنون عنه فى تجارة ولا يغيبون .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيـدًا ﴾ أى بسطت له فى العيش بسطا حتى أقام ببلدته مطمئنا مترفها يرجع إلى رأيه . والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مَهْدُ الصبىّ . وقال آبن عباس : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى وسعت له ما بين اليمن والشام ؛ وقاله مجاهـد . وعن مجاهد أيضا فى « مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أنه المـال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

(١) فى نسخة : لا يُدرى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده فى المال والولد . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : أى ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ؛ فقال الله تعالى ردا عليه وتكذيبا له « كَلَّا » أى لستُ أزيده ، فلم يزل يرى النقصان فى ماله وولده حتى هلك . و « ثُمَّ » فى قوله تعالى : « ثُمَّ يَطْمَعُ » ليست بثم التى للنسق ولكنها تعجيب ؛ وهى كقوله تعالى : «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» وذلك كما تقول : أعطيتك ثم أنت تجفونى كالمتعجب من ذلك . وقيل : يطمع أن أترك ذلك فى عقبه ؛ وذلك أنه كان يقول : إن محمدا مبتور أى أبتر وينقطع ذكره بموته . وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته . وقيل : أى ثم يطمع أن أنصره على كفره . و « كَلَّا » قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة ؛ فيكون متصلا بالكلام الأول . وقيل : « كَلَّا » بمعنى حقّا ويكون ابتداء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى الوليد ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى معاندا للنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به ؛ يقال : عاند فهو عنيد مثل جالس فهو جليس ؛ قاله مجاهد . وعَنَد يعنِد بالكسر أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند . والعاند البعير الذى يجور عن الطريق و يعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكع وركّع ؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثى :

إذا رَكِبْتُ فاجْعَلانِى وَسَطَا[(1)] ﴿ إِنِّى كَبِيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّدَا

وقال أبو صالح : « عَنِيدًا » معناه مباعدا ، قال الشاعر :

أَرَانا عـلى حالٍ تُفَرِّقُ بيننا ﴿ نَوًى غَرْبَةٌ[(2)] إنّ الفِراقَ عَنُود

قتادة : جاحدا . مقاتل : معرضا . ابن عباس : جحودا . وقيل : إنه المجاهر بعدوانه . وعن مجاهد أيضا قال : مجانبا للحق معاندا له معرضا عنه . والمعنى كله متقارب . والعرب تقول : عَنَد الرجل إذا عتا وجاوز قدره . والعُنُود من الإبل الذى لا يخالط الإبل إنما هو فى ناحية . ورجل عَنُود إذا كان يحُلّ وحده لا يخالط الناس . والعنيد من التجبر . وعرق

(1) رواية لسان العرب : ﴿ إذا رحلت فاجعلونى وسطا ﴿

(2) نوى غربة : بعيدة .

عاند إذا لم يرقأ دمه، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة « إبراهيم »[1] . وجمع العنيد عُنُد مثل رغيف ورُغُف .

قوله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أى سأكلفه . وكان ابن عباس يقول : سألجئه ؛ والإرهاق في كلام العرب أن يُحمَل الإنسان على الشيء . ﴿ صَعُودًا ﴾ " الصَّعود جبل من نار يَتَصَعَّدُ فيه سبعين خريفا ثم يهوِى به كذلك فيه أبدا " رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ خرّجه الترمذى وقال فيه حديث غريب . وروى عطية عن أبي سعيد قال : صخرة في جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت ، قال : فيبلغ أعلاها في أربعين سنة يجذب أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع ، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها ، فذلك دأبه أبدا . وقد مضى هذا المعنى في سورة « قُلْ أُوحِيَ »[2] . وفي التفسير : إنه صخرة ملساء يكلف صعودها فإذا صار في أعلاها حُدِر في جهنم ، فيقوم يَهوِى ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم ، يحترق في كل يوم سبعين مرة ثم يعاد خلقا جديدا . وقال ابن عباس : المعنى سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه . ونحوه عن الحسن وقتادة . وقيل : إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت ، ليعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه .

قوله تعالى : إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعنى الوليد فكر في شأن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن . و « قَدَّرَ » أى هيأ الكلام في نفسه ؛ والعرب تقول : قدّرت الشيء إذا هيأته ؛ وذلك أنه لما نزل « حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » إلى قوله « إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٤٩ (٢) راجع ص ١٨ فما بعدها من هذا الجزء .

وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما يقول هذا بشر . فقالت قريش : صَبَا الوليدُ لتصبونّ قريش كلها . وكان يقال للوليد ريحانة قريش ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزينا ؟ فقال له : مالى أراك حزينا . فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زيّنت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قُحافة لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالى ، واللّات والعُزّى مابى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه قط يَخْنُق ؟ . قالوا : لا والله . قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذّاب فهل جربتم عليه كذبا قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه . فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكّر فى نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ » أى فى أمر محمد والقرآن «وَقَدَّرَ» فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . ﴿فَقُتِلَ﴾ أى لعن . وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغلب ، وكل مُذَلَّل مُقتَّل ؛ قال الشاعر[1] :

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لتَقْدَحِى * بسهمَيْكِ فى أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهرى : عُذِّب ؛ وهو من باب الدعاء . ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قال ناسٌ : « كيف » تعجيب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه : كيف فعلت هذا ؟ وذلك كقوله : « ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ » . ﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أى لعن لعنا بعد لعن . وقيل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أى على أى حال قدر . ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأى شىء يرد الحقّ ويدفعه . ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أى قَطَّب بين عينيه فى وجوه المؤمنين ؛ وذلك

(١) هو آمرؤ القيس .

أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول فى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر مرّ على جماعة من المسلمين فدعوه إلى الإسلام فعبس فى وجوههم . وقيل : عبس و بسر على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه . والعَبْس مصدر عَبَس يعبِس عَبْسًا وعُبُوسا إذا قطّب. والعَبَس ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النَّجْم :

كأنّ فى أذْنابهنّ الشُّوَّلِ * من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيَّلِ

﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى كَلَح وجهه وتغير لونه ؛ قاله قتادة والسدىّ ؛ ومنه قول بشر بن أبى خازم :

صَبَحْنا تَمِيمًا غَداةَ الجِفَارِ (1) * بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ باسِرَهْ

وقال آخر (2) :

وقَدْ رَابَنِى مِنْها صُدودٌ رأيْتُهُ * وإعْراضُها عَنْ حاجتِى و بُسُورُها

وقيل : إن ظهور العُبوس فى الوجه بعد المحاورة ، وظهور البُسور فى الوجه قبل المحاورة . وقال قوم : بَسَر وَقَف لا يتقدم ولا يتأخر . قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب فلم يجئ ولم يذهب قد بسر المركب وأَبْسَر أى وقف وقد أبسرنا . والعرب تقول : وجه باسر بيّن البسور إذا تغير وآسود . ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أى ولى وأعرض ذاهبا إلى أهله . ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم عن أن يؤمن . وقيل : أدبر عن الإيمان وآستكبر حين دعى إليه . ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا ﴾ أى ماهذا الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى يأثره عن غيره . والسحر الخديعة وقد تقدم بيانه فى سورة « البقرة » (3) . وقال قوم : السحر إظهار الباطل فى صورة الحق . والأثر مصدر قولك : أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور أى ينقله خلف عن سلف ؛ قال آمرؤ القيس :

(1) الجفار : موضع . وقيل هو ماء لبنى تميم . (2) هو توبة بن الحمير . و زاد بعض النسخ بعد هذا البيت ما يأتى كحاشية : « قوله بشهباء أراد بكتيبة شهباء . ومنه قول عنترة :

وكتيبة لبستها بكتيبة * شهباء باسلة يخاف رداها

و يقال : كتيبة ململمة وملمومة أيضا أى مجتمعة مضموم بعضها الى بعض . وصخرة ملمومة وململمة أى مستديرة صلبة ؛ قاله الجوهرى » . (3) راجع جـ ٢ ص ٤٣ فما بعدها .

ولو عن نثا غيره جاءني * وجرح اللسان كجرح اليد
لقلت من القول ما لا يزا * ل يؤثر عني يد المسند (١)

يريد آخر الدهر . وقال الأعشى :

إن الذي فيه تماريتما (٢) * بين للسامع والآثر

ويروى بين . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي ما هذا إلا كلام المخلوقين يختدع به القلوب كما تختدع بالسحر . قال السدي : يعنون أنه من قول سيار عبد لبني الحضرمي (٣)، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك . وقيل : أراد أنه تلقنه من أهل بابل . وقيل : عن مسيلمة . وقيل : عن عدي الحضرمي الكاهن . وقيل : إنما تلقنه ممن آدعى النبوة قبله فنسج على منوالهم . قال أبو سعيد الضرير : إن هذا إلا سحر يؤثر أي يورث .

قوله تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي سأدخله سقر كي يصلى حرها . وإنما سميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدة وجهه . ولا ينصرف للتعريف والتأنيث . قال ابن عباس : هي الطبق السادس من جهنم . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سأل موسى ربه فقال أي رب أي عبادك أفقر فقال صاحب سقر" ذكره الثعلبي : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ هذه مبالغة في وصفها ، أي وما أعلمك أي شيء هي ، وهي كلمة تعظيم ، ثم فسر حالها فقال : ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أي لا تترك لهم عظما ولا لحما ولا دما إلا أحرقته .

---

(١) يقول : لو أتاني هذا النبأ عن حديث غيره لقلت قولا يشيع في الناس و يؤثر على آخر الدهر . والنثا ما يحدث به من خير وشر . والمسند الدهر .

(٢) الذي في ديوان الأعشى طبع أوربا : تداريتما .

(٣) في بعض النسخ : من قول أبي اليسر سيار .

وكرر اللفظ تأكيدا . وقيل : لا تبقى منهم شيئا، ثم يعادون خلقا جديدا، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبدا . وقال مجاهد : لا تبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا تحرقهم كلما جدّدوا . وقال السدى : لا تبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما. ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أى مغيّرة من لاحه إذا غيّره. وقراءة العامة « لَوَّاحَةٌ » بالرفع نعت لـ«سَقَرُ» فى قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ » . وقرأ عطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر « لَوَّاحَةً » بالنصب على الاختصاص للتهويل. وقال أبو رزين : تلفح وجوههم لفحة تدعها أشدّ سوادا من الليل؛ وقاله مجاهد . والعرب تقول : لاحه البرد والحرّ والسقم والحزن إذا غيّره؛ ومنه قول الشاعر :

تَقولُ ما لاحَكَ يا مُسافِرْ * يابْنَةَ عمّى لاحَنِي الهَواجِرْ (١)

وقال آخر :

وتَعجبُ هِنْدٌ أنْ رأتْنِي شاحِبًا * تقولُ لشيءٍ لوّحتْهُ السّمائمُ (٢)

وقال رؤبة بن العجّاج :

لوّحَ منه بعدَ بُدْنٍ وسَنَقْ * تَلْويحكَ الضّامرَ يُطْوَى للسّبَقْ (٣)

وقيل : إن اللوح شدّة العطش ؛ يقال : لاحه العطش ولوّحه أى غيّره . والمعنى أنها معطّشة للبشر أى لأهلها ؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سقتْنِي على لَوْحٍ من الماء شَرْبَةً * سقاها بها اللهُ الرِّهامَ الغَواديا

يعنى باللوح شدّة العطش، والتاح أى عطش . والرّهام جمع رِهمة بالكسر وهى المطرة الضعيفة، وأرهمت السحابة أتت بالرّهام . وقال ابن عباس : «لَوَّاحَةٌ» أى تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام . الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانا ؛ نظيره : «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»

(١) الهواجر جمع هاجرة وهى شدة الحر عند منتصف النهار .

(٢) السمائم جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٣) لوحه السفر غيره وأضمره والبدن السمن واكتناز اللحم . والسنق الشبع حتى يكون كالتخمة . الضامر : الفرس ، يطوى يجوع لأجل السباق .

وفي البشر وجهان : أحدهما — أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون . الثاني — أنه جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وجمع البشر أبشار وهذا على التفسير الأول ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛ لأنه من لاح الشيء يلوح إذا لمع .

قوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها . ثم قيل : على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ؛ مالك وثمانية عشر ملكا . ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم . وعلى هذا أكثر المفسرين . الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وقال ابن جريج : نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم . فقال : " فكأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرميهم في النار ويرمي فوقهم الجبل " .

قلت : وذكر ابن المبارك قال حدثنا حماد بن سلمة ، عن الأزرق بن قيس ، عن رجل من بنى تميم قال : كنا عند أبى العوام فقرأ هذه الآية « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » فقال ما تسعة عشر ؟ تسعة عشر ألف ملك أو تسعة عشر ملكا ؟ قال قلت : لا بل تسعة عشر ملكا . فقال : وأنى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » قال : صدقت هم تسعة عشر ملكا بيد كل ملك منهم مِرْزَبَّة(١) لها شُعْبتان فيضرب الضربة فيهوى بها فى النار سبعين ألفا . وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة فى جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندرى حتى نسأل نبينا . فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد غُلِب أصحابك اليوم ؛ فقال : "وبم غُلبوا" قال : سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قال : "فماذا قالوا" قال : قالوا لاندرى حتى نسأل نبينا . قال : "أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة علىّ بأعداء الله إنى سائلهم عن تربة الجنة وهى الدَّرْمَك" فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : " هكذا وهكذا " فى مرة عشرة وفى مرة تسعة . قالوا : نعم . قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : " ما تُرْبة الجنة " قال : فسكتوا هنيهة ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخبز من الدَّرْمَك" قال أبو عيسى : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشَّعْبى عن جابر . وذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزنة جهنم : " ما بين مَنكِبَى أحدهم كما بين المشرق والمغرب " . وقال ابن عباس : ما بين مَنكِبَى الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم .

---

(١) المرزبة عصية من حديد والمطرقة الكبيرة التى للحداد .

قلت : والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » . وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها" . وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : لما نزل « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر ، وأنتم الدُّهْم — أي العَدد — والشجعان ، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ! قال السدى : فقال أبو الأشد بن كَلَدة الجُمَحى : لا يهولنكم التسعة عشر ، أنا أدفع بمَنكِبي الأيمن عشرة من الملائكة ، و بمَنكِبي الأيسر التسعة ، ثم تمرون إلى الجنة ، يقولها مستهزئا . في رواية : إن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر وآكفوني أنتم آثنين . وقيل : إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم . وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذّبين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ولا يستروحون إليهم ؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله و بالغضب له فتؤمن هوادتهم ؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأسا وأقواهم بطشا . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أى بلية . وروى عن ابن عباس من غير وجه قال : ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه . وقيل : إلا عذابا ، كما قال تعالى : « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ » أى جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب . وفي « تِسْعَةَ عَشَرَ » سبع قراءات(١) : قراءة العامة « تِسْعَةَ عَشَرَ » . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان « تِسْعَةَ عْشَرَ » بإسكان العين . وعن ابن عباس « تِسْعَةُ عَشَرَ » بضم الهاء ،

(١) ورد في الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قتة « تسعة أعشر » بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء . وتعقب السمين هذه القراءات فقال : « في هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات تشا كلها » .

وعن أنس بن مالك « تِسْعَةُ وَعَشَرْ » وعنه أيضا « تِسْعَةُ وَعْشُر » . وعنه أيضا « تِسْعَةُ أَعْشُر » ذكرها المهدوى وقال : من قرأ « تِسْعَةَ عْشَرَ » أسكن العين لتوالى الحركات . ومن قرأ « تِسْعَةُ وَعَشَرْ » جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشرا على تسعة ، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها . ومن قرأ « تِسْعَةُ عَشَرْ » فكأنه من التداخل ؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب فرفع هاء التأنيث ثم راجع البناء وأسكن . وأما « تِسْعَةُ أَعْشُر » فغير معروف ، وقد أنكرها أبو حاتم . وكذلك « تِسعةُ وَعْشُر » لأنها محمولة على « تِسْعَةُ أَعْشُر » والواو بدل من الهمزة وليس لذلك وجه عند النحويين . الزمخشرى : وقرئ « تِسْعَةَ أَعْشُر » جمع عَشِير مثل يَمِين وأَيْمُن .

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدد خزنة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم . ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام . ويحتمل أنه يريد الكل . ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ بذلك ؛ لأنهم كلما صدّقوا بما فى كتاب الله آمنوا ، ثم ازدادوا إيمانا لتصديقهم بعدد خزنة جهنم . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ﴾ أى ولا يشك ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطوا الكتاب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى المصدّقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أن عدد خزنة جهنم تسعة عشر . ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى فى صدورهم شك ونفاق من منافقى أهل المدينة ، الذين يَنْجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجَم بالمدينة . وقيل : المعنى ؛ أى وليقول المنافقون الذين يَنْجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة . ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يعنى بعدد خزنة جهنم . وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض فى هذه الآية الخلاف و « الْكَافِرُونَ » أى مشركو العرب . وعلى القول الأول أكثر المفسرين . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم

قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخبارا عنهم : «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ» أي ما أراد الله «بِهَذَا» العدد الذي ذكره حديثا أي ماهذا من الحديث ؛ قال الليث : المثل الحديث ؛ ومنه « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أي حديثها والخبر عنها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي يخزى ويعمى ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي﴾ أي ويرشد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «كذلك يضل الله» عن الجنة «من يشاء ويهدى» إليها «من يشاء» . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ومايدرى عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار « إِلَّا هُوَ» أي إلا الله جل ثناؤه . وهذا جواب لأبي جهل حين قال : أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر؟ ! وعن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حُنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى مَلَك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا ، فخشى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطانا ، فقال : "يا جبريل أتعرفه" فقال : هو مَلَك وما كل ملائكة ربك أعرف . وقال الأوزاعيّ قال موسى : « يا ربّ من في السماء قال ملائكتى قال كم عِدّتهم يا ربّ قال اثنى عشر سبطا قال كم عِدّة كل سبط قال عدد التراب » . ذكرهما الثعلبي . وفي الترمذيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أَطَّت السماءُ وحُقّ لها أن تئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضعٌ جبهته لله ساجدا" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن . وقيل : « وَمَا هِيَ » أي وما هذه النار التي هي سقر « إِلَّا ذِكْرَىٰ» أي عظة « لِلْبَشَرِ» أي للخلق . وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة . قاله الزجاج . وقيل : أي ما هذه العدة « إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى : « وَمَا هِيَ » ترجع إلى الجنود ؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ قال الفراء : « كَلَّا » صلة للقسم ، التقدير أى والقمر . وقيل : المعنى ؛ حقًّا والقمر فلا يوقف على هذين التقديرين على « كَلَّا » وأجاز الطبرى الوقف عليها ، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم ؛ أى ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار . ثم أقسم على ذلك جل وعز بالقمر وبما بعده فقال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أى وَلَّى وكذلك «دَبَرَ» . وقرأ نافع وحمزة وحفص « إِذْ أَدْبَرَ » الباقون « إذا » بألف و«دَبَرَ» بغير ألف وهما لغتان بمعنى ؛ يقال : دبر وأدبر ، وكذلك قبل الليل وأقبل . وقد قالوا أمس الدابر والمدبر ، قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَمِىّ :

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ ثُنَاءَ ومَوْحَدًا * وتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبر . وهذا قول الفراء والأخفش . وقال بعض أهل اللغة : دبر الليل إذا مضى وأدبر أخذ فى الإدبار . وقال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ » فسكت حتى إذا دَبَر قال : يا مجاهد ! هذا حين دَبَر الليلُ . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع « وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » بألفين ، وكذلك فى مصحف عبد الله وأُبَىّ بألفين . وقال قطرب من قرأ « دَبَرَ » فيعنى أقبل ، من قول العرب دبر فلان إذا جاء من خلفى . قال أبو عمرو : وهى لغة قريش .

وقال ابن عباس فى رواية عنه : الصواب « أَدْبَرَ » إنما يدبر ظهر البعير . واختار أبو عبيد «إِذَا أَدْبَرَ» قال : لأنها أكثر موافقة للحروف التى تليه ؛ ألا تراه يقول ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ فكيف يكون أحدهما « إذ » والآخر « إذا » وليس فى القرآن قسم تعقبه « إذ » وإنما يتعقبه « إذا » . ومعنى « أَسْفَرَ » أضاء . وقراءة العامة « أَسْفَرَ » بالألف . وقرأ ابن السميقع « سَفَرَ » . وهما لغتان . يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر إذا أضاء . وفى الحديث : "أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر" أى صلّوا صلاة الصبح مُسفِرين ؛ ويقال : طَوِّلوها إلى الإسفار والإسفار الإنارة . وأسفر وجهه حسنا أى أشرق ؛ وسَفَرت المرأةُ كشفت عن وجهها فهى سافر . ويجوز أن يكون [من] سَفَر الظلامَ أى كنسه كما يُسفَر البيت أى يُكنَس ؛ ومنه السَّفِير لما سقط من ورق الشجر وتحاتَّ ؛ يقال : إنما سمى سفيرا لأن الريح تَسفِره أى تكنُسه . والمِسْفَرة المِكْنَسة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ جواب القسم ؛ أى إن هذه النار « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى لإحدى الدواهى . وفى تفسير مقاتل « الْكُبَرِ » اسم من أسماء النار . وروى عن ابن عباس « إِنَّهَا » أى إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى لكبيرة من الكبائر . وقيل : أى إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر . والكُبَر هى العظائم من العقوبات ؛ قال الراجز :

يا بن المُعَلَّى نزلتْ إحدى الكُبَرْ * داهيـةُ الدهْر وصَمَّـاءُ الغِـيَرْ

وواحدة « الكُبَر » كُبرى مثل الصُّغرى والصُّغَر والعُظْمى والعُظَم . وقرأ العامة « لَإِحْدَى » وهو اسم بنى ابتداء للتأنيث وليس مبنيا على المذكر ؛ نحو عقبى وأخرى وألفه ألف قطع لا تذهب فى الوصل . وروى جرير بن حازم عن ابن كثير « إِنَّها لَحْدَى الكُبَر » بحذف الهمزة . ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ يريد النار أى إن هذه النار الموصوفة « نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فهو نصب على الحال من المضمر فى « إنّها » قاله الزجاج . وذُكِّر ؛ لأن معناه معنى العذاب ؛ أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب ؛ كقولهم امرأة طالق وطاهر . وقال الخليل : النذير مصدر كالنكير ولذلك يوصف به المؤنث . وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشىء أدهى منها . وقيل : المراد بالنذير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قم نذيرا للبشر أى مخوفا لهم

ف. « نذيرا » حال من « قُمْ » فى أوّل السورة حين قال : « قُمْ فَأَنْذِرْ » قاله أبو على الفارسى وآبن زيد، وروى عن آبن عبـاس وأنكره الفراء . آبن الأنبارى : وقال بعض المفسرين معناه « يأيها المدثر قم نذيرا للبشر . وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : هو من صفة الله تعالى . وروى أبو معاوية الضرير : حدّثنا إسمعيل بن سميع عن أبى رَزين « نذيرا لِلبشر » قال يقول الله عز وجل : أنا لكم منها نذير فآتقوها . و « نذيرا » على هذا نصب على الحال ؛ أى « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » منذرا بذلك البشر . وقيل : هو حال من «هو» فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » . وقيل : هو فى موضع المصدر كأنه قال : إنذارا للبشر . قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار أى أنذر إنذارا؛ فهو كقوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ » أى إنذارى؛ فعلى هـذا يكون راجعا إلى أوّل السـورة أى « قم فأنذر » أى إنذارا . وقيـل : هو منصوب بإضمار فعـل . وقرأ آبن أبى عَبْلة « نذيرٌ » بالرفع على إضمار هو . وقيل : أى إن القرآن نذير للبشر لمـا تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة بـ « نذيرا » ؛ أى نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره : «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ منكُمْ » أى فى الخير « ولقد عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » عنه . قال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » . وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان والتأخير الكفر . وكان آبن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام أن من تقدّم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزى بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذّب محمدا صلى الله عليه وسـلم عوقب عقابا لا ينقطع . وقال السدىّ : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » إلى النار المتقدّم ذكرها « أَوْ يَتَأَخَّرَ » عنها إلى الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها ، إما خلّصها و إما أوبقها وليست « رهينـة » تأنيث رهين فى قوله تعـالى : « كُلُّ آمْرِئٍ بِمَـا كَسَبَ رَهِينٌ » لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيـل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . و إنمـا هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم؛ كأنه قيل : كل نفس بمـا كسبت رهين؛ ومنه بيت الحماسة :

أَبَعْدَ الذى بِالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ * رَهِينَـةُ رَمْسٍ ذِى تُرَابٍ وجَنْـدَلِ (١)

كأنه قال رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهـم لا يرتهنون بذنوبهم . وآختلف فى تعيينهم ؛ فقال آبن عبـاس : الملائكة . على بن أبى طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم . الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؛ ونحوه عن آبن جريج ؛ قال : كل نفس بعملها محاسـبة « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » وهم أهل الجنة فإنهم لا يحاسبون . وكذا قال مقاتل أيضا : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء فى الجنـة ولا أبالى . وقال الحسن وآبن كَيْسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم . وعن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : هم المسلمون . وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان . وقيل : هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم . وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهل البيت فهـم المرتهنون . وقال الحكم : هم الذين آختارهم الله لخدمتـه فلم يدخلوا فى الرهن ؛ لأنهـم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من آعتمد على الفضل والرحمة دون الكسب والخدمة ، فكل من آعتمد على الكسب فهـو مرهون ، وكل من آعتمد على الفضل فهـو غير مأخوذ به . ﴿ فِى جَنَّـاتٍ ﴾ أى فى بساتين ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يسألون ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين

(١) النعف من الأرض المكان المرتفع فى آعتراض . والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذرى وقد قتل أخوه وعرضت عليه الدية فأبى أن يأخذها وأخذ بثاره .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أى أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ كما تقول : سلكت الخيط فى كذا أى أدخلته فيه . قال الكلبيّ : فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له : يافلان . وفى قراءة عبد الله بن الزبير «يافلانُ ما سَلَكَكَ فِي سَقَرَ» . وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب «يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ» وهى قراءة على التفسير لا أنها قرآن كما زعم من طعن فى القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنبارى . وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » . قال الفراء : فى هـذا ما يقوى أن أصحاب اليمين الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى أهل النار ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ أى المؤمنين الذين يصلّون . ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أى لم نك نتصدق . ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى كنا نخالط أهل الباطل فى باطلهم . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهـو قولهم ـــ لعنهم الله ـــ كاهن مجنون شاعر ساحر . وقال السُّدىّ : أى وكنا نكذّب مع المكذّبين . وقال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معـه . وقيـل معناه : وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين . ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى لم نك نصدّق بيوم القيامة يوم الجزاء والحكم . قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أى جاءنا ونزل بنـا الموت ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للذنبين ؛ وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذّبوا بذنوبهم ثم شُفِـع فيهم فرحمهم الله بتوحيدهـم والشفاعة فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسـلم رابع أربعة ؛ جبريل ثم إبراهـيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ، ويبقى قوم فى جهنم فيقال لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ » إلى قوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » قال عبد الله بن مسعود : فهؤلاء هم الذين يبقون فى جهنم . وقد ذكرنا إسناده فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عما جئتهم به . وفى تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين ؛ أحدهما الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بمـا فيه . و « مُعْرِضِينَ » نصب على الحال من الهاء والميم فى « لَهُمْ » وفى اللام معنى الفعل ؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل . ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أى كأن هؤلاء الكفار فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس : أراد الحمر الوحشية . وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء أى مُنَفَّرة مذعورة ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقون بالكسر أى نافرة . يقـال : نَفَرت واستَنفرت بمعنًى ؛ مثـل عَجِبت واستعجبت وسَخِرت واستسخرت ؛ وأنشد الفراء :

أَمْسِـكْ حِمارَكَ إنّه مُسْتَنْفِرٌ * فى إِثْرِ أَحْمِـرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ (١)

قوله تعـالى : ﴿ فَرَّتْ ﴾ أى نفرت وهربت ﴿ مِنْ قَسْـوَرَةٍ ﴾ أى من رماة يرمونها . وقال بعض أهل اللغة : إن القسور الرامى وجمعه القَسْورة . وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كَيْسان : القَسْورة هم الرماة والصيادون ، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو [ظَبْيان] (٢) عن أبى موسى الأشعرى . وقيل : إنه الأسد . قاله أبو هريرة وابن عباس أيضا . ابن عرفة : من القَسْر بمعنى القَهْر أى إنه يقهر السباع والحمـر الوحشية تهرب من السباع . وروى أبو جمرة عن ابن عباس قال : ما أعلم القسورة الأسد فى لغة أحد من العرب ولكنها عُصَب الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال وأنشد :

---

(١) غرب كسكر اسم موضع وجبل دون الشام فى بلاد بنى كلاب .

(٢) فى الأصول : أبو حيان وهو تحريف والتصحيح من تفسير الثعلبى « والتهذيب » .

يا بنتُ كُـونِي خَـــيْرَةً لِخَــيِّرَهْ * أخوالُهَا الجنّ وأهــلُ القَسْوَرَهْ

وعنه : رِكْز الناس أى حسّهم وأصواتهم . وعنه أيضا : « فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » أى من حبال الصيادين . وعنه أيضا القسورة بلسان العرب الأسد، وبلسان الحبشة الرماة؛ وبلسان فارس شير، وبلسان النَّبط أريا . وقال ٱبن الأعرابى : القسورة أوّل الليل؛ أى فرّت من ظلمة الليل . وقاله عِكرمة أيضا . وقيل : هو أوّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة . وقال زيد بن أسـلم : من رجال أقوياء، وكل شـديد عند العرب فهو قَسْـورة وقَسْـور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هَتفنـا هَتفـةً فى نَدِيِّنـا * أتانا الرجالُ العائدون القَسَـاوِر

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُـمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًـا مُنَشَّرَةً ﴾ أى يعـطى كتبا مفتوحة؛ وذلك أن أبا جهـل وجماعة من قريش قالوا : يا محمـد ! آيتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها أنى قد أرسلتُ إليكم محمدا؛ صلى الله عليه وسلم؛ نظيره : « وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » . وقال ٱبن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الورّاق : أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل . وقال الكلبي : قال المشركون بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح عند رأســه مكتوبا ذنبه وكفارته فآتنا بمثل ذلك . وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيــه من الله عز وجل إلى فلان بن فلان . وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل؛ فجعلت الصحف موضــع الذكر مجازا . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك . وقيل : حقّا . والأوّل أجود؛ لأنه رد لقولهم . ﴿ بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى لا أعطيهم ما يتمنون لأنهـم لا يخافون الآخرة ٱغترارا بالدنيا . وقرأ سعيد بن جبير « صُحْفًا مُنْشَرَةً » بسكون الحاء والنون؛ فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ . إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت . ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب؛ فقيل فيه نشر الله الميت فهى لغة فيه .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى حقًا إن القرآن عظة . ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى آتعظ به . ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أى وما يتعظون ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم . وقراءة العامة « يَذْكُرُونَ » بالياء وآختاره أبو عبيد؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » . وقرأ نافع ويعقوب بالتاء، وآختاره أبو حاتم لأنه أعم وآتفقوا على تخفيفها . ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فى الترمذى وسنن آبن ماجه عن أنس آبن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » قال : " قال الله تبارك وتعالى أنا أهلٌ أن أُتَّقى فمن آتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهلٌ أن أغفر له " لفظ الترمذى وقال فيه : حديث حسن غريب . وفى بعض التفسير : هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضا للذنوب الصغار باجتناب الذنوب الكبار . وقال محمد بن نصر : أنا أهلٌ أن يتقينى عبدى ، فإن لم يفعل كنت أهلا أن أغفر له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم .

سورة القيامة

مكية وهى تسع وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : إن «لا» صلة وجاز وقوعها في أوّل السورة ؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض فهو في حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى ؛ كقوله تعالى : « وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وجوابه في سورة أخرى : « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ؛ قاله ٱبن عباس وٱبن جبير وأبو عبيدة ؛ ومثله قول الشاعر :

تَذَكَّرتُ لَيْلَى فاعترتني صَبَابةٌ * فكاد صميمُ القلب لا يَتَقَطَّعُ

وحكى أبو الليث السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى « لَا أُقْسِمُ » أقسم ، وٱختلفوا في تفسير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة في الكلام للزينة ويجري في كلام العرب زيادة « لا » كما قال في آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » يعني أن تسجد ، وقال بعضهم : « لا » ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهذا قول الفرّاء ؛ قال الفرّاء : وكثير من النحويين يقولون « لا » صلة ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة ؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، فجاء الإقسام بالرّد عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ][(١)] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ«لا» ردٌّ لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحقّ ، كأنك أكذبت قوما أنكروه . وأنشد غير الفرّاء لٱمرئ القيس :

فلا وأبيكِ ٱبنةَ العامريِّ * لا يَدَّعي القومُ أَنِّي أَفِرّْ

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامةُ بٱحتمال * لِتحزنني فلا بِكِ ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم في الرّد . قال الفرّاء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لَأُقْسِمُ» بغير ألف ؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله

(١) الزيادة من تفسير الفراء .

وهى قراءة الحسن وآبن كثير والزهرى وآبن هُرمز . ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء . ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ لاخلاف فى هذا بين القراء وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيما لشأنه [ولم يقسم بالنفس][(1)] . وعلى قراءة آبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية . وقيـل : « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ردّ آخر وآبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبى : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا . ومعنى « بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » أى بنفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلوم نفسـه، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسـه؛ قاله آبن عباس ومجاهـد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامى؟ ما أردتُ بأ كلى؟ ما أردتُ بحديث نفسى ؟ والفاجر لا يحاسب نفسـه . وقال مجاهد : هى التى تلوم على مافات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه . وقيل : إنها ذات اللوم . وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليـه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجىء القسم بها سائغا حسنا . وفى بعض التفسير أنه آدم عليه السلام لم يزل لائما لنفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة . وقيل : اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة — عن آبن عباس أيضا — فهى صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسما ؛ إذ ليس للعاصى خطر يقسم به ،فهى كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هى نفس الكافر يلوم نفسه،ويتحسر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب الله . وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهى تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان آزداد إحسانا، والمسىء يلوم نفسه ألا يكون آرعوى عن إساءته .

قوله تعـالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنعيدها خلقا جديدا بعـد أن صارت رفاتا . قال الزجاج : أقسم بيـوم القيامة و بالنفس اللوّامة ليجمعن العظام للبعث، فهـذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محـذوف أى لتبعثنّ ؛ ودل عليـه قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ » للإحياء والبعث . والإنسان هنا الكافر

(1) الزيادة من تفسير آبن عطية وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : إن «لا» صلة وجاز وقوعها فى أوّل السورة ؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض فهو فى حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء فى سورة ويجيء جوابه فى سورة أخرى؛ كقوله تعالى : « وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وجوابه فى سورة أخرى : « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ؛ قاله ٱبن عباس وٱبن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر :

تَذَكَّرتُ لَيْـلَى فاعترتني صَبَابةٌ * فـكاد صَمِيمُ القلبِ لا يتَقَطَّـعُ

وحكى أبو الليث السمرقندىّ : أجمع المفسرون أن معنى « لَا أُقْسِمُ » أقسم، وٱختلفوا فى تفسـير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة فى الكلام للزينـة ويجرى فى كلام العرب زيادة « لا » كما قال فى آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ » يعنى أن تسجد ، وقال بعضهم : « لا » ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهـذا قول الفرّاء ؛ قال الفـرّاء : وكثير من النحويين يقولون « لا » صـلة ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة ؛ لأن هـذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم [فى كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ](١) وذلك كقولهم لا والله لا أفعل ف«لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحقّ، كأنك أكذبت قوما أنكروه . وأنشد غير الفرّاء لٱمرئ القيس :

فلا وأبيـك ٱبنـةَ العـامِرِيِّـ * ـى لا يَدَّعى القـومُ أنّى أَفِرّْ

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامـةُ بٱحتمال * لِتحـزنَنِى فـلا بِكِ ما أُبالِى

وفائدتها توكيد القسم فى الردّ . قال الفرّاء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لَأُقْسِمُ» بغير ألف؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله

(١) الزيادة من تفسير الفراء .

وهى قراءة الحسن وآبن كثير والزهرى وآبن هُرْمز . ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عزّ وجلّ أن يقسم بما شاء . ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ لا خلاف فى هذا بين القراء وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيما لشأنه [ولم يقسم بالنفس](1) . وعلى قراءة آبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية . وقيــل : « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ردّ آخر وآبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبي : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا . ومعنى « بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » أى بنفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلوم نفســه، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفســه؛ قاله آبن عباس ومجاهــد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامى؟ ما أردتُ بأ كلى؟ ما أردتُ بحديث نفسى ؟ والفاجر لا يحاسب نفســه . وقال مجاهد : هى التى تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِم فعلته، وعلى الخير لِم لا تستكثر منه . وقيل : إنها ذات اللوم . وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليــه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا يجىء القسم بها سائغا حسنا . وفى بعض التفسير أنه آدم عليه السلام لم يزل لائما لنفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة . وقيل : اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة — عن آبن عباس أيضا — فهى صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسما ؛ إذ ليس للعاصى خطر يقسم به ، فهى كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هى نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب الله . وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهى تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان آزداد إحسانا ، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون آرعوى عن إساءته .

قوله تعــالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنعيدها خلقا جديدا بعــد أن صارت رفاتا . قال الزجاج : أقسم بيــوم القيامة و بالنفس اللوّامة ليجمعن العظام للبعث ، فهــذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محــذوف أى لتبعثنّ ؛ ودل عليــه قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ » للإحياء والبعث . والإنسان هنا الكافر

---

(1) الزيادة من تفسير آبن عطية وغيره .

المكذّب للبعث . والآية نزلت فى عدىّ بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : حدّثنى عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يامحمد ولم أومن به ، أو يجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهمّ اكفنى جارَى السُّوء عدى بن ربيعة والأخنس بن شَرِيق" . وقيــل نزلت فى عدوّ الله أبى جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق . ﴿ بَلَى ﴾ وقف حسن ثم تبتدئ ﴿قَادِرِينَ﴾ . قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين فـ«قَادِرِين» حال من الفاعل المضمر فى الفعل المحذوف على ماذكرناه من التقدير . وقيل : المعنى بلى نقدر قادرين . قال الفرّاء : « قَادِرِينَ » نصب على الخروج من « نَجْمَع » أى نقدر ونقوى « قَادِرِينَ » على أكثر من ذلك . وقال أيضا : يصلح نصبه على التكرير أى « بَلَى » فليحسبنا قادرين . وقيل : المضمر كنا أى كنا قادرين فى الابتداء ، وقــد اعترف به المشركون . وقرأ ابن أبى عَبْلة وابن السَّمَيْقع « بَلَى قادِرُونَ » بتأويل نحن قادرون . ﴿ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ البنان عند العرب الأصابع واحدها بنانة؛ قال النابغة :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَـانَهُ * عَنَمٌ يكادُ مِنَ اللَّطَافةِ يُعْقَدُ

وقال عنترة :

وأنَّ الموتَ طَوْعَ يدِى إذا ما * وَصَلْتُ بَنَانَهـا بِالهِنْــدُوَانِى

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . وأيضا فإنها أصغر العظام فخصها بالذكر لذلك . قال القتبىّ والزجاج: وزعموا أن الله لايبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلاَمَيات على صغرها ، ونؤلف بينها حتى تستوى ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر . وقال ابن عباس وعامة المفسرين : المعنى « عَلَى أَنْ نُسَــوِّيَ بَنَانَهُ » أى نجعــل أصابع يديه ورجليــه شيئا واحدا كخفّ البعير أو كحافر الحمــار أو كظلف الخــنزير ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئا ، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء . وكان الحسن

يقول : جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ، وتقبض بهنّ، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك . وقيل : أى نقدر أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم، فكيف فى صورته التى كان عليها ؛ وهو كقوله تعالى : « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : والتأويل الأول أشبه بمساق الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب . وقاله عبد الرحمن بن زيد،ودليله ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يسأل متى يكون ؟ على وجه الإنكار والتكذيب . فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه . ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القتبي وغيره : أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكا إليه نَقَب إبله ودَبَرها، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله، فقال الأعرابيّ :

أَقْسَمَ بِاللهِ أبو حفصٍ عُمَرْ　*　ما مَسَّها مِنْ نَقَبٍ ولا دَبَرْ

* فاغفِـرْ له اللهمَّ إنْ كان فَجَرْ *

يعنى إن كان كذّبنى فيما ذكرت . وعن ابن عباس أيضا : يعجّل المعصية ويسوّف التوبة . وفى بعض الحديث قال : يقول سوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب . وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدىّ وسعيد بن جبير يقول : سوف أتوب، سوف أتوب حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله . وقال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت . وقيل : أى يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة . فالهاء على هذه الأقوال للإنسان . وقيل : الهاء ليوم القيامة . والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحقّ بين يدى يوم القيامة . والفجور أصله الميل عن الحقّ . «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» أى متى يوم القيامة .

قوله تعالى : فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم « بَرَقَ » بفتح الراء معناه لمع بصره من شدّة شخوصه فتراه لا يَطرِف . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت . وقال الحسن : هذا يوم القيامة . وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة « إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ » . والباقون بالكسر « بَرِقَ » ومعناه تحيّر فلم يَطرِف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما . قال ذو الرمّة :

ولو أنّ لُقمانَ الحكيم تَعَرَّضَتْ * لِعينيه مَيٌّ سافِراً كاد يَبْرَقُ

الفرّاء والخليل : « بَرِق » بالكسر فَزِع وبُهِت . والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت : قد بَرِق فهو بَرِقٌ؛ وأنشد الفرّاء :

فنفسَك فانْعَ ولا تَنْعَنِي * وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرَقِ (١)

أى لا تَفزَع من كثرة الكُلُوم التى بك . وقيل : بَرَق يَبرُق بالفتح شقّ عينيه وفتحهما . قاله أبو عبيدة؛ وأنشد قول الكلابيّ :

لما أتانى ابنُ عُمَيرٍ راغباً * أعطيتُه عِيساً صِهاباً فَبَرَقْ (٢)

أى فتح عينيه . وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى .

(١) قائله طرفة .

(٢) فى غير القرطبى : لما أتانى ابن صبيح . والعيس الصهاب هى الإبل التى خالط بياضها حمرة وهى تعد عند العرب من أشرفها .

قوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى ذهب ضوءه . والخسوف فى الدنيا إلى انجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوءه . ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ؛ ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وقرأ ابن أبى إسحق وعيسى والأعرج . « وَخُسِفَ الْقَمَرُ » بضم الخاء وكسر السين يدل عليه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف . ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى جمع بينهما فى ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ، قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما . وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر . وقال الكسائى : هو محمول على المعنى كأنه قال الضوءان . المبرد : التأنيث غير حقيقى . وقال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكوّرين مظلمين مقرّنين كأنهما ثوران عقيران . وقد مضى الحديث بهذا المعنى فى آخر سورة « الأنعام »(1) . وفى قراءة عبد الله « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكون نار الله الكبرى . وقال على وابن عباس : يجعلان فى [نور](2) الحجب . وقد يجمعان فى نار جهنم ؛ لأنهما قد عُبِدا من دون الله ولا تكون النار عذابا لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكافرين وحسرتهم . وفى مسند أبى داود الطيالسى ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار " وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر ، فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم . وقيل : يجمع الشمس والقمر فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى يقول ابن آدم، ويقال أبو جهل؛ أى أين المهرب . قال الشاعر :

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ فما بعدها .		(2) الزيادة من كتب التفسير .

أينَ المفرُّ والكِباشُ تَنتطِحْ * وأىُّ كَبْشٍ حاد عنها يَفْتَضِحْ

المـاوردى : ويحتمل وجهين؛ أحدهما « أَيْنَ المَفَرُّ » من الله آستحياء منـه . الثانى « أَيْنَ المَفَرُّ » من جهنم حذرا منها . ويحتمل هـذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما — أن يكون من الكافر خاصة فى عَرْصة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه . الثانى — أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ماشاهدوا منها . وقراءة العامة «الْمَفَرُّ» بفتح الفاء وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ آبن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتـح الميم ؛ قال الكسائى : هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ ومَصَحّ ومَصِحّ . وعن الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء . المهدوى : من فتح الميم والفاء من «المفر» فهو مصدر بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذى يفر إليه . ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول آمرئ القيس :

* مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا (١) *

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جَيِّده . ﴿كَلَّا﴾ أى لا مفرّ ف«كلا» ردٌّ وهو من قول الله تعالى ، ثم فسر هذا الردّ فقال : ﴿لَا وَزَرَ﴾ أى لا ملجأ من النار . وكان آبن مسعود يقول : لا حِصن . وكان الحسن يقول : لا جبل . وآبن عباس يقول : لاملجأ . وآبن جبير: لامحيص ولا منعة . والمعنى فى ذلك كله واحد . والوَزَر فى اللغـة مايلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشـاعر :

لَعَمْرِىَ ما للفتى مِنْ وَزَرْ * مِنَ الموتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

قال السدىّ : كانوا فى الدنيـا إذا فَزِعوا تحصّنوا فى الجبال ، فقـال الله لهم : لا وَزَر يعصمكم يومئذ منى ؛ قال طَرَفة :

وَلَقَــدْ تَعْــلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَـا * فاضِلُو الرَّأْيِ وفى الرَّوْعِ وَزَرْ

(١) تمـام البيت : * كجلمود صخر حطه السيل من عل *

أي ملجأ للخائف . ويروى : وُقُر . ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أي المنتهى؛ قاله قتادة . ونظيره : «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» . وقال ابن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع . وقيل : أي المستقر في الآخرة حيث يقرّه الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم . وقيل : إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه : «كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» .

قوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾ أي يخبر ابن آدم برا كان أو فاجرا ﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي بما أسلف من عمل سيء أو صالح، أو أخّر من سنّة سيئة أو صالحة يُعمَل بها بعده؛ قاله ابن عباس وابن مسعود . وروى منصور عن مجاهد قال ينبأ بأوّل عمله وآخره . وقاله النخعي . وقال ابن عباس أيضا : أي بما قدّم من المعصية وأخّر من الطاعة . وهو قول قتادة . وقال ابن زيد : «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَّرَ» خلف للورثة . وقال الضحاك : ينبأ بما قدّم من فرض وأخّر من فرض . قال القشيري : وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال . ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأوّل أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه من حديث الزهري؛ حدثني أبو عبد الله الأغرّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن مما يلحق المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورّثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته" وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره من علّم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورّث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته" فقوله : "بعد موته وهو في قبره" نصّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يبشر بذلك في قبره . ودل على هذا أيضا قوله الحق : «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» وقوله تعالى : «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال . والله أعلم .

وفى الصحيح : "من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء" .

قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥)﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك . وقال ابن عباس : «بَصِيرَةٌ» أى شاهد وهو شهود جوارحه عليه : يداه بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما . والبصيرة الشاهد ، وأنشد الفرّاء :

كأنّ على ذى العقلِ عينًا بصيرةً * بمَقْعَدِه أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهْ
يُحاذِرُ حتى يَحسبَ النّاسَ كلَّهمْ * من الخوف لاتَخْفَى عليهم سَرائِرُهْ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى : «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» . وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ؛ فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ؛ قال معناه القتبى وغيره . وناس يقولون هذه الهاء فى قوله : « بَصِيرَةٌ » هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كالهاء فى قولهم : داهية وعلّامة وراوية . وهو قول أبى عبيد . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان مايكون منه من خير أو شر ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» فيمن جعل المعاذير السُّتور ، وهو قول السدّى والضحاك . وقال بعض أهل التفسير : المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ؛ أى شاهد فحذف حرف الجر . ويجوز أن يكون بصيرة نعتا لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ؛ وأنشد الفراء :

* كأنّ على ذِى العقلِ عيناً بصيرةً *

وقال الحسن فى قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » يعنى بصير بعيوب غيره جاهل بعيوب نفسه . ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى ولو أرخى ستوره . والستر بلغة أهل اليمن معذار؛ قاله الضحاك؛ وقال الشاعر :

ولكنها ضَنَّتْ بِمنزِلِ ساعةٍ * علينا وأَطَّتْ فَوْقَها بالمَعَاذِرِ

قال الزجاج : المَعَاذِر السُّتور والواحد مِعذار؛ أى وإن أرخى ستره؛ يريد أن يخفى عمله فنفسه شاهدة عليه . وقيل : أى ولو آعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه؛ فهو وإن آعتذر وجادل عن نفسه فعليه شاهد يكذّب عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسدّى أيضا ومقاتل . قال مقاتل : أى لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك ؛ نظيره قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ » وقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر؛ قال الشاعر :

وإِيّاكَ والأمرَ الذى إنْ توسَّعتْ * مَوَارِدُه ضاقتْ عليكَ المصادرُ

فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ * وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذرُ

وآعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعىّ فقال له : قد عَذرتُك غيرَ مُعتذِر ؛ إن المعاذير يَشُوبها الكذب . وقال آبن عباس : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أى لو تجرّد من ثيابه . حكاه الماوردىّ .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والآعتذار من الذّنب ؛ ومنه قول النابغة :

هَا إنَّ ذِى عِذْرَةٌ إلَّا تَكُنْ نَفَعتْ * فإنّ صاحِبَها مُشَارِكُ النَّكَدِ

والدليل على هذا قوله تعالى فى الكفّار : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وقوله تعالى فى المنافقين : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » . وفى الصحيح أنه يقول : " يا ربِّ آمنتُ بك و بكتابك و برسولك وصلّيتُ وصمتُ وتصدّقتُ ويثنى بخير

ما استطاع " الحديث . وقد تقدم فى « حم السجدة »(١) وغيرها . والمعاذير والمعاذر جمع مَعْذِرة ؛ ويقال : عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْرا وعُذُرا والاسم المَعْذِرة والعُذْرَى ؛ قال الشاعر(٢) :

* إنِّى حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لِمَحْدُودِ *

وكذلك العِذْرَة وهى مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة ؛ قال النابغة :

ها إنّ تاعِذْرَةٌ إلّا تكُنْ نَفَعتْ * فإنّ صاحِبَها قد تاهَ فى البَلَدِ(٣)

وتضمنت هذه الآية خمس مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » : فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه ؛ لأنها شهادة منه عليها ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولا خلاف فيه ؛ لأنه إخبار على وجه تنتفى التهمة عنه ؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه ، وهى المسئلة :

الثانية — وقد قال سبحانه فى كتابه الكريم : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » وهو فى الآثار كثير ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : " اغْدُ يا أُنَيْس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها " . فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا فى الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبى قد أقرّ أن فلانا ابنه أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ،

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٠ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبى وأما الحديث فقد أورده فى سورة الأنعام جـ ٦ ص ٤٠٢

(٢) قائله الجموح الظفرى . وقيل : هو راشد بن عبد ربه . وعذرى مقصور . وفى اللسان : صواب إنشاده ؛ لولا حددت . على إرادة أن ، تقديره : لولا أن حددت لأن لولا التى معناها امتناع الشىء لوجود غيره هى مخصوصة بالأسماء وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن . (٣) تقدم البيت برواية : ها إن ذى — مشارك الكمد . وهما روايتان .

ولا يجوز إقرار الذى أقرّ إلا على نفسه فى حصته من مال أبيه، يعطى الذى شهد له قدر الذى يصيبه من المـال الذى فى يده . قال مالك: وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ٱبنين ويترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقرّ أن فلانا ٱبنه، فيكون على الذى شهد للذى ٱستلحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحق لو لحق، وإن أقرّ له الآخر أخذ المـائة الأخرى فٱستكمل حقه وثبت نسبه . وهو أيضا بمنزلة المرأة تقرّ بالدَّين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الورثة ، فعليها أن تدفع إلى الذى أقرت له قدر الذى يصيبها من ذلك الدَّين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت ٱمرأة فورثت الثمن دفعت إلى الغريم ثمن دينـه، وإن كانت ٱبنـة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقرّ له من النساء .

الثالثــة ــ لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف لكن بشرط ألا يكون محجورا عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط ومنه جائز، وبيـانه فى مسائل الفقه . وللعبد حالتان فى الإقرار إحداهما فى ٱبتـدائه ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم . والثانية فى ٱنتهائه وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ : الصورة الأولى ــ أن يقول له عندى شيء؛ قال الشافعي : لو فسّره بتمرة أو كسرة قُبِل منه . والذى تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَـدر ، فإذا فسّره به قُبِل منه وحلف عليـه . الصورة الثانية ــ أن يفسّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً فى الشريعة لم يُقبَل بٱتفاق ولو ساعده عليه المقَرّ له . الصورة الثالثة ــ أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب ، فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء ؛ لأن الحكم قـد نفذ بإبطاله . وقال بعض أصحاب الشافعي : يلزم الخمـر والخنزير وهو قول باطل . وقال أبو حنيفة : إذا قال له علىّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بمَكِيل أو موزون؛ لأنه لا يثبت فى الذمة بنفسه إلا هما . وهذا ضعيف فإن غيرهما يثبت فى الذمة إذا وجب ذلك إجماعا . الصورة الرابعة ــ إذا قال له : عندى مال قُبِل تفسيره بمـا لا يكون مالا فى العادة كالدرهم والدرهمين ما لم يجئ من قرينـة

الحال ما يحكم عليه بأكثر منه . الصورة الخامسة — أن يقول له : عندى مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعى : يقبل فى الحبة . وقال أبو حنيفة : لا يقبل إلا فى نصاب الزكاة . وقال علماؤنا فى ذلك أقوالا مختلفة ؛ منها نصاب السّرقة والزّكاة والدّية وأقله عندى نصاب السّرقة ؛ لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا فى مال عظيم . وبه قال أكثر الحنفية . ومن يعجب فيتعجب لقول الليث بن سعد : إنه لا يقبل فى أقل من اثنين وسبعين درهما . فقيل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال ؛ لأن الله تعالى قال : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين . وهذا لا يصح ؛ لأنه أخرج حُنَيْنًا منها ، وكان حقّه أن يقول يُقْبَل فى أحد وسبعين ، وقد قال الله تعالى : « اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » وقال : « لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » وقال : « وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » . الصورة السادسة — إذا قال له عندى عشرة أو مائة أو ألف فإنه يفسرها بما شاء ويقبل منه ، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهما فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبَل منه . وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرا ؛ كقوله : مائة وخمسون درهما ؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمائة . وقال ابن خيران الأصطخرى من أصحاب الشافعى : الدرهم لا يكون تفسيرا فى المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المائة بما شاء .

المسئلة الرابعة — قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يقبل منه . وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ فى الحدود التى هى خالص حقّ الله ؛ فقال أكثرهم منهم الشافعى وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار . وقال به مالك فى أحد قوليه ، وقال فى القول الآخر : لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجها صحيحا . والصحيح جواز الرجوع مطلقا ؛ لما روى الأئمة منهم البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم رد المقرّ بالزنى مرارا أربعا كل مرّة يعرض عنه ، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : "أبك جنون" قال : لا . قال : "أحْصِنتَ" قال : نعم . وفى حديث البخارى : " لعلّك قبلت أو غمزت أو نظرتَ " . وفى النسائى وأبى داود : حتى قال له فى الخامسة

" أجامعتها "[١] قال : نعم . قال : " حتى غاب ذلك منك في ذلك منها " قال : نعم . قال : " كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر " . قال : نعم . ثم قال : " هل تدري ما الزنى " قال : نعم ؛ أتيت منها حراما مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالا . قال : " فما تريد مني " قال : أريد أن تطهرني . قال : فأمر به فرجم . قال الترمذي وأبو داود : فلما وجد مس الحجارة فر يشتد[٢] فضربه رجل بلحي جمل وضربه الناس حتى مات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هلا تركتموه " وقال : أبو داود والنسائي ؛ ليتثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما لترك حد فلا . وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله . وفي قوله عليه السلام : " لعلك قبلت أو غمزت " إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجها .

الخامسة — وهذا في الحر المالك لأمر نفسه ، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يقر على بدنه ، أو على ما في يده وذمته ، فإن أقر على بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه . وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه ؛ لأن بدنه مستغرق لحق السيد ، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه ؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : " من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإن من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد " المعنى أن محل العقوبة أصل الخلقة وهي [الدمية][٣] في الآدمية ولا حق للسيد فيها ، وإنما حقه في الوصف والتبع وهي المالية الطارئة عليه ؛ ألا ترى أنه لو أقر بمال لم يقبل حتى قال أبو حنيفة : إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقر له . وقال علماؤنا : السلعة للسيد ويتبع العبد بقيمتها إذا عتق ؛ لأن مال العبد للسيد إجماعا ؛ فلا يقبل قوله فيه ولا إقراره عليه ، لا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له . ولا يصح أن يملك ولا يملك ، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملكه ، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين . والله أعلم .

---

(١) اللفظ في رواية لأبي داود .		(٢) يشتد : يعدو .

(٣) التصحيح من ابن العربي وفي الأصول «الذمة» .

قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فى الترمذى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال : فكان يحرك به شفتيه . وحرك سفيان شفتيه . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن آبن جبير عن آبن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدّة ، كان يحرك شفتيه ، فقال لى آبن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان آبن عباس يحركهما فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه فى صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ قال فآستمع له وأنصت . ثم إن علينا أن تقرأه ؛ قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام آستمع ، و إذا آنطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ خرّجه البخارى أيضا . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (١) وقد تقدّم . وقال عامر الشّعْبى : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له ، وحلاوته فى لسانه ، فنهى عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحى حرّك لسانه مع الوحى مخافة أن ينساه فنزلت « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » ونزل « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » ونزل « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » قاله آبن عباس . « وَقُرْآنَهُ » أى وقراءته عليك . والقراءة والقرآن فى قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »

(١) راجع ج ١١ ص ٢٥٠

أى فآتبع شرائعه وأحكامه . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام؛ قاله قتادة . وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقيل : أى إن علينا أن نبيّنه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال آبن عباس : أى إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه . وقيل : أى « كَلَّا » لا يُصلُّون ولا يزكون يريد كفّار مكة . ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ﴾ أى بل تحبون يا كفّار أهل مكة ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ أى تدعون ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ والعمل لها . وفى بعض التفسير قال : الآخرة الجنة . وقرأ أهل المدينة والكوفيون « بَلْ تُحِبُّونَ » « وَتَذَرُونَ » بالتاء فيهما على الخطاب وآختاره أبو عبيد؛ قال : ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر وهو آختيار أبى حاتم؛ فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: «يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ» وهو بمعنى الناس . ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ فى المقصود؛ نظيره : « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ الأوّل من النضرة التى هى الحسن والنّعمة . والثانى من النظر أى وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال : نَضَرهم الله يَنْضُرهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغِنى؛ ومنه الحديث "نَضَر(١) الله آمرءًا سمع مقالتى فوعاها" . « إِلَىٰ رَبِّهَا » إلى خالقها ومالكها « نَاظِرَةٌ » أى تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء . وفى الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى فى « يونس » عند قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ(٢) » . وكان آبن عمر يقول : أكرم أهل الجنة

---

(١) نضره ونضره بالتشديد وأنضره أى نعمه، يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهى فى الأصل حسن الوجه والبريق . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠

على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية، ثم تلا هذه الآية «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» . وروى يزيد النحوى عن عكرمة قال : تنظر إلى ربها نظرا . وكان الحسن يقول : نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم .

وقيل : إن النظر هنا آنتظار مالهم عند الله من الثواب . وروى عن آبن عمر ومجاهد . وقال عِكرمة : تنتظر أمر ربّها . حكاه الماوردىّ عن آبن عمر وعكرمة أيضا . وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده، وآحتجوا بقوله تعالى: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» وهذا القول ضعيف جدا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفى الترمذى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأ كرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» قال هذا حديث غريب . وقد روى عن آبن عمر ولم يرفعه . وفى صحيح مسلم عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربّهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه فى جَنّة عدن" . وروى جرير بن عبد الله قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : "إنكم سترون ربكم عِيانا كما ترون هذا القمر لا تُضَامُّون فى رؤيته فإن آستطعتم ألّا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فآفعلوا" ثم قرأ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» متفق عليه . وخرجه أيضا أبو داود والترمذىّ وقال: حديث حسن صحيح. وخَرّج أبو داود عن أبى رَزين العُقَيلىّ قال : قلت يا رسول الله أكلّنا يرى ربه ؟ قال آبن معاذ : مُخْلِيًا به يوم القيامة ؟ قال: "نعم يا أبا رَزين" قال: وما آية ذلك فى خَلْقه ؟ قال "يا أبا رَزين أليس كلّكم يرى القمر" قال آبن معاذ : ليلة البدر مُخْلِيًا به . قلنا : بلى . قال : "فالله أعظم" [قال آبن معاذ قال](1) :

(١) الزيادة من مسند أبى داود .

" فإنما هو خلق من خلق الله — يعني القمر — فالله أجل وأعظم " . وفى كتاب النّسائى عن صهيب قال : " فيكشف الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم " وفى التفسير لأبى إسحق الثعلبى عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سُجّدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عِبادة " قال الثعلبى : وقول مجاهد أنها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شىء من خلقه فتأويل مدخول ؛ لأن العرب إذ أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته ؛ كما قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » و « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا نظرت فيه ، فأما إذا كان النظر مقرونا بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان . وقال الأزهرى : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، كذلك تقوله العرب ؛ لأنهم يقولون نظرت إليه إذا أرادوا نظر العين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ؛ قال : —

فإنّكما إنْ تَنْظُرانِىَ ساعةً * مِن الدَّهْرِ تَنْفَعْنِى لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظرانى ولم يقل تنظران إلىّ ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت إليه ؛ قال : —

نَظرتُ إليها والنُّجومُ كأنّها * مَصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفّالِ (١)

وقال آخر : —

نَظرتُ إليها بالمُحَصَّب مِنْ مِنًى * ولِى نَظَرٌ (٢) لولا التّحرُّجُ عارِمُ

وقال آخر :

إنّى إليكَ لِما وَعَدتَ لَناظرٌ * نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنىّ المُوسِرِ

(١) تشب : توقد . والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر . والبيت من قصيدة لامرئ القيس .

(٢) فى نسخ الأصل نظارة ، والصواب ما ذكرنا كما فى ديوان قائله وهو عمر بن ربيعة .

أى إنى أنظر إليك بذل ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرق لقلب المسئول ؛ فأمّا ما آستدلوا به من قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » فإنما ذلك فى الدنيا . وقد مضى القول فيه فى موضعه مستوفى(١) . وقال عطية العوفى : ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، ونظره يحيط بهم ؛ يدل عليه « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » قال القشيرى أبو نصر : وقيل : «إلى» واحد الآلاء أى نعمه منتظرة . وهذا أيضا باطل ؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء ، ثم الآلاء نعمه الدفع(٢) ، وهم فى الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، والمنتظر للشىء متنغّص العيش فلا يوصف أهل الجنة بذلك . وقيل : أضاف النظر إلى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » والماء يجرى فى النهر لا النهر . ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين ؛ قال الله تعالى : «فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً » أى على عينيه . ثم لا يبعد قلب العادة غدا حتى يخلق الرؤية والنظر فى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ » فقيل : يارسول الله ! كيف يمشون فى النار على وجوههم ؟ قال : "الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم" .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أى وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة . وفى الصحاح : وبَسَر الفحلُ الناقةَ وآبتسرها إذا ضربها من غير ضَبَعَة ، وبَسَر الرجلُ وجهَه بُسُورا أى كَلَح يقال : عَبَس وبَسَر . وقال السدى : «بَاسِرَةٌ» أى متغيرة والمعنى واحد . ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أى توقن وتعلم ، والفاقرة الداهية والأمر العظيم ؛ يقال : فقرته الفاقرة أى كسرت فَقَار ظهره . قال معناه مجاهد وغيره . وقال قتادة : الفاقرة الشر . السدىّ : الهلاك . آبن عباس وآبن زيد : دخول النار . والمعنى متقارب . وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم ؛ قاله الأصمعى . يقال : فَقَرتُ أنفَ البعير إذا حززته بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزّ الجَرِير(٣) وعليه وَتَر مَلوىّ لتذلّله بذلك وتروّضه ؛ ومنه قولهم : قد عُمِل به الفاقرة . وقال النابغة :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ . (٢) هكذا فى كل الأصول . (٣) الجرير حبل من أدم يخطم به البعير .

أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي * وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رَأْسِيَ فَاقِرَهْ

أى كاسرة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ « كَلَّا » رَدْع وزَجْر أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ؛ ثم آستأنف فقال : « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أو الروح التراقى ؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب به ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » وقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » وقد تقدّم.(١) وقيل : « كَلَّا » معناه حقًّا أى حقًّا إن المساق إلى الله « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى إذا آرتقت النفس إلى التراقى . وكان آبن عباس يقول : إذا بلغت نفس الكافر التراقى . والتراقى جمع تَرْقُوة وهى العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحْر، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر ، وهو موضع الحَشْرجة ؛ قال دُرَيد بن الصمة(٢) :

وَرُبَّ عَظِيمَـةٍ دافَعْتَ عَنْهُمْ * وقَـدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقى ، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ آختلف فيـه فقيل : هو من الرقية ؛ عن آبن عباس وعكرمة وغيرهما . روى سِمَاك عن عِكرمة قال : مَن راقٍ يَرْقِى أى يَشْـفِى . وروى ميمون بن مِهران عن آبن عباس : أى هل من طبيب يَشْفيه ؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة ؛ وقال الشاعر :

هَلْ لِلفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ * أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاقِ

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٩٥ وجـ ١٧ ص ٢٣٠ فما بعدها .

(٢) كذا فى الأصل والبيت لأبنته عمرة من قصيدة لها ترثى بها أباها كما فى شعراء النصرانية .

وكان هـذا على وجه الاستبعاد واليأس ؛ أى من يقدر أن يَرْقِى من الموت . وعن ابن عباس أيضا وأبى الجوزاء أنه من رَقِىَ يَرْقَى إذا صعِد ، والمعنى : من يَرقَى بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن ملك الموت يقول مَن راقٍ؟ أى من يَرْقَى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، فيقول ملك الموت : يافلان اصعد بها . وأظهر عاصم وقوم النون فى قوله تعالى : « مَنْ رَاقٍ » واللام فى قوله : « بَلْ رَانَ » لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة، وبَرَّان فى تثنية البَرّ. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف فى « مَنْ رَاق » وفتحة النون فى « بَلْ رَانَ» تكفى فى زوالِ اللبس . وأمثل مما ذُكِر: قصد الوقف على « مَنْ »و« بَلْ » فأظهرهما ؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ ﴾ أى أيقن الإنسان ﴿ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أى فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عاين الملائكة . وقال الشاعر :

فـــرَاقٌ ليس يُشبـــهُهُ فِـــرَاق * قد انقطـــع الرجاءُ عن التَّـلَاق

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أى فاتصلت الشدّة بالشدّة؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . وقال الشعبى وغيره : المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب. وقال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى . وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضا : هما ساقا الإنسان إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد ابن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الحسن أيضا : ماتت رجلاه ، ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوّالا . قال النحاس : القول الأوّل أحسنها . وروى علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس : « وَالْتَفَّتِ السَّـاقُ بِالسَّاقِ » قال آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة ، فتلتقى الشـدّة بالشدّة إلا من رحمه الله ؛ أى شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع ؛ والدليل على هـذا قوله تعـالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِـذٍ الْمَسَاقُ » وقال . مجاهـد : بلاء ببلاء . يقول : تتابعت عليه الشدائد . وقال الضحاك وابن زيد : اجتمع عليه أمران شديدان الناس يُجَهِّزون جسده والملائكة يُجَهِّزون رُوحه ،والعرب لاتذكر الساق إلا فى المحن

والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق . قال الشاعر :

* وقامتِ الحربُ بنا على ساق *(١)

وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « نٓ وَالقَلَمِ »(٢) . وقال قوم : الكافر تُعَذَّب رُوحه عند خروج نفسه فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده . ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى خالقك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الْمَسَاقُ ﴾ أى المرجع . وفى بعض التفاسير قال : يسوقه مَلَكه الذى كان يحفظ عليه السيئات . والمَسَاق المصدر من ساق يسوق ، كالمَقَال من قال يقول .

قوله تعالى : فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ أى لم يصدّق أبو جهل ولم يُصلِّ . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان فى أوّل السورة وهو ٱسم جنس . والأوّل قول ٱبن عباس . أى لم يصدّق بالرسالة « وَلَا صَلَّى » ودعا لربه وصلى على رسوله . وقال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلى لله . وقيل : ولا صدّق بمال له ذخرا له عند الله ، ولا صلّى الصلوات التى أمره الله بها . وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لا » بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبد الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا مُحْسن حتى يقال ولا مُجْمِل ، وقوله تعالى : « فَلَا ٱقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا ٱقتحم ؛ أى فهلا ٱقتحم فحذف ألف الٱستفهام . وقال الأخفش : « فَلَا صَدَّقَ » أى لم يصدّق ؛ كقوله : « فَلَا ٱقْتَحَمَ » أى لم يقتحم ولم يشترط أن يعقبه

---

(١) صدر البيت : * صبرا أمام إنه شرباق *

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٨ وما بعدها .

بشيء آخر، والعرب تقول : لاذهب أى لم يذهب ، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل؛ ومنه قول زهير :

* فَلَا هو أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ (١) *

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أى كذّب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أى يتبختر افتخارا بذلك؛ قاله مجاهد وغيره . مجاهد : المراد به أبو جهل . وقيل : « يَتَمَطَّى » من المَطَا وهو الظَّهر والمعنى يَلْوِى مَطَاه . وقيل : أصله يتمطط وهو التمدّد من التكسل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الداعى إلى الحق؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف والتمطى يدل على قلة الاكتراث وهو التمدّد ، كأنه يمدّ ظَهْره ويَلْويه من التبختر . والمَطِيطة الماء الخاثر فى أسفل الحوض؛ لأنه يتمطط أى يتمدّد ؛ وفى الخبر " إذا مشت أمّتى المُطَيْطاء (٢) وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم " والمُطَيْطاء التبختر ومدّ اليدين فى المشى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أى فهو وعيد أربعة لأربعـة ؛ كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربّه فقال : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » أى لاصدّق رسول الله ، ولا وقف بين يدىّ فصلّى، ولكن كذّب رسولى وتولّى عن التصلية بين يدىّ . فترك التصديق خَصْلة ، والتكذيب خَصْلة ، وترك الصلاة خَصْلة ، والتولى عن الله تعالى خَصْلة ؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعـة . والله أعلم . لايقال : فإن قوله « ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » خَصْلة خامسة ؛ فإنا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّى فأخبر عنها . وذلك بيِّن فى قول قتادة على مانذكره . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم (٣)، فاستقبله أبوجهل على باب المسجد مما يلى باب بنى مخزوم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) صدر البيت : * وكان طوى كشحا على مستكنة *

(٢) المطيطاء يمدّ و يقصر قال ابن الأثير : وهى من المصغرات التى لم يستعمل لها مكبر .

(٣) فى نسخة ذات ليلة .

بيـده ، فهزّه مرة أو مرتين ثم قال له : "أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى" فقال له أبو جهل : أتهددنى؟ فوالله إنى لَأَعَزُّ أهل الوادى وأكرمه . ونزل على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كما قال لأبى جهل . وهى كلمة وعيد . قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهَلْ للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقال : "أَوْلى لكَ فأَوْلى ثم أَوْلى لكَ فأوْلى" فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لى شيئا ، إنى لأعزُّ مَنْ بين جبليها . فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعْبَدُ اللهُ بعد هذا اليوم أبدا . فضرب الله عنقه وقتله شر قِتْلة . وقيل : معناه الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بنفسىَ كُلَّ الهُمُومِ * فأَوْلَى لنفسىَ أَوْلَى لهَـا
سَأَحْمِـلُ نفسِى عـلى آلةٍ (١) * فإمَّا عليهـا وإمَّا لَهَـا

الآلة الحالة والآلة السرير أيضا الذى يحمـل عليه الميت ؛ وعلى هـذا التأويل قيـل : هو من المقـلوب ؛ كأنه قيـل : أويل ، ثم أخر الحرف المعتـل ، والمعـنى الويل لك حيـا والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النـار ؛ وهـذا التكرير كما قال (٢) :

* لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي *

أى لك الويل ثم الويل ثم الويل ، وضُعِّف هذا القول ، وقيل : معناه الذم لك أولى من تركه إلا أنه كثير فى الكلام فحذف . وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب . وقال أبو العباس أحمـد بن يحيى : قال الأصمعى أَوْلَى فى كلام العرب معناه مُقارَبة الهلاك ، كأنه يقول : قد وَلِيتَ الهلاك ، قـد دَانَيتَ الهلاكَ ؛ وأصله من الوَلْى وهـو القُرْب ؛ قال الله

(١) فى نسخ من الأصل على ألة بفتح فشد وهى الحربة وصوابه آلة أى حالة .
(٢) هو آمرؤ القيس ، والبيت بتمامه :
ويوم دخلت الخـدر خدر عنيزة * فقـالت لك الويلات إنك مرجلى

تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » أى يَقرُبون منكم ؛ وأنشد الأصمعى :

* وأَوْلَى أن يكون له الـوَلَاءُ *

أى قارب أن يكون له ؛ وأنشد أيضا :

* أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا *

أى قد دنا صاحبها الكمد. وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعى ويقول : ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعى. النحاس : العرب تقول أوْلى لكَ كدتَ تَهلِك ثم أَفْلتّ ، وكأنّ تقديره : أولى لك وأولى بك الهلكة. المهدوى : قال : ولا تكون أَوْلى أَفْعَل منكَ ، وتكون خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى : أَوْلَاةُ الآنَ إذا أَوْعدوا. فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك. و «لَكَ» خبر عن « أَوْلَى ». ولم ينصرف « أَوْلَى » لأنه صار علما للوعيد فصار كرجل آسمه أحمد. وقيل : التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السّيء الأوّل ، ثم على الثانى والثالث والرابع كما تقدّم.

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يظن آبن آدم ﴿ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أى أن يُخلّى مُهمَلا فلا يؤمَر ولا يُنهى ؛ قاله آبن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدًى تَرْعى بلا راعٍ. وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يُبعَث. وقال الشاعر :

فأُقْسِمُ بالله جهـدَ اليمين * ما تَرَكَ اللهُ شـيئًا سُـدَى

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أى من قطرة ماء تُمنَى فى الرَّحِم أى تُراق فيه ؛ ولذلك سميت مِنًى لإراقة الدماء . وقد تقدّم[(١)] . والنطفة الماء القليل ؛ يقال : نطف الماء إذا قطر . أى ألم يك ماء قليلا فى صُلْب الرجل وتَرَائب المرأة . وقرأ حفص « مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى » بالياء وهى قراءة ابن محيصن ومجاهد و يعقوب وعَيَّاش عن أبى عمرو واختاره أبو عبيد لأجل المنىّ . الباقون بالتاء ؛ لأجل النطفة واختاره أبو حاتم . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أى دما بعد النطفة ، أى قد رتَّبه تعالى بهذا كله على خِسَّة قدره . ثم قال : ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أى فقدّر ﴿ فَسَوَّى ﴾ أى فسوّاه تسوية وعَدَّله تعديلا بجعل الروح فيه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أى من الإنسان . وقيل : من المنىّ . ﴿ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى الرجل والمرأة . وقد احتج بهذا من رأى إسقاط الخنثى . وقد مضى فى سورة « الشورى »[(٢)] أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب . وقد مضى فى أوّل سورة « النساء »[(٣)] أيضا القول فيه ، وذكرنا فى آية المواريث حكمه فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أى أليس الذى قدر على خلق هذه النَّسَمة من قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أى على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : "سبحانك اللهم وبَلَى" وقال ابن عباس : من قرأ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » إماما كان أو غيره فليقل : « سبحان ربى الأعلى » ومن قرأ « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل : « سبحانك اللّهمّ بَلَى » ذكره الثعلبى من حديث أبى إسحق السَّبِيعىّ عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس . ختمت السورة والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ وص ٢١٦

(٢) راجع جـ ١٦ ص آية ٥٢

(٣) راجع جـ ٥ ص ٢

ســورة الانســان

وهى إحدى وثلاثون آية

مكية فى قول ابن عباس ومقاتل والكلبى . وقال الجمهور : مدنية . وقيل : فيها مكىّ ، من قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » إلى آخر السورة وما تقدّمه مدنىّ .

وذكر ابن وهب قال : وحدّثنا ابن زيد قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأ « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : لا تُثْقل على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : "دَعْه يا بن الخطاب" قال : فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده ، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زَفَر زَفْرة فخرجت نَفْسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَخْرَجَ نفسَ صاحبكم — أو أخيكم — الشَّوقُ إلى الجنة" وروى عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ وسيأتى . وقال القشيرى : إن هذه السورة نزلت فى علىّ بن طالب رضى الله عنه . والمقصود من السورة عام . وهكذا القول فى كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ « هَلْ » بمعنى قد ، قاله الكسائى والفراء وأبو عبيدة . وقد حكى عن سيبويه « هل » بمعنى قد . قال الفراء : هل تكون جَحْدا وتكون خبرا فهذا من الخبر؛ لأنك تقول : هل أعطيتك؟ تُقرِّره

بأنك أعطيته، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هى بمنزلة الاستفهام، والمعنى أتى . والإنسان هنا آدم عليه السلام، قاله قتادة والثورى وعكرمة والسُّدىّ . وروى عن ابن عباس «حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : أربعون سنة مرت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف . وعن ابن عباس أيضا فى رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من حَمَإٍ مسنون أربعين سنة ، ثم من صَلْصَال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ، ثم نفخ فيه الرُّوح . وقيل : الحين المذكور هاهنا لا يُعرَف مقداره . عن ابن عباس أيضا . حكاه الماوردىّ . «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا» قال الضحاك عن ابن عباس : لا فى السماء ولا فى الأرض . وقيل : أى كان جسدا مصوّرا ترابا وطينا لا يُذكَر ولا يُعرَف ولا يُدرَى ما اسمه ولا ما يراد به، ثم نُفِخ فيه الرُّوح فصار مذكورا ؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سلاّم : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس هذا الذِّكر بمعنى الإخبار فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة . ثم لما عَرَّف اللهُ الملائكةَ أنه جعل آدم خليفة، وحمّله الأمانة التى عجز عنها السموات والأرض والجبال ، ظهر فضله على الكل فصار مذكورا . قال القشيرى : وعلى الجملة ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا» قال : كان شيئا ولم يكن مذكورا . وقال قوم : النفى يرجع إلى الشىء ؛ أى قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر فى الخليقة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشىء حتى يأتى عليه حين . والمعنى قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة

كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئا مذكورا؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوانا . وقد قيل : « الإنسان » فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ» عنى به الجنس من ذرّية آدم، وأن الحين تسعة أشهر مدّة حمل الإنسان فى بطن أمه « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » إذ كان علقة ومضغة؛ لأنه فى هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلَى . أى ليت المدّة التى أتت على آدم لم تكن شيئا مذكورا تَمَّت على ذلك فلا يلد ولا يُبْتلى أولادُه . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقرأ «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » فقال ليتها تَمَّتْ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أى ٱبن آدم من غير خلاف ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى من ماء يقطر وهو المنيّ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رَوَاحة يعاتب نفسه :

مَالِى أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّـهْ * هل أنتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ (١)

وجمعها نُطَف ونِطَاف . ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط واحدها مِشْج ومَشِيج مثل خِدْن وخَدِين؛ قال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجِ * لَمْ يُكْسَ جِلْدًا فى دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال : مَشَجتُ هذا بهذا أى خلطته فهو مَمْشوج ومَشِيج مثل مَخْلوط وخَلِيط . وقال المبرّد : واحد الأَمْشاج مَشْج يقال مَشَج يَمْشِج إذا ٱختلط وهو هنا ٱختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمّاخ :

طَوَتْ أَحْشاءَ مُرْتِجَةٍ لِوَقْتٍ * على مَشَـجٍ سُـلَالَتُهُ مَهِينُ

وقال الفراء : أمشاج أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعَلَقة ، ويقال للشيء من هذا إذا خُلط مَشِيج كقولك خَلِيط، ومَمْشوج كقولك مَخْلوط . وروى عن ٱبن عباس رضى الله عنه

---

(١) الشنة : القربة .

قال : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ؛ قال الهُذَلىّ (١) :

كَأَنَّ الرِّيشَ والْفُوقَيْنِ مِنْهُ * خِلَافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن آبن عباس أيضا (٢) قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوّة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا مرفوعا ؛ ذكره البزار . وروى عن آبن مسعود : أمشاجها عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال آبن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هي أطوار الخلق ؛ طور علقة وطور نطفة وطور عظاما ثم يكسو العظام لحما ؛ كما قال في سورة «المؤمنين» «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» الاية . وقال آبن السِّكِّيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة . وقال أهل المعاني : الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة ؛ كما يقال : بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ وثوبٌ أخلاقٌ . وروى عن أبي أيوب الأنصاريّ : قال جاء حبر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة ؛ فقال : " ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلَا ماءُ المرأة آنثَتْ وإذا عَلَا ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ " فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وقد مضى هذا القول مستوفى في سورة « البقرة » .

﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره . وقيل : نقدر فيه الآبتلاء وهو الآختبار . وفيما يختبر به وجهان ؛ أحدهما —

---

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلي : سيط به أي خرج فذذ من الريش مختلط من الدم والماء .

(٢) وفي حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ما يأتي :

والمعنى : «من نطفة قد آمتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام ، والخواص تجتمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له » .

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي . الثاني — نختبر شكره في السّراء وصبره في الضّرّاء؛ قاله الحسن . وقيل : «نَبْتَلِيهِ» نُكَلِّفه . وفيه أيضا وجهان؛ أحدهما — بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل . الثاني — بالدِّين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي . وروى عن ابن عباس : «نَبْتَلِيهِ» نصرفه خلقا بعد خلق؛ لنبتليه بالخير والشر . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : المعنى والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ لنبتليه وهي مُقدَّمة معناها التأخير .

قلت : لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلْقة . وقيل : « جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » يعني جعلنا له سمعا يسمع به الهدى وبصرا يبصر به الهدى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي بينا له وعَرَّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقال مجاهد : أي بينا له السبيل إلى الشّقاء والسّعادة . وقال الضحاك وأبو صالح والسدي : السبيل هنا خروجه من الرحم . وقيل : منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله . ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ أي أيهما فعل فقد بينا له . قال الكوفيون : « إنْ » ها هنا تكون جزاء و « ما » زائدة أي بينا له الطريق إن شَكَرَ أو كَفَر . واختاره الفراء ولم يجزه البصريون؛ إذ لا تدخل « إنْ » للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل . وقيل : أي هديناه الرشد أي بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر . وهو كما تقول : قد نصحت لك إن شئت فاقبل وإن شئت فاترك؛ أي فإن شئت فتحذف الفاء وكذا « إِمَّا شَاكِرًا » والله أعلم . ويقال : هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل . وقد تقدّم في « الفاتحة »(١) وغيرها . وجمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفيا للمبالغة في الشكر وإثباتا لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤَدَّى فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره لكثرة النِّعم عليه وكَثُر كفرُه وإن قَلَّ مع الإحسان إليه . حكاه الماوردي .

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٧ وص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا (٤)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ بيّن حالَ الفريقين ، وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب . والسلاسل القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في «الحاقة»(١) . وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سَلَاسِلًا » منوّنا . الباقون بغير تنوين . ووقف قُنْبُل وابن كثير وحمزة بغير ألف . الباقون بالألف . فأما « قَوَارِير » الأوّل فنوّنه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم ، ولم ينوّن الباقون . ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف . والباقون بالألف . وأما « قَوَارِير » الثانية فنوّنه أيضا نافع والكسائي وأبو بكر ، ولم ينوّن الباقون ، فمن نوّن قرأها بالألف ، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف ، واختار أبو عبيد التنوين في الثلاثة ، والوقف بالألف اتباعا لخط المصحف ؛ قال : رأيت في مصحف عثمان « سَلَاسِلًا » بالألف و « قَوَارِيرًا » الأوّل بالألف وكان الثاني مكتوبا بالألف فحُكّت فرأيت أثرها هناك بيّنا . فمن صرف فله أربع حجج : أحدها — أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد ، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت . الثانية — أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك ، وكذا قال الكسائي والفراء هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرونه ؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كَأَنَّ سُيوفَنَا فِينا وفِيهِمْ ... مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا

وقال لَبِيد :

وجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوتُ لِحَتْفِها ... بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبِيد أيضا :

فَضْلًا وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٢

فصرف مخاريق ومغالق ورغائب وسبيلها ألّا تُصرف . والحجة الثالثة — أن يقول نوّنت قوارير الأوّل لأنه رأس آية، ورءوس الآى جاءت بالنون؛ كقوله جلّ وعزّ : «مَذْكُورًا . سَمِيعًا بَصِيرًا » فنوّنا الأوّل ليوقف بين رءوس الآى، ونوّنا الثانى على الجوار للأوّل . والحجة الرابعة — آتباع المصاحف وذلك أنهما جميعا فى مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف . وقد آحتج من لم يصرفهن بأن قال : إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصرَف فى معرفة ولا نكرة؛ فالذى بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ؛ والذى بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل : « لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ » لأن بعد الألف منه حرفين؛ وكذلك قوله : «وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ اللهِ كَثِيرًا» والذى بعد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ . وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدث عن آبن إدريس قال : فى المصاحف الأوّل الحرف الأوّل بالألف والثانى بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة . وقال خلف : رأيت فى مصحف ينسب إلى قراءة آبن مسعود الأول بالألف والثانى بغير ألف . وأما أَفْعَل مِنْك فلا يقول أحد من العرب فى شعره ولا فى غيره هو أفعل منك منوّنا؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين و إضافة فى حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ جمع غُلّ تُغل بها أيديهم إلى أعناقهم . وعن جُبير بن نُفَير عن أبى الدرداء كان يقول : آرفعوا هذه الأيدى إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال . وقال الحسن : إن الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالا . ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ تقدّم القول فيه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ الأبرار أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من آمتثل أمر الله تعالى . وقيل : البَرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد، وقيل : هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرّ خالقه ويَتَبَرَّره أي يُطيعه والأم بَرَّة بولدها . وروى آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سماهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقّا كذلك لولدك عليك حقّا " . وقال الحسن : البَرّ الذي لا يؤذي الذّرّ . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذْر . وفي الحديث : " الأبرار الذين لا يؤذون أحدا " . ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ أي من إناء فيه الشراب . قال آبن عباس : يريد الخمر . والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه شراب لم يُسَمَّ كأسا . قال عمرو بن كُلْثوم :

صَبَنْتِ[(1)] الكأسَ عنّا أمَّ عمرٍو * وكان الكأْسُ مَجْراها اليَمِينَا

وقال الأصمعي : يقال صَبَنْتَ عنّا الهدِيّة أو ما كان من معروف تَصبِن صَبْنا بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي شَوْبها وخلطها؛ قال حسّان :

كأنَّ سَبِيئةً[(2)] من بيتِ رأْسٍ * يكونُ مِزاجُها عَسلٌ وماءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة . ﴿ كَافُورًا ﴾ قال آبن عباس : هو آسم عين ماء في الجنة يقال له عين الكافور . أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافورا . وقال سعيد عن قتادة : تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك . وقاله مجاهد . وقال عكرمة : مِزاجها طعمها . وقيل : إنما الكافور في ريحها لا في طعمها . وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده؛ لأن الكافور لا يشرب؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أي كنارٍ . وقال آبن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل . وقال

---

(١) الرواية المشهورة في المعلقات : صددت الكأس .

(٢) السبيئة : الخمر . وسميت بذلك لأنها تستبى أي تشترى لتشرب؛ وفي بعض النسخ : كأن خبيئة، وهي المصونة المضنون بها لنفاستها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

مقاتل : ليس بكافور الدنيا ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب. وقوله : «كَانَ مِزَاجُهَا» «كان» زائدة أى من كأس مزاجُها كافورٌ . ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ قال الفراء : إن الكافور اسم لعين ماء فى الجنة ؛ فـ«عَيْنًا» بدل من كافور على هذا . وقيل : بدل من كأس على الموضع . وقيل : هى حال من المضمر فى مزاجها . وقيل : نصب على المدح ؛ كما يُذكَر الرجلُ فتقول : العاقلَ اللبيبَ أى ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعنى . وقيل : يشربون عينا . وقال الزجاج : المعنى من عين . ويقال : كافور وقافور . والكافور أيضا وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى . قاله الأصمعى .

وأما قول الراعى :

تَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ * مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنّ الظبي الذى يكون منه المسك إنما يَرْعَى سُنْبُلَ الطِّيب فجعله كافورا . ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء فى المعنى ، وكأنّ يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع ، وأنشد :

شَرِبْنَ بِمَاءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ * مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ (١)

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ويتكلم كلاما حسنا . وقيل : المعنى يشربها والباء زائدة . وقيل : الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها ؛ قاله القتبيّ . ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيقال : إن الرجل منهم ليمشى فى بيوتاته ويصعد إلى قصوره ، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجرى معه حيثما دار فى منازله على مستوى الأرض فى غير أخدود ، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره ؛ وذلك قوله تعالى : «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» أى يُشقّقونها شَقًّا كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبى نجيح عن مجاهد «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

(١) قائله أبو ذؤيب يصف السحابات ، والباء فى «بماء» بمعنى «من» و«متى» معناها «فى» فى لغة هذيل ونئيج : أى مر سريع مع صوت .

ابو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل(١) عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » [والأخرى الزنجبيل](٢) والأخريان نَضّاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عينا فيها تسمى](٣) « سَلْسَبِيلا » والأخرى التَّسْنِيم " ذكره الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » . وقال : فالتَّسْنِيم للقربين خاصة شربا لهم ، والكافور للأبرار شربا لهم ؛ يمزج للأبرار من التَّسْنِيم شرابهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب ، فما كان للأبرار مزاج فهو للقربين صِرف وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج ، والأبرار هم الصادقون ، والمقرّبون هم الصِّدِّيقون .

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ أى لا يُخلِفون إذا نَذَروا . وقال مَعْمَر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا في حقّ الله جل ثناؤه . وقال الفرّاء والجرجاني : وفي الكلام إضمار ؛ أى كانوا يوفون بالنذر في الدنيا . والعرب قد تزيد مرة « كان » وتحذف أخرى . والنذر حقيقته ما أوجبه المكلَّف على نفسه من شيء يفعله . وإن شئت قلت في حَدّه : النذر هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبي : « يُوفُونَ بِالنذرِ » أى يتمون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى :

(١) هذا السند في الأصول : أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبي .
(٢) الزيادة من الدر المنثور .		(٣) الزيادة من التذكرة والدر المنثور .

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ» أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج . وهذا يقوّى قول قتادة . وإن النـذر يندرج فيه ما ٱلتزمه المرء بإيمانه من ٱمتثال أمر الله ؛ قاله القشيرى . وروى أشهب عن مالك أنه قال : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » هو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » قال : النذر هو اليميـن .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ أى يحذرون ﴿ يَوْمًا ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى عاليا داهيا فاشـيا وهو فى اللغـة ممتدا ؛ والعرب تقول : ٱستطار الصَّـدْع فى القارورة والزجاجة وٱستطال إذا ٱمتد ؛ قال الأعشى :

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ فى الفُؤَا(١) * دِ صَدْعًا على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال : ٱستطار الحريق إذا ٱنتشر . وٱستطار الفجر إذا ٱنتشر الضوء .

وقال حسّان :

وَهانَ على سَرَاة بِنى لُـؤَىٍّ * حَرِيقٌ بالبُـوَيْرَةِ مُسْـتَطِيرُ(٢)

وكان قتادة يقول : ٱستطار واللهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فٱنشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكةُ ، وفى الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّـهِ ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهـد : على قِلّتـه وحبّهـم إياه وشهوتهم له . وقال الدارانى : على حبّ الله . وقال الفُضَيل بن عِياض : على حبّ إطعام الطعام . وكان الربيـع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطعموه سُكَّرا فإن الربيع يحبّ السُّكَّر . ﴿ مِسْكِينًا ﴾ أى ذا مسكنة . وروى أبو صالح عـن ٱبن عباس قال : هو الطوّاف يسألك مَالَكَ ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ أى من يتامى المسلمين . وروى منصور عن الحسن : أن

(١) ويروى : أورثت .

(٢) سراة بنى لؤى أى خيارهم . والبويرة : موضع ببنى قريظة ؛ يشير إلى ما فعله المسلمون ببنى قريظة .

يتيما كان يحضر طعام آبن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجده ، وجاءه بعد ما فرغ آبن عمر من طعامه فلم يجد الطعام ، فدعا له بسَوِيق وعسل ؛ فقال : دونك هذا فوالله ما غُبِنتَ ؛ قال الحسن وآبن عمر : والله ما غَبِن . ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ أى الذى يؤسر فيحبس . فروى أبو صالح عن آبن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون فى أيديهم . وقاله قتادة . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد قال : الأسير هو المحبوس . وكذا قال سعيد آبن جبير وعطاء : هو المسلم يُحبَس بحق . وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وآبن عباس . قال قتادة : لقد أمر الله بالأسرى أن يُحسَن إليهم ، وأن أسراهم يومئذ لأَهلُ الشِّرك ، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه . وقال عكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثُّمَالى : الأسير المرأة ، يدل عليه قوله عليه السلام : "آستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عَوَانٌ عندكم" أى أسيرات . وقال أبو سعيد الخدرى : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » فقال : "المسكين الفقير واليتيم الذى لا أب له والأسير المملوك والمسجون" ذكره الثعلبي . وقيل : نسخ إطعام المسكين آية الصدقات ، وإطعام الأسير [آية] السيف ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام . الماوردىّ : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه فى أسر خبله وجنونه ، وأسر المشرك آنتقام يقف على رأى الإمام ؛ وهذا بِرٌّ وإحسان . وعن عطاء قال : الأسير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكأنّ هذا القول عام يجمع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى ، غير أنه من صدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا . والله أعلم . ومضى القول فى المسكين واليتيم والأسير وآشتقاق ذلك من اللغة فى « البقرة »(١) مستوفى والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ فما بعد و ص ٢١

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى يقولون بألسنتهم للسكين واليتيم والأسير « إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ » فى الله جل ثناؤه فزعا من عذابه وطمعا فى ثوابه . ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ أى مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أى ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم فى الدنيا حين أطعموا . وعن سالم عن مجاهد قال : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب فى ذلك راغب . وقاله سعيد بن جبير حكاه عنه القشيرى . وقيل : إن هـذه الآية نزلت فى مُطْعِم بن ورقاء الأنصارىّ نذر نذرا فوفى به . وقيل : نزلت فيمن تكفل بأسرى بَدْر وهم سبعة من المهاجرين ؛ أبو بكر وعمر وعلىّ والزّبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضى الله عنهم ؛ ذكره المـاوردى . وقال مقاتل : نزلت فى رجل من الأنصـار أطعم فى يوم واحد مسكينا ويتيما وأسـيرا . وقال أبو حمـزة الثّمـالى : بلغنى أن رجلا قال يا رسول الله أطعمنى فإنى والله مجهود؛ فقال : "والذى نفسى بيده ما عنـدى ما أطعمك ولكن آطلب" فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسأله وأخبره بقول النبى صلى الله عليه وسـلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه وآسقه . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسـلم يتيم فقال : يا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : " ما عنـدى ما أطعمك ولكن آطلب" فاستطعم ذلك الأنصارىّ فقالت المرأة : أطعمه وآسقه، فأطعمه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم أسير فقال : يا رسـول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : "والله ما معى ما أطعمك ولكن آطلب" . فجاء الأنصارىّ فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه وآسقه . فنزلت : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ذكره الثعلبى . وقال أهل التفسير : نزلت فى علىّ وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما آسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار، ومن فعل فعلا حسنا ؛ فهى عامة . وقد ذكر النقاش والثعلبى والقشيرى وغير واحد من المفسرين فى قصة علىّ وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » قال :

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب؛ فقالوا : يا أبا الحسن — ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبا الحسن — رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم — لو نذرتَ عن ولديك شيئا، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء . فقال رضي الله عنه : إن بَرأَ ولداى صمت لله ثلاثة أيام شكرا . وقالت جارية لهم نوبية . إن بَرأَ سيِّداى صمت لله ثلاثة أيام شكرا . وقالت فاطمة مثل ذلك . وفى حديث الجُعْفيّ : فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فآنطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبرى وكان يهوديا فآستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير، فجاء به فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته وآختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه . وفى حديث الجُعْفيّ : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد — فى حديث الجُعْفيّ — أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه عليّ رضي الله عنه فأنشأ يقول[(1)] :

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقين * يا بنتَ خيرِ الناسِ أجمعين
أما تَرينَ البائسَ المسكين * قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين * يشكو إلينا جائعٌ حزين
كل آمرئ بكسبه رهين * وفاعل الخيرات يستبين

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها : وذكر النقاش فى ذلك حكاية طويلة جدا، ظاهرة الآختلاق، وفيها أشعار للسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوّة، وأشعار لفاطمة رضى الله عنها تخاطب كل واحد منهم، ظاهرها الآختلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسفاطة معانيها . وسيأتى للؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزيفه .

موعدُنا جَنّةُ علّيين * حرّمها الله على الضّنين
وللبخيل موقفٌ مهين * تهوى به النار إلى سجّين
شرابه الحميم والغسْلين * منْ يفعلِ الخير يقم سمين
* ويَدْخُلُ الجنةَ أيّ حين *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أمرُكَ عندى يابن عمّ طاعهْ * ما بِيَ من لُؤْم ولا وَضَاعهْ
غَذَيْتُ فى الخبز له صِناعهْ * أُطعمه ولا أبالى السّاعهْ
أرجو إذا أشبعتُ ذا المجاعهْ * أنْ ألحقَ الأخيارَ والجماعهْ
* وأدخلَ الجنةَ لى شفاعهْ *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئا إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان فى اليوم الثانى قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلى علىٌّ مع النبى صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد: يتيم من أولاد المهاجرين آستشهد والدى يوم العقبة[(١)]. أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطمِ بنتَ السيِّد الكريم * بنت نبيٍّ ليس بالزنيم
لقد أتى الله بذى اليتيم * من يرحم اليوم يكن رحيم
ويدخل الجنة أى سليم * قد حُرِّم الخلدُ على اللئيم
ألّا يجوزُ الصراطَ المستقيم * يزلّ فى النار إلى الجحيم
* شرابُه الصديدُ والحميم *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعمه اليوم ولا أبالِى * وأوثر الله على عيالى
أمسَوْا جياعاً وهمُ أشبالِى * أصغرهم يُقتَلُ فى القتال

(١) كذا فى الأصل .

بِكَرْبَلَا يُقتَلُ بِاغتِيالِ * ياويل لِلقاتِلِ مِن وَبالِ
تَهوى به النارِ إلى سِفالِ * وفى يديهِ الغُلّ والأغلال
* كبولة زادت على الأكبالِ *

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئا إلا الماء القَرَاح ، فلما كانت فى اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقى فطحنته واختبزته ، وصلّى علىٌّ مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد تأسروننا وتَشُدّوننا ولا تُطعِموننا ! أطعمونى فإنّى أسير محمد . فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطم يا بِنتَ النبىِّ أحمد * بنت نبىٍّ سيِّدٍ مُسَوَّد
وسماه الله فهو محمد * قد زانه الله بِحسنٍ أغيد
هذا أسيرٌ للنبىِّ المهتد * مُثقَّلٌ فى غُلّه مُقيَّد
يَشكو إلينا الجوعَ قد تمدد * من يُطعِمِ اليومَ يجده فى غد
عِند العلىّ الواحِدِ الموحَّد * مايزرع الزارِعُ سوف يَحصُد
* أعطيهِ لالا تجعليهِ أقعد *

فأنشأت فاطمة رضى الله تعالى عنها تقول :

لم يَبْقَ مِمّا جاء غيرُ صاع * قد ذهبت كَفِّى مع الذِّراع
ابناىَ واللهِ هُمَا جِيَاع * يارَبِّ لاتتركهما ضِياع
أبوهما لِلخير ذو اصطناع * يَصطنِع المعروفَ بِابتداع
عَبْلُ الذِّراعينِ شديد الباع * وما على رأسِىَ مِن قِناع
* إلّا قناعاً نَسْجُه أَنْسَاع *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئا إلا الماء القَرَاح ، فلما أن كان فى اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن و بيده اليسرى الحسين وأقبل نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا الحسن ما أشدّ مايسوءنى ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتى فاطمة " فانطلقوا إليها وهى فى محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدّة الجوع، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : "واغوثاه يا الله أهل بيت محمد يموتون جوعا " فهبط جبريل عليه السلام وقال : السلام عليك ربك يقرئك السلام يا محمد خذه هنيئا فى أهل بيتك . قال : " وما آخذ يا جبريل " فأقرأه « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول : فهذا حديث مُزَوَّق مُزيَّف قد تطرَّف فيه صاحبه حتى تَشَبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم، وقد قال الله تعالى فى تنزيله : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن " خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى " . " وابْدَأْ بنفسك ثم بمن تَعُول" وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثما أن يضيع من يَقُوت" أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانا صغارا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ! حتى تَضوّروا من الجوع، وغارت العيون منهم، لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد . هَبْ أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ ! وهَبْ أن أهله سمحت بذلك لعلىّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ ! ما يروج مثل هذا إلا على حُمْق جهّال ، أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلىّ مثل هذا . وليت شعرى من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علىّ وفاطمة ، وإجابة كل واحد منهما صاحبه ، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة ؟ ! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى ، بلغنى أن قوما

يُخلَّدون فى السجون فيبقون بلا حيـلة ، فيكتبون أحاديث فى السَّمَر وأشباهه ، ومثل هـذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيَّفوها ، وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة، وآفة الدِّين وكيده أكثر .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ « عَبُوسا » من صفة اليوم ، أى يوما تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ؛ فالمعنى نخاف يوما ذا عبوس . وقال آبن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منـه عرق كالقَطران . وعن آبن عباس : العَبُوس الضَّيِّق والقَمْطرير الطويل ؛ قال الشاعر :

* شَـديدًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *

وقيـل : القَمْطرير الشّديد ؛ تقول العرب : يوم قَمْطرير وقُمَـاطِر وعَصِيب بمعنى ؛ وأنشد الفـــرّاء :

بَنِى عَمِّنَا هـل تذْكُرونَ بَلاءَنا * عليـكمْ إذا ما كان يومٌ قُمَـاطِرُ

بضم القـاف . وآقْمَطَرَّ إذا آشـتد . وقال الأخفش : القمطرير أشـدّ ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ؛ قال الشاعر :

ففرّوا إذا ما الحربُ ثار غُبارُها * ولَجَّ بهـا اليومُ العَبُوسُ القُماطِرُ

وقال الكسائى : يقـال آقْمَطَرَّ اليومُ وآزْمَهَرَّ آقْمِطرارا وآزْمِهـرارا وهو القمطرير والزمهرير ، ويوم مُقْمَطِرٌّ إذا كان صعبا شديدا ؛ قال الهُذَلىّ (١) :

بَنُو الحَرْبِ أُرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةً * ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليوم يَهْرُبُ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلى والذى فى ديوان الهذليين :

بنو الحرب أرضعنا بهـا مقمطرة * ومن يلق منـا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبنى للمجهول . مقمطرة من آقمطرت الناقة إذا لقحت . و يلق بنى للمجهول فى اللفظين . والســيد عند هذيل الأسد . والمدرب الضارى .

وقال مجاهـد : إنّ العُبوس بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين بجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد آبن الأعرابي :

يَغْدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ * ويَقْمَطِرُّ ساعةً ويَكْفَهِرّْ

وقال أبو عبيـدة : يقال رجل قَمْطرير أي متقبض ما بين العينين . وقال الزجاج : يقـال آقْمَطرَّت الناقةُ إذا رفعت ذَنَبها وجمعت قُطْرَيها وزَمَّت بأنفها ؛ فآشتقه من القُطْر وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة :

وآصطليتُ الحروبَ في كلّ يومٍ * باسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّباح

قوله تعـالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللّهُ ﴾ أي دفع عنهم ﴿ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقوه أي رأوه ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حسنا ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أي حبورا . قال الحسن ومجاهد : «نَضْرَةً» في وجوههم «وسُرُورًا» في قلوبهم . وفي النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء؛ قاله الضحاك . الثـاني الحسن والبهاء؛ قاله آبن جبير . الثالث أنها أثر النعمة؛ قاله آبن زيد .

قوله تعـالى : وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الفقر . وقال القُرَظيّ : على الصوم . وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذر . وقيل : بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه . و « ما » مصدرية وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . وروى آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : "الصبر أربعة أوّلها الصبر عند الصّدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض والصبر على آجتناب محارم الله والصبر على المصائب" . ﴿ جَنَّـةً وَحَرِيرًا ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحـرير . أي يسمى

بحرير الدنيا وكذلك الذى فى الآخرة [وفيه] ما شاء الله عز وجل من الفضل . وقد تقدم أن(١) من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإنما ألبسه من ألبسه فى الجنة عوضا عن حبسهم أنفسهم فى الدنيا عن الملابس التى حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ، ونصب « مُتَّكِئِينَ » على الحال من الهاء والميم فى « جَزَاهُمْ » والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها « صَبَرُوا » ؛ لأن الصبر إنما كان فى الدنيا والاتكاء فى الآخرة . وقال الفرّاء . وإن شئت جعلت « مُتَّكِئِينَ » تابعا كأنه قال جزاهم جنة « مُتَّكِئِينَ فِيهَا » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السرر فى الحجال وقد تقدم(٢) . وجاءت عن العرب أسماء تحتوى على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا فى حجلة على سرير ، ومنها السَّجْل وهو الدَّلو الممتلئ ماء فإذا صفرت لم تُسمَّ سَجْلا ، وكذلك الذَّنوب لا تُسمَّى ذَنُوبا حتى تُملأ ، والكأس لا تُسمَّى كأسا حتى تُترَع من الخمر ، وكذلك الطَّبَق الذى تُهدَى عليه الهدية مِهْدى ، فإذا كان فارغا قيل طَبَق أو خِوان ؛ قال ذو الرُّمَّة :

خُدُودٌ جَفَتْ فى السَّيْرِ حَتَّى كأنَّما　*　يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأرائِكِ(٣)

أى الفرش على السرر . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ أى لا يرون فى الجنة شدّة حرّ كحرّ الشمس ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى ولا بردا مفرطا ؛ قال الأعشى :

مُنَعَّمَةٌ طِفْلَةٌ كَالْمَهَا　*　ةِ لَمْ تَرَ شَمْسًا ولَا زَمْهَرِيرَا(٤)

وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشتكت النارُ إلى ربّها عزّ وجلّ قالت يا ربّ أكل بعضى بعضًا فجعل لها نَفَسين نَفَسا فى الشّتاء ونَفَسا فى الصّيف فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها وشدّة ما تجدون من الحرّ فى الصّيف

(١) راجع : ج ١٢ ص ٢٩　　　(٢) راجع : ج ١٠ ص ٣٩٨

(٣) المعزاء الأرض الصلبة يقول : من شدّة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على الأرائك وهى السرر . ويروى : خدودا على أنه مفعول لفعل فى البيت قبله .

(٤) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا : مبتلة الخلق مثل المهاة ... الخ .

من سَمُومها" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن هواء الجنة سَجْسَج لا حرٌّ ولا بردٌ" والسَّجْسَج الظِّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس . وقال مُرَّة الهَمْدانيّ : الزمهرير البرد القاطع . وقال مقاتل بن حيان : هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد . وقال ابن مسعود : هو لون من العذاب وهو البرد الشديد ، حتى إن أهل النار إذا أُلقوا فيه سألوا الله أن يعذّبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوما واحدا . قال أبو النَّجْم :

* أو كُنت ريحًا كُنتُ زَمْهَرِيرًا *

وقال ثعلب : الزَّمهرير القمر بلغة طيء ؛ قال شاعرهم :

وليلةٍ ظَلامُها قد اعْتَكَرْ * قَطَعْتُها والزَّمْهرِيرُ ماَزهَرْ

ويروى : ما ظهر ؛ أي لم يطلع القمر . فالمعنى لا يرون فيها شمسا كشمس الدنيا ولا قمرا كقمر الدنيا ؛ أي إنهم في ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ؛ لأن ضوء النهار بالشمس وضوء الليل بالقمر . وقد مضى هذا المعنى مُجَوَّدا في سورة « مريم » (1) عند قوله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » . وقال ابن عباس : بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نورا ظنّوه شمسا قد أشرقت بذلك النور الجنة ، فيقولون : قال ربنا « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » فما هذا النور ؟ فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر ، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله تعالى « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ » . وأنشد :

أنا مَوْلًى لِفَتَى * أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى
ذاكَ عليٌّ المُرْتَضَى * وابن عَمِّ المصطفَى

قوله تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار ، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة

(1) راجع جـ ١١ ص ١٢٧

وإن كان لا وسخ ولا شَعَث ثَمّ . ويقال : إن ٱرتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام ، فإذا ٱشتهى وليّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها . وٱنتصبت « دَانِيَةً » على الحال عطفا على « مُتَّكِئِينَ » كما تقول : في الدار عبد الله متكئًا ومرسلة عليه الحِجال . وقيل : ٱنتصبت نعتا للجنة ؛ أي وجزاهم جنةً دانيةً فهي صفة لموصوف محذوف . وقيل : على موضع « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » ويرون دانيةً . وقيل : على المدح أي دنت دانيةً . قاله الفراء . « ظِلَالُهَا » الظلال مرفوعة بدانية ، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز ، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في « جزاهم » وقد قرئ بذلك . وفي قراءة عبد الله « وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ » لتقدم الفعل . وفي حرف أُبيّ « وَدَانٍ » رفع على الأستئناف . ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ أي سُخِّرت لهم ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ أي ثمارها ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ أي تسخيرا فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : إن قام أحد ٱرتفعت له ، وإن جلس تدلت عليه ، وإن ٱضطجع دنت منه فأكل منها . وعنه أيضا : أرض الجنة من ورق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله ؛ فمن أكل منها قائما لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم تؤذه ، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذه . وقال ٱبن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد ، وتذليل القطوف تسهيل التناول . والقطوف الثمار الواحد قِطف بكسر القاف سمي به لأنه يُقْطَف ، كما سمي الجنى لأنه يجنى . « تَذْلِيلًا » تأكيد لما وصف به من الذّل ؛ كقوله تعالى : « وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » . الماوردي : ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها ، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفي هذا بعد ؛ فقد روى ٱبن المبارك ، قال أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زُمُرُّد أخضر ، وكَرَبُها ذهب أحمر ، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء ، أشدّ

بياضا من اللّبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم . قال أبو جعفر النحاس : ويقال المذلَّل الذى قد ذلّله الماءُ أى أرواه . ويقال المذلّل الذى يُقَيِّئه أدنى ريح لنَعْمته ، ويقال المذلَّل المُسَوَّى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذَلِّلْ نخلك أى سَوِّه ، ويقال المُذَلَّل القريب المتناول ؛ من قولهم : حائط ذَلِيلٌ أى قصير . قال أبو حنيفة : وهذه الأقوال التى حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها فى قول آمرئ القيس :

* وساقٍ كأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ (١) *

قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب « بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ » قال آبن عباس : ليس فى الدنيا شيء مما فى الجنة إلا الأسماء؛ أى ما فى الجنة أشرف وأعلى وأنقى . ثم لم تنف الأوانى الذهبية بل المعنى يسقون فى أوانى الفضة ، وقد يسقون فى أوانى الذهب . وقد قال تعالى : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » . وقيل : نبه بذكر الفضّة على الذهب ، كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ » أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الثانى . والأكواب الكيزان العظام التى لا آذان لها ولا عُرَى ، الواحد منها كُوب ؛ وقال عَدِىّ :

مُتَّكِئًا تَقْرَعُ (٢) أبوابُهُ * يَسْعَى عليه العبدُ بالكُوبِ

وقد مضى فى « الزخرف » (٣) . ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أى فى صفاء القوارير وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضّة . وقيل : أرض الجنة

(١) الأنبوب : البردى . والسق : النخل المسق . شبه ساق المرأة ببردى قد نبت تحت نخل ، فالنخل يظله من الشمس وذلك أحسن ما يكون منه . وصدر البيت : وكشح لطيف كالجديل مخصر .

(٢) يروى : تخفق . بدل تقرع . (٣) راجع ج ١٦ ص ١١١ فما بعدها .

من فضّة ، والأوانى تتخذ من تربة الأرض التى هى منها . ذكره ابن عباس وقال : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة . وقال : لو أخذت فضّة من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم تر من ورائها الماء ، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة فى صفاء القوارير[1] . ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال ؛ أى قَدّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر رِيِّهم بغير زيادة ولا نقصان . الكلبي : وذلك ألذّ وأشهى ؛ والمعنى قَدّرتها الملائكة التى تطوف عليهم . وعن ابن عباس أيضا : قَدّروها على ملء الكفّ لا تزيد ولا تنقص حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر . وقيل : إن الشاربين قَدّروا لها مقادير فى أنفسهم على ما اشتهوا وقَدّروا . وقرأ عبيد بن عمير والشَّعْبي وابن سيرين « قُدِّروها » بضم القاف وكسر الدال أى جعلت لهم على قدر إرادتهم . وذكر هذه القراءة المهدوى عن علىّ وابن عباس رضى الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ « قُدِّرُوها » فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى ، وكأنّ الأصل قُدِّروا عليها فحذف حرف الجر ؛ والمعنى قُدِّرت عليهم ؛ وأنشد سيبويه[2] :

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ * والحَبُّ يأكُلُه فى القَرْيةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبّ العراق . وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : « قَدَّرُوها تَقْدِيرًا » أى لا يفضل عن الرِّىّ ولا ينقص منه ، فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِىّ المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار . ذكر هذا القول الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ وهى الخمر فى الإناء . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ « كان » صلة أى مزاجها زنجبيل أو كان فى حكم الله زنجبيلا . وكانت العرب تستلذّ من

---

(١) أى فى بياضها .

(٢) قائله المتلمس . ويروى : أطعمه . والرواية الصحيحة فى « آليت » بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك ، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلمس حب العراق . فقال له المتلمس مستهزئا آليت على حب العراق لا أطعمه ، وقد وجدت منه بالشام ما يغنى عما عندك فنه هناك كثير بحيث يأكله السوس . وأراد بالقرية الشام .

الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته ؛ لأنه يحذو اللسان ، ويهضم المأكول ، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب . وقال المسيّب بن عَلَس يصف ثغر المرأة :

وكأنّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ * إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلافَةَ الخَمْرِ

ويروى : الكَرْمِ (١) . وقال آخر :

كأنّ جَنِيًّا مِن الزَّنْجَبِيـ * ـلِ بَاتَ بِفِيهَا وأرْيًا مُشَارًا

ونحوه قول الأعشى :

كأنّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ * ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وأرْيًا مَشُورًا

وقال مجاهد : الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار . وكذا قال قتادة : والزّنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة . وقيل : هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل . وقيل : إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل .

والمعنى كأنّ فيها زنجبيلا . ﴿ عَيْنًا ﴾ بدل من كأس . ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينا . ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ » . ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ السلسبيل الشراب اللذيذ وهو فَعْليل من السّلاسة ؛ تقول العرب : هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى أي طيّب الطعم لذيذه . وفي الصحاح : وتسلسل الماء في الحلق جرى ، وسَلْسلتُه أنا صببته فيه ، وماء سَلْسَل وسَلْسَال سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ، والسُّلاسل بالضم مثله . وقال الزجاج : السَّلْسَبيل في اللغة اسم لما كان في غاية السَّلاسة فكأنّ العين سميت بصفتها . وعن مجاهد قال : سَلْسَبِيلا حديدة الجَرْي تسيل في حلوقهم انسلالا . ونحوه عن ابن عباس : إنها الحديدة الجَرْي . ذكره الماوردي ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

(١) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده ، وفيه : خالط فاها ... الخ والظاهر أن البيتين واحد واختلفت الرواية .

يسقون من ورد البريص عليهم * بردى يصفق بالرحيق السلسل (١)

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلا ؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم ، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة . وقال قتادة : سلسة منقاد ماؤها حيث شاءوا . ونحوه عن عكرمة . وقال القفال : أي تلك عين شريفة فسل سبيلا إليها . وروى هذا عن علي رضي الله عنه . وقوله : «تُسَمَّى» أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم . وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : « الظُّنُونَا » و « السَّبِيلَا » .

قوله تعالى : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ بيّن من الذي يطوف عليهم بالآنية ؛ أي ويخدمهم ولدان مخلَّدون فإنهم أخفّ في الخدمة . ثم قال : « مُخَلَّدُونَ » أي باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغضاضة والحُسْن ، لا يهرَمون ولا يتغيرون ويكونون على سنّ واحدة على مرّ الأزمنة . وقيل : مخلَّدون لا يموتون . وقيل : مُسوَّرون مُقرَّطون ؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية . وقد تقدم هذا (٢) . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤا مفرقا في عَرَصة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثر بساطا كان أحسن منه منظوما . وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بوران بنت الحسن بن سهل ، وهو

(١) البريص : نهر بدمشق . وبردى نهر آخر بدمشق أيضا أي ماء بردى . ويصفق : يمزج . والرحيق : الخمر البيضاء . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ فما بعدها .

على بساط منسوج من ذهب، وقد نثرت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤ، فنظر إليه منثورا على ذلك البساط فٱستحسن المنظر وقال : لله درُّ أبي نُوَاس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأنّ صُغرَى وكُبْرَى من فقاقِعها * حَصْبَاءُ دُرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل : إنما شبههم بالمنثور، لأنهم سراع فى الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهنّ لا يُمتَهنّ بالخدمة .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ « ثَمَّ » ظرف مكان أى هناك فى الجنة، والعامل فى « ثَمَّ » معنى « رَأَيْتَ » أى وإذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » . وقال الفرّاء : فى الكلام « ما » مضمرة أى وإذا رأيت ما ثَمَّ؛ كقوله تعالى : « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » أى ما بينكم . وقال الزجاج : « ما » موصولة بثَمَّ على ما ذكره الفرّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن « رَأَيْتَ » يتعدى فى المعنى إلى « ثَمَّ » والمعنى إذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » ويعنى بثَمَّ الجنة، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضا . والنعيم سائر ما يتنعم به . والمُلْك الكبير ٱستئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّدّىّ وغيره . قال الكلبىّ : هو أن يأتى الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى ولىّ الله وهو فى منزله فيستأذن عليه، فذلك المُلْك العظيم . وقاله مقاتل بن سليمان . وقيل : المُلْك الكبير هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبا، حاجبا دون حاجب، فبينما ولىّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتُحْفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الولىّ فى الجنة قط، فيقول للحاجب الخارج : ٱستأذن على ولىّ الله فإن معى كتابا وهدية من ربّ العالمين . فيقول هذا الحاجب للحاجب الذى يليه : هذا رسول من ربّ العالمين، معه كتاب وهدية يستأذن على ولىّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذى يلى ولىّ الله فيقول له : يا ولىّ الله! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك، معه كتاب وتُحْفة من ربّ العالمين أفيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له . فيقول ذلك الحاجب الذى يليه : نعم فأذنوا له . فيقول الذى يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

الحاجب الآخر، فيقول له : نعم أيها المَلك، قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول : السّلامُ يقرئك السّلام ، وهذه تُحفة وهذا كتاب من ربّ العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليه : من الحيّ الذى لا يموت إلى الحيّ الذى لا يموت . فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدى وولي ورحمتى وبركاتى يا وليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُراق فيطير به البُراق شوقا إلى زيارة علاّم الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال سفيان الثورىّ : بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» . وقيل : المُلْك الكبير كون التّيجان على رءوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك . وقال الترمذىّ الحكيم : يعنى مُلْك التكوين فإذا أرادوا شيئا قالوا له كُنْ. وقال أبو بكر الورّاق : مُلْك لا يتعقبه هُلْك . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الملك الكبير هو [أنّ](1) أدناهم منزلة ينظر فى مُلْكه مسيرة ألفى عام يَرَى أقصاه كما يَرَى أدناه" قال : "وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر فى وجه ربّه تعالى كلّ يوم مرتين" سبحان المنعم .

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قرأ نافع وحمزة وآبن محيصن « عَالِيهِم » ساكنة الياء ، وآختاره أبو عبيد آعتبارا بقراءة آبن مسعود وآبن وثاب وغيرهما « عَالِيَتُهُمْ » وبتفسير آبن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها . الفراء : وهو مرفوع بالآبتداء وخبره « ثِيَابُ سُنْدُسٍ » وآسم الفاعل يراد به الجمع . ويجوز فى قول الأخفش إفراده على أنه آسم فاعل متقدّم و «ثِيَابُ» مرتفعة به وسدّت مسدّ الخبر والإضافة فيه فى تقدير الآنفصال لأنه لم يُخَصّ ، وآبتدئ به لأنه آختص بالإضافة . وقرأ الباقون «عَالِيَهُمْ» بالنصب . وقال الفراء : هو كقولك فوقَهم، والعرب تقول : قومك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف لأنه محلّ . وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لا نعرفه فى الظروف، ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم فى قوله :

(١) زيادة يقتضيها المعنى .

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى على الأبرار « وِلْدَانٌ » عاليا الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أى يطوف عليهم فى هذه الحال ، والثانى أن يكون حالا من الولدان أى « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا » فى حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو على : العامل فى الحال إما « لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » وإما « جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا » قال : ويجوز أن يكون ظرفا فصُرِف . المهدوى : ويجوز أن يكون آسم فاعل ظرفا؛ كقولك هو ناحية من الدار، وعلى أن عاليا لمّا كان بمعنى فوق أُجْرِى مُجْراه بجعل ظرفا . وقرأ آبن محيصن وآبن كثير وأبو بكر عن عاصم « خُضْرٍ » بالجر على نعت السُّندس « وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع نَسَقا على الثياب، ومعناه عاليهم [ثيابُ][1] سندسٍ وإستبرقٌ . وقرأ آبن عامر وأبو عمرو ويعقوب « خُضْرٌ » رفعا نعتا للثياب « وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتا للسُّندس، وآختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، وأحسن ماعطف الإستبرق على السُّندس عطف جنس على جنس ، والمعنى عاليهم ثيابٌ خُضْرٌ من سندسٍ و إستبرقٍ أى من هذين النوعين . وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع و يكون « خُضْرٌ » نعتا للثياب ؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع « وَإِسْتَبْرَقٌ » عطفا على الثياب . وقرأ الأعمش وآبن وثّاب وحمزة والكسائى كلاهما بالخفض و يكون قوله «خضرٍ» نعتا للسُّندس ، والسُّندس آسم جنس وأجاز الأخفش وصف آسم الجنس بالجمع على آستقباح له ؛ وتقول : أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدِّرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مُستبعَد فى الكلام . والمعنى على هذه القراءة : عاليهم ثِيابُ سندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ . وكلهم صرف الإستبرق إلا آبن محيصن فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ « و إستبرقَ » نصبا فى موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى وهو غلط ؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ « وَٱسْتَبْرَقَ » بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّى[2] بآستفعل من البريق وليس بصحيح أيضا؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه وأن أصله آستبرك والسُّندس ما رَقّ من الدِّيباج والإستبرق ما غَلُظ منه[3] . وقد تقدّم .

(١) زيادة تقتضيها العبارة . (٢) فى الأصل إستبرق وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسى . وفى الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله : « آستبر » . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ و جـ ١٧ ص ١٧٩

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا ﴾ عطف على « وَيَطُوفُ» . ﴿ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفى سورة فاطر « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » وفى سورة الحج «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا» فقيل : حُليّ الرجل الفضّة وحُليّ المرأة الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة . وقيل : يجمع فى يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة ؛ قاله سعيد بن المسيّب . وقيل : أى لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم . ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه فى قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما ، فتجرى عليهم بنضرة النّعيم ، فلا تتغير أبشارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبدا ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما فى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . وقال النَّخَعىّ وأبو قِلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسكٍ ، وضُمِّرت بطونُهم . وقال مقاتل : هو من عينِ ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غِلّ وغِشّ وحسد، وما كان فى جوفه من أذًى وقذر . وهذا معنى ماروى عن علىّ إلا أنه فى قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فَعُولا للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للحنفى أنه بمعنى الطاهر . وقد مضى بيانه فى سورة « الفرقان »(١) والحمد لله . وقال طَيِّب الجَمَّال : صَلَّيتُ خَلْف سهل بن عبد الله العَتَمة فقرأ « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » وجعل يُحَرِّك شفتيه وفمه كأنه يَمَصّ شيئا ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كان له عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أى يقال لهم إنما هذا جزاء لكم أى ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ أى عملكم ﴿ مَشْكُورًا ﴾ أى من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه . وروى سعيد عن قتادة قال : غَفَر لهم الذّنب وشَكَر لهم الحُسْنى . وقال

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها .

مجاهد : « مَشْكُورًا » أى مقبولا والمعنى متقارب ؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم . روى عن ٱبن عمر : أن رجلا حَبَشيًّا قال : يا رسول الله ! فضلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنّبوّة ، أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ بما عملتَ أكائن أنا معك فى الجنة ؟ قال : " نعم والذى نفسى بيده إنه لَيُرى بياضُ الأسود فى الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام" ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة" فقال الرجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال : " إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله فتجىء النِّعمة من نِعَم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يَتَطَوَّلَ الله برحمته " قال : ثم نزلت « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَمُلْكًا كَبِيرًا » قال الحبشىّ : يا رسول الله ! وإن عينىّ لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " نعم " فبكى الحبشىّ حتى فاضت نَفْسه . قال ٱبن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه فى حفرته ويقول : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : " والذى نفسى بيده لقد أوقفه الله ثم قال أى عبدى لأبيضنّ وجهك ولأُبَوِّئَنَّك من الجنة حيث شئت فنعم أجر العاملين " .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنْزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ما ٱفتريته ولاجئت به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدّعيه المشركون . ووجه ٱتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر

(١) فى نسخة : يتعطف .

ولا كهانة ولا شعر وأنه حقّ . وقال ابن عباس : أنزل القرآن متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال « نَزَّلْنَا »[1] وقد مضى القول في هذا مبينا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لقضاء ربك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت . ثم نسخ بآية القتال . وقيل : أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة . ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا ﴾ أي ذا إثم ﴿ أَوْ كَفُورًا ﴾ أي لا تطع الكفّار . فروى مَعْمَر عن قَتَادة قال قال أبو جهل : إن رأيتُ محمدا يُصلِّي لأطأنّ على عنقه . فأنزل الله عز وجل : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . ويقال : نزلت في عُتْبة بن ربيعة والوليد ابن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوّة؛ ففيهما نزلت « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . قال مقاتل: الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة؛ قال : إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ابنتي من غير مَهْر، وارجع عن هذا الأمر . وقال الوليد : إن كنتَ صنعتَ ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر؛ فنزلت . ثم قيل « أَوْ » في قوله تعالى : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » أوكد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال : « لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » فـ « أو » قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت : هذان أهل أن يُتّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتّبع؛ قاله الزجاج . وقال الفرّاء : « أو » هنا بمنزلة «لا» كأنه قال : ولا كفورا؛ قال الشاعر :

لَا وَجْدَ ثُكْلَى كما وَجَدْتُ وَلَا * وَجْدَ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ[2]
أَوْ وَجْدَ شيخٍ أَضَلَّ ناقتَهُ * يومَ تَوَافَى الحجيجُ فاندفعوا

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩ (٢) العجول من النساء والإبل الواله التي فقدت ولدها ، سميت بذلك لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعا ، وهي هنا الناقة . والربع كمضر الفصيل ينتج في الربيع .

أراد ولا وجد شيخ . وقيل : الآثم المنافق ، والكفور الكافر الذى يظهر الكفر ؛ أى لا تطع منهم آثمـا ولا كفورا ، وهو قريب من قول الفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى صـلّ لربك أوّل النهار وآخره ، ففى أوّله صلاة الصبح وفى آخره صلاة الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ يعنى التطوّع فى الليل ؛ قاله آبن حبيب . وقال آبن عباس وسفيان : كلّ تسبيح فى القرآن فهو صلاة . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان فى الصـلاة أو فى غيرها . وقال آبن زيد وغيره : إن قوله « وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل : هو ندب . وقيل : هو مخصوص بالنبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقـدّم القول فى مثله فى سـورة « المزمّل » وقول آبن حبيب حسن . وجمـع الأصيل الأصائل والأُصُل ؛ كقولك سَفَائن وسُفُن ؛ قال :

* ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ *

وقال[(١)] فى الأصائل وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِى لأنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأَقعـدُ فى أَفْيـائِه بالأَصَـائِلِ

وقد مضى هذا فى آخر « الأعراف »[(٢)] مستوفى . ودخلت « مِنْ » على الظـرف للتبعيض ، كما دخلت على المفعول فى قوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَـاجِلَةَ ﴾ توبيخ وتقريع ، والمـراد أهل مكة . والعاجلة الدنيـا ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أى ويدعون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بين أيديهـم ﴿ يَوْمًا ثَقِيـلًا ﴾

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلى . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها .

أى عسيرا شديدا كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يتركون الإيمان بيوم القيامة . وقيل : « وَرَاءَهُمْ » أى خلفهم ، أى ويذرون الآخرة خلف ظهورهم فلا يعملون لها . وقيل : نزلت فى اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته ، وحبهم العاجلة أخذهم الرشا على ما كتموه . وقيل : أراد المنافقين ؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعم . واليوم الثقيل يوم القيامة . وإنما سمى ثقيلا لشدائده وأهواله . وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أى من طين . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أى خلقهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم . والأَسْر الخَلْق ؛ قال أبو عُبيد : يقال فَرَسٌ شديد الأَسْر أى الخَلْق . ويقال : أسره الله جل ثناؤه إذا شَدّد خَلْقه ؛ قال لبيد :

سَاهِمُ الوجهِ شديدٌ أَسْرُهُ ✻ مُشْرِفُ الحارِكِ مَحْبُوكُ الكَتَدْ (١)

وقال الأخطل :

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شديدٍ أَسْرُهُ ✻ سَلِسِ القِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالَا (٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعَصَب . وقال مجاهد فى تفسير الأَسْر : هو الشَّرْج ، أى إذا خرج الغائط والبول تَقَبَّضَ الموضعُ . وقال ابن زيد : الأَسْر القوّة . وقال ابن أحمر يصف فرسا :

يَمْشِى بِأَوْظِفَةٍ شِدَادٍ أَسْرُهَا ✻ صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِي بِالجَدْجَدِ (٣)

واشتقاقه من الإسار وهو القِدّ الذى يشد به الأقتاب ؛ يقال : أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْرا أى شددته وربطته ؛ ويقال : ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أى شدّه وربطه ؛ ومنه قولهم : خذه

(١) ورد فى اللسان مادة (حبك) : أنشد بيت لبيد على هذه الصورة : مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو فى ديوانه) ، ومحبوك الكفل : مدمجه . وفى مادة حرك أنشد الشطر :

✻ منبط الحارك محبوك الكفل ✻

أما الشطر الذى فى التفسير هنا فهو لأبى دؤاد وقد مر فى جـ ١٧ ص ٣٢ .

(٢) مجتنب مفتعل من الجنيبة وهى الفرس تقاد ولا تركب ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . (٣) الجدجد : الأرض الصلبة . ولا تقى : لاتتوق ولا تهيب .

بأسره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تعكيمه[1] وشدّه لم يُفتح ولم يُنقص منه شيء . ومنه الأسير لأنه كان يُكتّف بالإسار . والكلام خرج مخرج الأمتنان عليهم بالنّعم حين قابلوها بالمعصية . أي سوّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ قال ابن عباس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وعنه أيضا : لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها . كذلك روى الضحاك عنه . والأوّل رواه عنه أبو صالح .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ أي السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي طريقا موصّلا إلى طاعته وطلب مرضاته . وقيل : « سَبِيلًا » أي وسيلة . وقيل : وجهة وطريقا إلى الجنة[2] . والمعنى واحد . ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أي الطاعة والأستقامة وٱتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئةُ أحدٍ ولا تتقدّم إلا أن تتقدّم مشيئته . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو « وَمَا يَشَاءُونَ » بالياء على معنى الخبر عنهم . والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه . وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية . والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته . قال الفرّاء : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » جواب لقوله : « فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال : « وَمَا تَشَاءُونَ » ذلك السبيل « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » لكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيمًا ﴾ في أمره ونهيه لكم . وقد مضى في غير موضع .

---

(١) عكمت المتاع شددته ، والعكام الخيط الذي يعكم به ، وعكمت البعير شددت عليه العكم .

(٢) في نسخة : إلى الخير .

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي يدخله الجنة راحما له ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ أي و يعذّب الظالمين فنصبه بإضمار يعذّب . قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أي يدخل من يشاء في رحمته و يعذّب الظالمين أي المشركين و يكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرا لهذا المضمر؛ كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا * أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ * وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أي أخشى الذئب أخشاه . قال الزجاج : والاختيار النصب و إن جاز الرفع؛ تقول : أعطيت زيدا وعمرا أعددت له برا فيختار النصب؛ أي و بررت عمرا أو أبر عمرا . وقوله في « حم عسق » : « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ » ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء . وها هنا قوله : « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا » يدل على و يعذّب فجاز النصب . وقرأ أبان بن عثمان « وَالظَّالِمُونَ » رفعا بالابتداء والخبر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ . ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي مؤلما موجعا . وقد تقدم هذا في سورة « البقرة »(١) وغيرها والحمد لله . ختمت السورة .

سورة المرسلات

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهي قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » مدنية . وقال ابن مسعود : نزلت « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينا نحن نتلقاها منه ، و إن فاه لرطب بها إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "وُقِيتُم شرها كما وُقِيَت شرّكم" . وعن كريب مولى ابن عباس قال : قرأت سورة « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » فسمعتني أمّ الفضل امرأة العباس فبكت وقالت : والله يا بنيّ لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب . والله أعلم . وهي خمسون آية .

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾
وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ
أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح . وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي . وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي . وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرسَل بما يُعرَفون به من المعجزات . وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح ؛ كما قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ » . ومعنى « عُرْفًا » يتبع بعضها بعضا كعُرْف الفَرَس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد إذا توجهوا إليه فأكثروا . وهو نصب على الحال من « والمرسلات » أي والرياح التي أرسلت متتابعة . ويجوز أن تكون مصدرا أي تباعا . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر ، كأنه قال : والمرسلات بالعُرْف والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه . وقيل : إنها الزواجر والمواعظ . « وعُرْفًا » على هذا التأويل متتابعات كعُرْف الفَرَس ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعني في القلوب . وقيل : معروفات في العقول .

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدوى . وعن ابن مسعود : هى الرياح العواصف تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه ؛ كما قال تعالى : « فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا »(١) . وقيل: العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال: عصف بالشيء أى أباده وأهلكه ، وناقة عَصُوف أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف . ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . وقال ابن مسعود ومجاهد : هى الرياح يرسلها الله تعالى نشرا بين يدى رحمته ؛ أى تنشر السحاب للغيث . وروى ذلك عن أبى صالح . وعنه أيضا : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات فالنشر بمعنى الإحياء ؛ يقال : نشر الله الميت وأنشره أى أحياه . وروى عنه السدى : أنها الملائكة تنشر كتب الله عز وجل . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم . الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح . قال : « والنَّاشِرَاتِ » بالواو ؛ لأنه استئناف قسم آخر . ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده . وعن سعيد عن قتادة قال : « الفارقات فرقا » الفرقان فَرَق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال . وقاله الحسن وابن كيسان . وقيل : يعنى الرسل فَرّقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أى بينوا ذلك . وقيل : السحابات الماطرة تشبيها بالناقة الفارق وهى الحامل التى تخرج وتندّ فى الأرض حين تضع ، ونوق

(١) كذا فى الأصول ؛ ولعل المناسب الاستشهاد بقوله تعالى : « جاءتها ريح عاصف » كما أشار إليه أبو حيان بقوله : وأن العصف من صفات الريح ... الخ .

فَـوارِقُ وفُرَّق . [وربمـا][1] شـبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقـة ؛ قال ذو الرمّة :

أَوْ مُزْنَةٌ فارِقٌ يجْلو غَوارِبَها * تَبَوُّجُ الْبَرْقِ والظَّلْماءُ عُلْجومُ[2]

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة بإجماع ؛ أى تلقى كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله المهدوى . وقيل : هـو جبريل وسمى باسم الجمع ؛ لأنه كان ينزل بها . وقيل : المراد الرسل يلقـون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ؛ قاله قُطْرب . وقرأ ابن عباس « فالملَقِّيات » بالتشديد مع فتح القاف ؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » . ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أى تلقى الوحى إعذارا من الله أو إنذارا إلى خلقـه من عذابه ؛ قاله الفراء . وروى عن أبى صالح قال : يعنى الرسل يعذرون وينذرون . وروى سعيد عن قتادة « عُذْرًا » قال : عذرا لله جل ثناؤه إلى خلقه ، ونذرا للؤمنين ينتفعون به ويأخذون به . وروى الضحاك عن ابن عباس . « عُذْرًا » أى ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليـائه وهى التـوبة « أَوْ نُذُرًا » ينذر أعداءه . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص « أَوْ نُذْرًا » بإسكان الذال وجميـع السبعة على إسكان ذال « عُذْرا » سوى ما رواه الجُعْفىّ والأعشى عن أبى بكر عن عاصم أنه ضم الذال . وروى ذلك عن ابن عبـاس والحسن وغيرهمـا . وقـرأ إبراهيم التَّيمى وقتادة «عُذْرًا وَنُذُرًا» بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفا . وهما منصوبان على الفاعل له أى للإعذار أو للإنذار . وقيل : على المفعول به . وقيل : على البدل من « ذِكْرًا » أى فالملقيات عذرا أو نذرا . وقال أبو على : يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر ؛ كقوله تعالى : « هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ » فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ؛ أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار . أو يكون مفعولا لـ « ـذكرا » أى « فالملقيات » أى تُذَكِّر « عُذْرًا أو نُذُرًا » . وقال المبرد : هما بالتثقيل جمع والواحد عَذير ونَذير . ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هـذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أى ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليـكم .

(١) الزيادة من اللسان عن الجوهرى مادة « فرق » .

(٢) تبوج البرق : تفتحه وتكشفه . علجوم شديد السواد .

ثم بين وقت وقوعه فقال: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى ذهب ضوءها ومُحِى نورُها كطمس الكتاب؛ يقال: طَمَس الشيءُ إذا دَرَس وطُمِس فهو مطموس، والريح تطمس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس. ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى فُتِحت وشُقَّت ؛ ومنه قوله تعالى: « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ». وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرِجت للطيّ. ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى ذُهِب بها كلها بسرعة ؛ يقال: نَسفْتُ الشيءَ وأنسفته إذا أخذته كله بسرعة. وكان ابن عباس والكلبيّ يقول: سُوِّيت بالأرض، والعرب تقول: فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه ؛ قال بِشْر:

* نَسُوفٌ لِلحِـزَام بمرفقيها *

ونَسَفت الناقةُ الكلأَ [إذا قلعته من أصله](١). وقال المبرد: نُسِفت قُلِعت من موضعها؛ يقـول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنْسَفت رجلاه. وقيـل: النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح. ومنه نَسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن. ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أى جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لهـا وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ؛ كما قال تعالى: « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ». وقيل: هـذا فى الدنيا أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لهـا فى إنزال العـذاب بمن كذبهم بأن الكفار مُمْهَلون. وإنمـا تزول الشكوك يوم القيامة. والأول أحسن ؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطَّمْس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أى جعل يوم الدين والفصل لهـا وقتا. وقيـل: أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت. وقيـل: « أُقِّتَتْ » أى أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. والهمزة فى « أُقِّتَتْ » بدل من الواو ؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: وكل واو ضُمَّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة ؛ تقول: صلّى القـوم إِحْدانا تريد وِحْدانا، ويقولون هـذه وُجُوه حسان و[أُجُوه](٢). وهذا

---

(١) الزيادة من كتب اللغة ؛ وفى الأصول: إذا رعته. (٢) زيادة يقتضيها المقام.

لأن ضمة الواو ثقيلة . ولم يجز البدل فى قوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » لأن الضمة غير لازمة . وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر عن عاصم ومجاهد «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل . وقال أبو عمرو : وإنما يقرأ « أُقِّتَتْ » من قال فى وُجُوه أُجُوه . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « وُقِتَت » بالواو وتخفيف القاف . وهو فُعِلت من الوقت ومنه « كِتَاباً مَوْقُوتاً » . وعن الحسن أيضا : « وُوقِتَتْ » بواوين وهو فُوعِلت من الوقت أيضا مثل عُوهِدت . ولو قلبت الواو فى هاتين القراءتين ألفا لجاز . وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلّام «أُقِتَتْ» بالهمزة والتخفيف؛ لأنها مكتوبة فى المصحف بالألف . ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو آستفهام على التعظيم . أى ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أجّلت . وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار . وفى الحديث : "إذا حُشِر الناسُ يوم القيامة قاموا أربعين عاما على رءوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل" . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أتبع التعظيم تعظيما؛ أى وما أعلمك ما يوم الفصل . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى عذاب وخزى لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد . وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذّب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ؛ فإن لكل مكذّب بشىء عذابا سوى تكذيبه بشىء آخر، ورُبَّ شىء كذّب به هو أعظم جُرْما من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح فى تكذيبه، وأعظم فى الردّ على الله؛ فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : « جَزَاءً وِفَاقًا » . وروى عن النعمان بن بشير قال : وَيْلٌ وادٍ فى جهنم فيه ألوان العذاب . وقاله آبن عباس وغيره . قال آبن عباس : إذا خَبَتْ جهنمُ أُخذ من جمره فألقى عليها فيأكل بعضها بعضا . وروى أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "عُرِضت علىّ جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من الويل" وروى أنه مجمَع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشىء فيما سفل من الأرض وآنفطر، وقد علم العباد فى الدنيا أن شر المواضع فى الدنيا ما آستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسالات من الجيف وماء الحمامات، فذكر أن ذلك

الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة، ولا أنتن منه نتنا، ولا أشدّ منه مرارة، ولا أشدّ سوادا منه؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمن من العذاب، وأنه أعظم وادٍ في جهنم، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة .

قوله تعالى : أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أخبر عن إهلاك الكفّار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أي نلحق الآخرين بالأولين . ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف وإما بالهلاك . وقرأ العامة « ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ » بالرفع على الاستئناف وقرأ الأعرج « نُتْبِعْهُمْ » بالجزم عطفا على « نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ » كما تقول : ألم تزرني ثم أكرمك . والمراد أنه أهلك قوما بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين . ثم استأنف بقوله : « كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ » يريد من يهلك فيما بعد . ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفا من « نتبعهم » لتوالي الحركات . وروى عنه الإسكان للتخفيف . وفي قراءة ابن مسعود « ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ » والكاف من « كَذَٰلِكَ » في موضع نصب أي مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك . ثم قيل : معناه التهويل لهلاكهم في الدنيا اعتبارا . وقيل : هو إخبار بعذابهم في الآخرة .

قوله تعالى : أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم . وهذه الآية أصل لمن قال إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده . وقد مضى القول فيه[(١)] .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧ فما بعدها .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ أي في مكان حريز وهو الرحم . ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال مجاهد : إلى أن نصوّره . وقيل : إلى وقت الولادة . ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ وقرأ نافع والكسائي « فَقَدَّرْنَا » بالتشديد . وخفف الباقون وهما لغتان بمعنى . قاله الكسائي والفراء والقُتَبي . قال القُتَبي : قَدَرنا بمعنى قَدَّرنا مشدّدة : كما تقول : قدَرت كذا وقدّرته ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الهلال : " إذا غُمّ عليكم فأَقْدروا له " أي قدّروا له المسير والمنازل . وقال محمد بن الجهم عن الفراء : « فَقَدَّرْنَا » قال : وذكر تشديدها عن عليّ رضي الله عنه وتخفيفها ؛ قال : ولا يبعدن أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحدا ؛ لأن العرب تقول : قَدَر عليه الموت وقُدّر : قال الله تعالى : « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ » قرئ بالتخفيف والتشديد ، وقَدَر عليه رزقه وقدّر قال : واحتج الذين خفّفوا فقالوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون . قال الفراء : وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » قال الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروى عن عِكرمة « فَقَدَرْنَا » مخففة من القدرة وهو آختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائي لقوله : ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ ومن شدّد فهو من التقدير أي فقدّرنا الشقي والسعيد فنعم المقدّرون . رواه آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قدرنا قصيرا أو طويلا . ونحوه عن آبن عباس : قدّرنا ملكنا . المهدوي : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عِكرمة هو الذي قرأ « فَقَدَرْنَا » مخففا قال : معناه فملكنا فنعم المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أي قدّرنا وقت الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرا سويا ، أو الشقيّ والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد . وقيل : هما بمعنًى كما ذكرنا .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أى ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات فى بطنها . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه . وهو قوله عليه السلام : " قُصُّوا أظافركم وآدفنوا قُلَاماتكم "(١) وقد مضى فى «البقرة» بيانه . يقال : كَفَتُّ الشيء أَكْفِته إذا جمعته وضممته ، والكَفْت الضم والجمع ؛ وأنشد سيبويه .

كِرامٌ حينَ تَنْكفِتُ الأَفَاعى ＊ إلى أجْحَارهنّ من الصَّقِيعِ

وقال أبو عبيد : «كِفَاتًا» أوعية و يقال لِلنِّحْي كِفْت وكَفِيت لأنه يحوى اللبن و يضمه قال :

فأنتَ اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا ＊ وأنتَ غدًا تَضُمُّكَ فى كِفَاتِ

وخرج الشَّعْبِيّ فى جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال : هذه كِفات الأموات ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفات الأحياء .

و[الثانيــة](٢) — روى عن ربيعة فى النَّبَّاش قال تُقْطَع يده فقيل له : لم قلت ذلك؟ قال : إن الله عز وجل يقول : « أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وأَمْوَاتًا » فالأرض حرز . وقد مضى هذا فى سورة « المائدة »(٣) وكانوا يسمون بَقِيع الغَرْقَد كَفْتة، لأنه مقبرة تضم الموتى ، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات فى قبورهم . وأيضا آستقرار الناس على وجه الأرض ، ثم آضطجاعهم عليها، آنضمام منهم إليها . وقيل : هى كِفات للأحياء يعنى دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات فى الأرض؛ إذا لا ضَمّ فى كون الناس عليها، والضَّمّ يشير إلى الآحتفاف من جميع الوجوه . وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد فى أحد قوليه : الأحياء والأموات يرجع إلى الأرض أى الأرض منقسمة إلى حىّ وهو الذى ينبت ، وإلى ميت

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٢ فما بعدها .　(٢) لم يذكر فى الأصول لفظ المسئلة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لآبن العربى .　(٣) راجع جـ ٦ ص ١٦٨ فما بعد .

وهو الذى لا ينبت . وقال الفراء : ٱنتصب « أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » بوقوع الكفات عليه ؛ أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات . فإذا نونت نصبت ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » . وقيل : نصب على الحال من الأرض أى منها كذا ومنها كذا . وقال الأخفش : « كِفَاتًا » جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفيت تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر . ويقال : ٱنكفت القومُ إلى منازلهم أى ٱنقلبوا . فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض ﴿ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى الجبال ، والرواسى الثوابت ، والشامخات الطوال ؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا . قال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ أى وجعلنا لكم سقيا والفُرات الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع . أى خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات . وهذه الأمور أعجب من البعث . وفى بعض الحديث قال أبو هريرة : فى الأرض من الجنة الفُرَات والدِّجلة ونهر الأردن . وفى صحيح مسلم : سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة .

قوله تعالى : ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى يقال للكفار سيروا « إلى ما كنتم به تكذبون » من العذاب يعنى النار فقد شاهدتموها عيانا . ﴿ ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ﴾ أى دخان ﴿ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى الدخان الذى يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب . وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ٱرتفع تشعب . ثم وصف الظل فقال : ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ أى ليس كالظل الذى يقى حر الشمس ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أى لا يدفع من لهب جهنم شيئا . واللهب

ما يعلو على النار إذ اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر . وقيل : إن الشعب الثلاث هى الضريع والزَّقُّوم والغِسْلين ؛ قاله الضحاك . وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال هى غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت . وقيل : عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب . فأما النور فيقف على رءوس المؤمنين ، وأما الدخان فيقف على رءوس المنافقين ، وأما اللهب الصافى فيقف على رءوس الكافرين . وقيل : هو السُّرادق وهو لسان من نار يحيط بهم ثم يتشعب منه ثلاث شعب فتظللهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار . وقيل : هو الظل من يحموم ؛ كما قال تعالى : «فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَابَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ»(١) على ما تقدّم . وفى الحديث : " إن الشمس تدنو من رءوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم(٢) الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدَّ ذلك اليوم ثم ينجى الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون « فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » " ويقال للكذبين « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » من عذاب الله وعقابه « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ » فيكون أولياء الله جل ثناؤه فى ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة والنار . ثم وصف النار فقال : ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ الشَّرر واحدته شَرَرة . والشَّرار واحدته شَرَارة وهو ما تطاير من النار فى كل جهة ، وأصله من شَرَّرْتُ الثوبَ إذا بسطتَه للشمس ليجفّ . والقصر البناء العالى . وقراءة العامة « كَالْقَصْرِ » بإسكان الصاد أى الحصون والمدائن فى العِظم وهو واحد القصور . قاله ابن عباس وابن مسعود . وهو فى معنى الجمع على طريق الجنس . وقيل : القصر جمع قَصْرة ساكنة الصاد مثل جَمْرَة وجَمْر وتَمْرَة وتَمْر . والقَصْرة الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ .

وفى البخارى عن ابن عباس أيضا : « تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ » قال كنا نرفع الخشب بقَصَر ثلاثة أذرع(٣) أو أقلّ فنرفعه للشتاء فنسميه القَصَر . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هى

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢١٣   (٢) كذا فى الأصول ولعل اللفظ تلفحهم .

(٣) بنصب ثلاثة و يجوز إضافة بقصر إليها أى بقدر ثلاثة أذرع .

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع . وقيل : أعناقه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمى « كالقَصَر » بفتح الصاد أراد أعناق النخل . والقَصَرة العنق جمعها قَصَر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد ؛ وهى أيضا جمع قَصْرة مثل بَدْرة وبِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقة وحِلَق لحلق الحديد . وقال أبو حاتم : ولعله لغة كما قالوا حاجة وحِوَج . وقيل : القَصْر الجبل فشبه الشرر بالقصر فى مقاديره ، ثم شبهه فى لونه بالجمالات الصُّفْر وهى الإبل السود ؛ والعرب تسمى السّود من الإبل صُفْرا ؛ قال الشاعر(١) :

تِلْكَ خَيْلِى منه وتلك رِكَابِى * هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُها كالزَّبِيبِ

أى هنّ سود . وإنما سميت السود من الإبل صُفْرا لأنه يشوب سوادها شىء من صُفرة ؛ كما قيل لبيض الظباء : الأُدْم ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة : والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه الإبل السود لما يشوبها من صُفْرة . وفى شعر عِمْران بن حطّان الخارجىّ :

دَعَتْهُمْ بِأعلى صَوْتِها ورمَتْهُمُ * بِمِثْلِ الجمالِ الصُّفْرِ نزّاعةُ الشَّوى

وضعف الترمذىّ(٢) هذا القول فقال : وهذا القول محال فى اللغة أن يكون شىء يشوبه شىء قليل فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى : « جِمَالَاتٌ صُفْرٌ » فلا نعلم شيئا من هذا فى اللغة ، ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور فهى نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهى موضع النار حشا ذلك الموضع بتلك النار وبعث إليها سلطانه وغضبه ، فآسودّت من سلطانه وآزدادت حِدّة ، وصارت أشدّ سوادا من النار ومن كل شىء سوادا ، فإذا كان يوم القيامة وجىء بجهنم فى الموقف رمت بشررها على أهل الموقف غضبا لغضب الله ، والشرر هو أسود لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمى الأعداء به فهنّ سود من سواد النار ، لا يصل ذلك إلى الموحدين ؛ لأنهم

(١) هو الأعشى . (٢) فى نسخة : اليزيدى .

فى سرادق الرحمة قد أحاط بهم فى الموقف، وهو الغمام الذى يأتى فيه الربّ تبارك وتعالى ولكن يعاينون ذلك الرمى، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه فى رأى العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم فى رحمة الله لا فى سلطانه وغضبه . وكان ٱبن عباس يقول : الجِمالات الصُّفر حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال . ذكره البخارى . وكان يقرؤها «جُمَالَاتٌ» بضم الجيم ، وكذلك قرأ مجاهد وحميد «جُمَالَات» بضم الجيم وهى الحبال الغلاظ وهى قُلُوس السفينة أى حبالها . وواحد القُلُوس قلس . وعن ٱبن عباس أيضا على أنها قطع النحاس . والمعروف فى الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم فى «الأعراف»(١) . « و جُمَالات » بضم الجيم جمع جِمَالة بكسر الجيم موحدا كأنه جمع جَمَل نحو حَجَر وحِجارة وذَكَر وذِكَارة . وقرأ يعقوب وٱبن أبى إسحق وعيسى والجحدرى « جُمَالة » بضم الجيم موحدا وهى الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « جِمالة » و بقية السبعة « جِمَالَات » قال الفراء : يجوز أن تكون الجِمالات جمع جِمال كما يقال رجل ورِجال ورِجالات . وقيل : شبهها بالجمالات لسرعة سيرها . وقيل : لمتابعة بعضها بعضا . والقَصْر واحد القصور . وقَصْر الظلام ٱختلاطه . و يقال : أتيته قَصْرا أى عَشِيًّا فهو مشترك ؛ قال(٢) :

كَأَنَّهُمُ قَصْرًا مَصابِيحُ راهِبٍ ... بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّلِيطِ ذُبالَهَا

مسئلة — فى هذه الآية دليل على جواز ٱدّخار الحطب والفحم و إن لم يكن من القوت ، فإنه من مصالح المرء ومغانِى مفاقِرِه . وذلك مما يقتضى النظر أن يكتسبه فى غير وقت حاجته ؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يدّخر القوت فى وقت عموم وجوده من كسبه وماله ، وكل شيء محمول عليه . وقد بين ٱبن عباس هذا بقوله : كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القصر . وهذا أصح ما قيل فى ذلك والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٧

(٢) قائله كثير عزة . ومَوزن كمقعد بلد بالجزيرة .

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أى لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أى إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التى لا يتكلمون فيها ولا يؤذن لهم فى الاعتذار والتنصل . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى : « هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ » و « لَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقد قال تعالى : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال له : إن الله عز وجل يقول : « وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان . وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق . قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . وقيل : إن هذا وقت جوابهم «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»(1) وقد تقدم . وقال أبو عثمان : أسكتتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب . وقال الجنيد : أى عذر لمن أعرض عن منعمه وجحده وكفر أياديه ونعمه . و «يوم» بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر؛ أى تقول الملائكة « هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ » . ويجوز أن يكون قوله « انطلقوا » من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطق الكفار . ومعنى اليوم الساعة والوقت . وروى يحيى بن سليمان عن أبى بكر عن عاصم « هَٰذَا يَوْمَ لَا يَنطِقُونَ » بالنصب ورويت عن ابن هرمز وغيره ، فجاز أن يكون مبنيا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع . وهذا مذهب الكوفيين . وجاز أن يكون فى موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم . وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بنى عندهم إذا أضيف إلى مبنى والفعل هاهنا معرب . وقال الفراء فى قوله تعالى « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » الفاء نسق أى عطف على « يؤذن » وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون . ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال :

---

(1) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » بالنصب وكله صواب ؛ ومثله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ » بالنصب والرفع .

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق ، فيتبين المحقّ من المبطل . ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ قال ابن عباس جمع الذين كذّبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبله . رواه عنه الضحاك . ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاوونى وان تجدوا ذلك . وقيل : أي « فَإِن كَانَ لَكُم كَيْدٌ » أي قدرتم على حرب « فَكِيدُونِ » أي حاربونى . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال : يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمدا صلى الله عليه وسلم وتحاربونني فاليوم حاربوني . وقيل : أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم . وقيل : إنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيكون كقول هود « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ » .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غدا ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل في الشعب الثلاث . وفي سورة يس « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ » . ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يتمنون . وقراءة العامة « ظلالٍ » . وقرأ الأعرج والزهري وطلحة « ظُلَلٍ » جمع ظُلّة يعني

فى الجنة . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم غدا هـذا بدل ما يقال للشركين « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » . فـ« كُلُوا وَٱشْرَبُوا » فى موضع الحال من ضمير «المتقين» فى الظرف الذى هـو « فِي ظِلَالٍ » أى هم مسـتقرون « فِي ظِلَالٍ » مقـولا لهم ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نثيب الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم فى الدنيا .

قوله تعـالى : كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيـلًا إِنَّـكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ؛ وهو وعيد وتهديد وهو حال من « المكذبين » أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم : « كلوا وتمتعوا قليـلا » . ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ أى كافرون . وقيل : مكتسبون فعـلا يضركم فى الآخرة من الشرك والمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُـمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المشركين «ٱركعوا» أى صلوا « لا يركعون » أى لا يصلون؛ قاله مجاهد . وقال مقاتل : نزلت فى ثقيف ٱمتنعوا من الصـلاة فنزل ذلك فيهم . قال مقاتل : قال لهم النبى صـلى الله عليه وسـلم "أسلموا" وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا نَنحنى فإنها مَسَبَّة علينا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود" . يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع ، فقال له صبىّ : ياشيخ قم فٱركع . فقام فركع ولم يحاجه بمـا يراه مذهبا ، فقيـل له فى ذلك فقـال : خشيت أن أكون من الذين « إِذَا قِيلَ لَهُـمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » . وقال ٱبن عبـاس : إنمـا يقال لهم هـذا فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . قتادة : هذا فى الدنيا . ٱبن العربى : هذه الآية

حجة على وجوب الركوع و إنزاله ركنا فى الصلاة وقد ٱنعقد الإجماع عليه ، وظنّ قوم أن هذا إنما يكون فى القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب ، وإنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس فى الدنيا ، فمن كان يسجد له يُمكّن(١) من السجود ، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا . وقيل : أى إذا قيل لهم ٱخضعوا للحق لا يخضعون ، فهو عام فى الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة ، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد . وقيل : الأمر بالصلاة أمر بالإيمان ؛ لأنها لا تصح من غير إيمان .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن لم يصدّقوا بالقرآن الذى هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام فبأى شىء يصدّقون . وكرر «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» لمعنى تكرير التخويف والوعيد . وقيل : ليس بتكرار ، لأنه أراد بكل قول منه غير الذى أراده بالآخر ؛ كأنه ذكر شيئا فقال : ويل لمن يكذّب بهذا ، ثم ذكر شيئا آخر فقال : ويل لمن يكذّب بهذا ، ثم ذكر شيئا آخر فقال : ويل لمن يكذّب بهذا . ثم كذلك إلى آخرها . ختمت السورة ولله الحمد .

سورة « عم » مكية وتسمى سورة « النبأ » وهى أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ « عم » لفظ ٱستفهام ؛ ولذلك سقطت منها ألف « ما » ، ليتميز الخبر عن الاستفهام . وكذلك فيم ومم إذا ٱستفهمت . والمعنى عن أى شىء

(١) فى نسخة : تمكن من السجود .

يسأل بعضهم بعضا . وقال الزجاج : أصل « عم » عن ما فأدغمت النون فى الميم ؛ لأنها تشاركها فى الغنة . والضمير فى « يَتَسَاءَلُونَ » لقريش . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » . وقيل : « عم » بمعنى فيم يتشدّد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أى يتساءلون « عن النبإ العظيم » فعن ليس تتعلق بـ«يتساءلون» الذى فى التلاوة؛لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ» كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ«يتساءلون» الذى فى التلاوة، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر . وحسن ذلك لتقدم يتساءلون؛ قاله المهدوى . وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام فى قوله : « عن » مكرر إلا أنه مضمر كأنه قال عمّ يتساءلون أعن النبإ العظيم . فعلى هذا يكون متصلا بالآية الأولى . والنبأ العظيم أى الخبر الكبير . ﴿ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ أى يخالف فيه بعضهم بعضا فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن؛ دليله قوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » فالقرآن نبأ وخبر وقصص وهو نبأ عظيم الشأن . وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين مصدّق ومكذّب . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ثم هدّدهم فقال : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون البعث أحقّ هو أم باطل . و « كَلَّا » ردّ عليهم فى إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن فيوقف عليها . ويجوز أن يكون بمعنى حقّا أو « أَلَا » فيبدأ بها . والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا : والذى يدل عليه قوله عز وجل « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث . ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى حقّا ليعلمون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت . وقال الضحاك : « كَلَّا

سَيَعْلَمُونَ» يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيل : بالعكس أيضا . وقال الحسن : هو وعيد بعد وعيد . وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر ؛ لقوله تعالى : « يَتَسَاءَلُونَ » وقوله : « هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » . وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ دلهم على قدرته على البعث ؛ أى قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة . والمهاد الوطاء والفراش . وقد قال تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » وقرئ « مَهْدًا » ومعناه أنها لهم كالمهد للصبى وهو ما يمهد له فينوم عليه . ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها . ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى أصنافا ذكرا وأنثى . وقيل : ألوانا . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من قبيح وحسن وطويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار فيشكر الفاضل و يصبر المفضول . ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ﴾ « جعلنا » معناه صيرنا ؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين . ﴿ سُبَاتًا ﴾ المفعول الثانى أى راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السبت أى يوم الراحة ؛ أى قيل لبنى إسرائيل : ٱستريحوا فى هذا اليوم فلا تعملوا فيه شيئا . وأنكر ٱبن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سبات . وقيل : أصله التمدّد ؛ يقال : سبتت المرأة شعرها إذا حلته وأرسلته ، فالسبات كالممدود ورجل مسبوت الخلق أى ممدود . وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد فسميت الراحة سبتا .

وقيل : أصله القطع ؛ يقال : سبت شعره سبتا حلقه ؛ وكأنه إذا نام آنقطع عن الناس وعن الأشتغال فالسبات يشبه الموت إلا أنه لم تفارقه الروح . و يقال : سير سبت أى سهل لين ؛ قال الشاعر[1] :

ومَطْوِيَّةِ الأَقْرابِ أمّا نَهارُها * فَسَبْتٌ وأمّا ليلُها فَذَمِيلُ

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى تلبسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبرى . وقال آبن جبير والسدىّ : أى سكنا لكم . ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ فيه إضمار أى وقت معاش أى متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ « مَعَاشًا » على هذا آسم زمان ليكون الثانى هو الأوّل . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف . ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أى سبع سموات محكمات ؛ أى محكمة الخلق وثيقة البنيان . ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ أى وقادا وهى الشمس . وجعل هنا بمعنى خلق ؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذى له وهج ؛ يقال : وهَجَ يهِج وَهْجا ووَهَجا ووَهَجانا . و يقال للجوهر إذا تلألأ توهج . وقال آبن عباس : وهاجا منيرا متلألئا . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد وقتادة : المعصرات الرياح . وقاله آبن عباس . كأنها تعصر السحاب . وعن آبن عباس أيضا أنها السحاب . وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك : أى السحائب التى تنعصر بالماء ولما تمطر بعد ؛ كالمرأة المعصر التى قد دنا حيضها ولم تحض ؛ قال أبو النجم :

[تَمشِي الهُوَيْنا مائِلًا خِمَارُها * قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْقَدْدَنَا إعصارُها][2]

[وقال آخر] :

فَكانَ مِجَنِّى دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِى * ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ

---

(١) هو حميد بن ثور . والسبت السير السريع والذميل السير اللين .

(٢) هذه الزيادة من أبى حيان دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبى النجم وأما البيت الذى بعده فلعمر بن أبى ربيعة .

وقال آخر:(١)

وذى أُشُرٍ كالأُقْحُوانِ يَزِينُهُ * ذِهابُ الصَّبَا والمُعْصِراتُ الرَّوائِحُ

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا إذا أثارت العجاج وهى الأعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء. النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التى تأتى بالمطر معصرات والرياح تلقح السحاب فيكون المطر والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات «مَاءً ثَجَّاجاً» وأصح الأقوال أن المعصرات السحاب كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان بالمعصرات لكان الريح أولى. وفى الصحاح: والمعصرات السحائب تعتصر بالمطر وأُعْصِر القومُ أى أُمْطِروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وَفِيهِ يُعْصَرُونَ» والمُعْصِر الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز:(٢)

جاريةٌ بِسَفَوانَ دارُها * تمشِى الهُوَيْنا ساقِطًا خِمارُها
* قَدْ أَعْصَرَتْ أو قَدْ دَنا إِعْصارُها *

والجمع معاصر، ويقال: هى التى قاربت الحيض؛ لأن الإعصار فى الجارية كالمراهقة فى الغلام. سمعته من أبى الغوث الأعرابى. قال غيره: والمعصر السحابة التى حان لها أن تمطر؛ يقال أَجَنّ الزرع فهو مُجِنّ أى صار إلى أن يُجَنّ وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرّد: يقال سحاب معصر أى ممسك للماء ويعتصر منه شىء بعد شىء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذى يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى فى سورة «يوسف»(٣) والحمد لله. وقال أبو زبيد(٤):

---

(١) هو البعيث كما فى اللسان وروايته للبيت:

وذى أشر كالأقحوان تشوفه * ذهاب الصبا والمعصرات الدوالح

والدوالح السحائب التى أثقلها الماء. الذهاب بكسر الذال: الأمطار الضعيفة. (٢) هو منصور بن مرثد الأسدى.
(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٠٥ (٤) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة.

صـادِيًا يَسْتَغِيثُ غَـيْرَ مُغَاثٍ * ولقَـدْ كانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ

ومنه الْمُعْصِر للجارية التى قد قربت من البلوغ يقال لها مُعْصِرٌ؛ لأنها تحبس فى البيت فيكون البيتُ لها عَصَرًا . وفى قراءة ابن عباس وعكرمة «وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ» والذى فى المصاحف «مِنَ الْمُعْصِرَاتِ» قال أُبَىّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان «مِنَ الْمُعْصِراتِ» أى من السموات . «مَاءً ثَجَّاجًا» صبّابا متتابعا؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . يقال : ثَجَجْت دمه فأنا أَثُجُّه ثَجًّا وقد ثَجّ الدمُ يَثُجّ ثُجُوجًا وكذلك الماء فهو لازم ومتعدّ . والثَّجَّاج فى الآية المُنْصَبُّ . وقال الزجاج : أى الصَّبّاب وهو متعدّ كأنه يَثُجّ نفسه أى يَصُبّ . وقال عَبِيد بن الأبرص :

فثَجَّ أعلاهُ ثم ٱرْتَجَّ أَسْـفَلُهُ * وضَاقَ ذَرْعًا بِحَمْلِ الْمَـاءِ مُنْصاحِ [1]

وفى حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الحج المبرور فقال : "العَجّ والثَّجّ" فالعجّ رفع الصوت بالتلبية والثجّ إراقة الدماء وذبح الهدايا . وقال ابن زيد : ثجّاجا كثيرا . والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أى بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الأَبّ وهو ما تأكله الدواب من الحشيش . ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أى بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ أى ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها ولا واحد له كالأوزاع والأخياف . وقيل : واحد الألفاف لِف بالكسر ولُفّ بالضم . ذكره الكسائى؛ قال :

جَنَّـــةٌ لُفٌّ وعَيْشٌ مُغْـــدِقٌ * ونَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهُـــرْ

وعنه أيضا وأبى عبيدة : لفيف كشريف وأشراف . وقيل : هو جمع الجمع حكاه الكسائى . يقال: جنة لَفَّاء و نبت لَفّ والجمع لُفّ بضم اللام مثل حُمْر [2] ثم يجمع اللُّفّ أَلْفَافًا . الزمخشرى : ولو قيل جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها . ويقال : شجرة لفاء وشجر لَفّ وامرأة

---

(١) البيت فى وصف المطر ومنصاح : منشق بالماء .

(٢) قوله : والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء بدليل قوله : مثل حمر لأنه جمع حمراء وأما لف بالكسر والفتح فجمعه ألفاف .

لفاء أي غليظة الساق مجتمعة اللحم . وقيل : التقدير ونخرج به جنات ألفافا فحذف لدلالة الكلام عليه . ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة[١] ، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كانَ مِيقَاتًا﴾ أي وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين ؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب . وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي إلى موضع العرض ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي أمما كل أمة مع إمامهم . وقيل : زمرا وجماعات الواحد فوج . ونصب يوما بدلا من اليوم الأول . وروى من حديث معاذ بن جبل قلت : يا رسول الله ! أرأيت قول الله تعالى «يوم يُنْفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يامعاذ لقد سألت عن أمر عظيم " ثم أرسل عينيه باكيا ثم قال : " يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبدل صورهم فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلوا وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من النار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القطران لاصقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس — يعني النمام — وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحرام والمكس وأما المنكسون

(٢) في نسخة من الأصل : متقاربة الأغصان ... الخ .

رءوسهم ووجوههم فأكلة الربا والعمى من يجور فى الحكم والصم البكم الذين يعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم والمقطعة أيديهم وأرجلهم فالذين يؤذون الجيران والمصلّبون على جذوع النار فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات و يمنعون حق الله من(١) أموالهم والذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ".

قوله تعالى : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أى لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » .وقيل: تقطعت فكانت قطعا كالأبواب. فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف . وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبوابا . وقيل : أبوابها طرقها . وقيل : تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبوابا . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء بابا لعمله و بابا لرزقه فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب . وفى حديث الإسراء : "ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففُتح لنا " . ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أى لا شيء كما أن السّراب كذلك يظنه الرائى ماء وليس بماء. وقيل : « سُيِّرَت » نسفت من أصولها . وقيل : أزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

(١) وفى الدر المنثور: حق الله والفقراء . الخ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مفعال من الرَّصد والرَّصد كل شيء كان أمامك . قال الحسن : إن على النار رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه ، فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجئ بجواز حُبِس . وعن سفيان رضى الله عنه قال : عليها ثلاث قناطر . وقيل « مِرْصَادًا » ذات أرصاد على النسب أى ترصد من يمرّ بها . وقال مقاتل : محبسا . وقيل : طريقا وممرّا فلا سبيل إلى الجنة حتى يقطع جهنم . وفى الصحاح : والمرصاد الطريق . وذكر القشيرىّ : أن المرصاد المكان الذى يَرْصد فيه الواحدُ العدو ، نحو المِضْمار الموضع الذى تُضَمَّر فيه الخيل . أى هى معدّة لهم ؛ فالمرصاد بمعنى المحل ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم . وذكر الماوردىّ عن أبى سنان أنها بمعنى راصدة تجازيهم بأفعالهم . وفى الصحاح : الراصد الشيء الراقب له ؛ تقول : رَصَدَه يَرْصُده رَصْدا ورَصَدا ، والتَّرَصُّد . الترقّب والمَرْصَد موضع الرصد . الأصمعى : رصَدته أرصُده ترقبته وأرصدته أعددت له . والكسائى مثله .

قلت : فجهنم معدّة مترصِّدة متفعّل من الرّصد وهو الترّقب ؛ أى هى متطلعة لمن يأتى . والمِرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمغيار فكأنه يكثر من جهنم آنتظار الكفار . ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ بدل من قوله : « مِرْصَادًا » والمآب المرجع أى مرجعا يرجعون إليها ؛ يقال : آب يؤوب أوبة إذا رجع . وقال قتادة : مأوى ومنزلا . والمراد بالطاغين من طغى فى دينه بالكفر أو فى دنياه بالظلم .

قوله تعالى : ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى ماكثين فى النار مادامت الأحقاب وهى لا تنقطع ، فكلما مضى حُقُبٌ جاء حُقُبٌ . والحُقُب بضمتين الدهر والأحقاب الدهور . والحقبة بالكسر السنة والجمع حِقَب ؛ قال متمم بن نُوَيرة التَّميمى :

وكُنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَـةً * مِنَ الدَّهْرِ حتّى قيلَ لن يتصَدّعَا
فلمّا تفرّقْنا كأنّى ومالِكاً * لِطُولِ آجْتِماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعا

والحُقْب بالضم والسكون ثمانون سنة . وقيل : أكثر من ذلك وأقل على ما يأتى والجمع أحقاب . والمعنى فى الآية ؛ لابثين فيها أحقاب الآخرة التى لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه ؛ إذ فى الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة ؛ أى أيام بعد أيام إلى غير نهاية ؛ وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب ونحوه . وذكر الأحقاب لأن الحقب كان أبعد شيء عندهم ، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها ، وهى كناية عن التأبيد أى يمكثون فيها أبدا . وقيل : ذكر الأحقاب دون الأيام ؛ لأن الأحقاب أهول فى القلوب وأدل على الخلود . والمعنى متقارب ؛ وهذا الخلود فى حق المشركين . ويمكن حمل الآية على العصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب . وقيل : الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغسّاق، فإذا ٱنقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب؛ ولهذا قال : «لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً . إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً» و «لابثين» ٱسم فاعل من لَبِث ويقويه أن المصدر منه اللبث بالإسكان كالشّرب . وقرأ حمزة والكسائى «لَبِثِين» بغير ألف وهو ٱختيار أبى حاتم وأبى عبيد وهما لغتان ؛ يقال : رجل لابثٌ ولبِث مثل طَمِعٌ وطامِعٌ وفَرِهٌ وفارِهٌ . ويقال : هو لَبِثٌ بمكان كذا أى قد صار اللبث شأنه ، فشبّه بما هو خلقة فى الإنسان نحو حَذِرٌ وفَرِقٌ؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خلقة فى الشيء فى الأغلب وليس كذلك ٱسم الفاعل من لَابَث . والحُقْب ثمانون سنة فى قول ٱبن عمر وٱبن محيصن وأبى هريرة؛ والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما واليوم ألف سنة من أيام الدنيا ؛ قاله ٱبن عباس . وروى ٱبن عمر هذا مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو هريرة : والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما كل يوم مثل أيام الدنيا . وعن ٱبن عمر أيضا : الحُقْب أربعون سنة . السدى : سبعون سنة . وقيل : إنه ألف شهر . رواه أبو أُمامة مرفوعا . بشير بن كعب : ثلثمائة سنة . الحسن : الأحقاب لا يدرى أحدكم هى ولكن ذكروا أنها مائة حُقْب، والحُقْب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة مما تعدون . وعن أبى أُمامة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الحُقْب الواحد ثلاثون ألف سنة" ذكره المهدوى . والأوّل الماوردى . وقال قُطْرب : هو الدهر الطويل غير المحدود . وقال عمر بن الخطاب

رضى الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا الحُقب بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة مما تعدون فلا يتكلنّ أحدكم على أنه يخرج من النار" . ذكره الثعلبيّ . القُرَظيّ : الأحقاب ثلاثة وأربعون حُقبا كل حُقب سبعون خريفا كل خريف سبعمائة سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة والتحديد فى الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرناه أوّلا ؛ أى لابثين فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع . وقال ابن كَيْسان : معنى « لَابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا » لا غاية لها ولا انتهاء فكأنه قال أبدا . وقال ابن زيد ومقاتل : إنها منسوخة بقوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » يعنى إن العدد قد انقطع والخلود قد حصل .

قلت : وهذا بعيد ؛ لأنه خبر وقد قال تعالى : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ » على ما تقدم (١) . هذا فى حقّ الكفار فأما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم . وقيل : المعنى « لَابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا » أى فى الأرض ؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير فى « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا » لجهنم . وقيل : واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبة ؛ قال :

فإنْ تَنْأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِها ＊ فأنْتَ بِما أَحْدَثْتَهُ بِالمُجَرِّبِ

وقال الكُمَيْت (٢) :

＊ مَرَّ لها بَعْدَ حِقْبَةٍ حِقَبُ ＊

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦

(٢) صدر البيت : ＊ ولا حمول غدت ولا دمن ＊

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الأحقاب ﴿ بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ البرد النوم فى قول أبى عبيدة وغيره؛ قال الشاعر (١) :

وَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ * وإن شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدًا

وقاله مجاهد والسدّى والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى ؛ وأنشدوا قول الكندى :

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَىَّ فَصَدَّنِى * عَنْهَا وعَنْ تَقْبِيلِهَا الْبَرْدُ

يعنى النوم . والعرب تقول : منع البَرْدُ البَرْدَ يعنى أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل فى الجنة نوم . فقال : "لا ؛ النوم أخو الموت والجنة لاموت فيها" فكذلك النار ؛ وقد قال تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » وقال ٱبن عباس : البَرْد بَرْد الشَّراب . وعنه أيضا : البَرْد النوم والشَّراب الماء . وقال الزجاج : أى لايذوقون فيها بَرْدَ ريح ولا ظِلٍّ ولا نَوْم بجعل البرد برد كل شىء له راحة، وهذا برد ينفعهم فأما الزَّمْهَرِير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به . وقال الحسن وعطاء وٱبن زيد : بردا أى رَوْحا وراحة ؛ قال الشاعر (٢) :

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ * ولا الْفَيْءُ أَوْقَاتَ (٣) الْعَشِىِّ تَذُوقُ

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا » جملة فى موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان والعامل فيه « لَابِثِينَ » أو « لَبِثِينَ » على تعدية فَعِل . ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ٱستثناء منقطع فى قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه . والحميم الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة . وقال ٱبن زيد : الحميم دموع أعينهم تجمع فى حياض ثم يسقونه . قال النحاس : أصل الحميم الماء الحار ومنه ٱشتق الحَمَّام ومنه الحُمَّى ومنه «وَظِلٍّ مِنْ

(١) هو العرجى عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . ونسب إلى العرج وهو موضع قبل الطائف كان ينزل به . والنقاخ كغراب : الماء الطيب .

(٢) قائله حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن أمرأة .

(٣) كذا فى الأصل وفى كتب اللغة مادة « فيأ » ولا الفىء من برد العشى ... الخ .

يحموم » إنما يراد به النهاية فى الحر . والغسّاق صديد أهل النار وقيحهم . وقيل : الزمهرير .
وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين وقد مضى فى « ص » القول فيه (١) . ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ أى موافقا لأعمالهم . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ فالوفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى المقاتلة . و « جزاء » نصب على المصدر أى جازيناهم جزاءً وافق أعمالهم ؛ قاله الفراء والأخفش . وقال الفراء أيضا : هو جمع الوِفْق والوفْقُ واللِّفْق واحدٌ . وقال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ ﴾ أى لا يخافون ﴿ حِسَابًا ﴾ أى محاسبة على أعمالهم . وقيل : معناه لا يرجون ثواب حساب . الزجاج : أى إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى بما جاءت به الأنبياء . وقيل : بما أنزلنا من الكتب . وقراءة العامة « كِذّابا » بتشديد الذال وكسر الكاف على كَذَّب أى كذّبوا تكذيبا كبيرا . قال الفراء : هى لغة يمانية فصيحة ؛ يقولون : كذّبت [به] (٢) كِذّابا وخرّقت القميص خِرّاقا ؛ وكل فِعْل فى وزن فَعَّل فمصدره فِعّال مشدد فى لغتهم ؛ وأنشد بعض الكلابيين :

لَقَدْ طَالَ ما ثَبَّطْتَنِى عن صَحابَتِى * وعن حِوَجٍ قِضّاؤها مِنْ شِفَائِيَا

وقرأ على رضى الله عنه « كِذَابًا » بالتخفيف وهو مصدر أيضا . وقال أبو على : التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ؛ كقول الأعشى :

فَصَدَقْتَهَا وكَذَبْتَهَا (٣) * والمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

أبو الفتح : جاءا جميعا مصدر كَذَب وكَذَّبَ جميعا . الزمخشرى : « كِذَابًا » بالتخفيف مصدر كَذَب ؛ بدليل قوله :

فَصَدَقْتَهَا وكَذَبْتَهَا * والمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢١ فما بعدها .

(٢) الزيادة من الفراء . (٣) قال الشهاب : وضمير صدقتها وكذبتها للنفس والمراد أنه يصدق نفسه تارة بأن يقول إن أمانيها محققة وتكذيبها بخلافه أو على العكس .

وهو مثل قوله : « أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » يعنى وكذّبوا بآياتنا فكذبوا كذابا . أو تنصبه بـ « كَذَّبُوا » ، لأنه يتضمن معنى كذبوا ؛ لأن كل مكذّب بالحـق كاذب ؛ لأنهم إذا كانوا عنـد المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة . وقـرأ ابن عمر « كُذَّابا » بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم . ونصبه على الحال الزمخشرى . وقد يكون الكُذّاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، يقال : رجل كُذّاب كقولك حُسّـان وبُخّال فيجعله صـفة لمصدر « كَذَّبُوا » أى تكذيبا كُذّابا مفرطـا كذبُهُ . وفى الصحاح : وقوله تعالى : «وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا» وهو أحد مصادر المُشَدّد؛لأن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم وعلى فِعّال مثل كِذّاب وعلى تفعلة مثل توصية وعلى مُفَعَّل؛ مثل «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ «كُلَّ» نصب بإضمار فعل يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » أى وأحصينا كل شىء أحصيناه . وقرأ أبو السَّمّال «وَكُلُّ شَيْءٍ» بالرفع على الابتداء «كِتَابًا» نصب على المصـدر ؛ لأن معنى أحصينا كتبنا أى كتبناه كتابا . ثم قيـل : أراد به العلم فإن ما كتب كان أبعد من النسيان . وقيل : أى كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة . وقيل : أراد ما كتب على العباد من أعمالهم . فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليـله قوله تعـالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ » . ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ قال أبو بَرْزَة : سألت النبى صلى الله عليـه وسلم عن أشد آية فى القرآن فقال "قوله تعـالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » " أى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » .

قوله تعـالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذكر جزاء من آتقى مخالفة أمر الله « مَفَازًا » موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار . ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها مفازة تفاؤلا بالخلاص منها . ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » إن للمتقين حدائق؛ جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه؛ يقال أحدق به أي أحاط . والأعناب جمع عنب أي كروم أعناب فحذف. ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعب جمع كاعِبٍ وهي الناهد؛ يقال : كَعَبَت الجارية تَكْعُب كُعُوبًا وكَعَّبت تُكَعِّب تكعيبا ونَهَدت تَنْهُد نُهودا. وقال الضحاك : الكواعب العذارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم :

وكَمْ مِنْ حَصَانٍ قد حَوَيْنا كَرِيمَةٍ * ومِنْ كاعِبٍ لم تَدْرِ ما البُؤْسُ مُعْصِر

والأتراب الأقران في السنّ. وقد مضى في سورة «الواقعة»(١) الواحد ترب. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادة وآبن زيد وآبن عباس : مترعة مملوءة؛ يقال : أدهقت الكأس أي ملأتها وكأس دهاق أي ممتلئة؛ قال :

أَلا ٱسْقِنِي صِرْفًا سَقَانِي السَّاقِي * مِنْ مائِها بِكَأْسِهِ الدِّهَاقِ

وقال خداش بن زهير :

أَتانا عامِرٌ يَبْغِي قِرانا * فأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقًا

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وآبن عباس أيضا : متتابعة يتبع بعضها بعضا؛ ومنه آدّهقت الحجارةُ آدِّهَاقًا وهو شدّة تلازمها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتتابع كالمتداخل. وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم : صافية؛ قال الشاعر :

لَأَنْتِ إلى الفُؤادِ أَحَبُّ قُرْبًا * مِنَ الصَّادِي إلى كَأْسٍ دِهَاقِ

وهو جمع دهقٍ(٢) وهو خشبتان [يُغمَز](٣) بهما [الساق]. والمراد بالكأس الخمر فالتقدير وخمرا ذات دهاق أي عصرت وصفيت؛ قاله القشيري. وفي الصحاح : وأَدْهقتُ الماء أي أفرغته

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢١١ (٢) كذا في الأصل . (٣) التصحيح من كتب اللغة وفي الأصول : خشبتان يعصر بهما .

إفراغا شديدا . قال أبو عمرو والدَّهَق : بالتحريك ضرب من العذاب . وهو بالفارسية أشْكَنْجه . المبرد : والمدهوق المعذَّب بجميع العذاب الذى لا فرجة فيه . ابن الأعرابى : دَهَقت الشىءَ كَسرته وقَطعته ؛ وكذلك دَهْدَقته ؛ وأنشد لحُجْر بن خالد :

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْبَاعِ والنَّدَى * وبَعْضُهم تَغْلِى بِذَمٍّ مَناقِعُه[(1)]

ودَهْمَقْته بزيادة الميم مثله . وقال الأصمعى : الدَّهْمَقة لِينُ الطعام وطيبُه ورِقّته وكذلك كل شىء لَيِّن ؛ ومنه حديث عمر : لو شئت أن يُدَهْمَق لى لفعلت ولكن الله عاب قوما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ اللغو الباطل وهو ما يلغى من الكلام ويطرح ؛ ومنه الحديث : "إذا قلتَ لصاحبك أَنْصِت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوت" وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم يتكلموا بلغو ؛ بخلاف أهل الدنيا . « وَلَا كِذَّابًا » تقدم ؛ أى لا يكذّب بعضهم بعضا ولا يسمعون كذبا . وقرأ الكسائى « كِذَابًا » بالتخفيف من كَذَبت كِذَابا أى لا يتكاذبون فى الجنة . وقيل : هما مصدران للتكذيب وإنما خففها ها هنا لأنها ليست بمقيد بفعل يصير مصدرا له ، وشدّد قوله : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا » لأن كَذَّبوا يقيد المصدر بالكِذّاب . ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ نصب على المصدر . لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره جزاء وكذلك ﴿ عَطَاءً ﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد . أى أعطاهم عطاء . ﴿ حِسَابًا ﴾ أى كثيرا ؛ قاله قتادة ؛ يقال : أَحْسَبْت فلانا أى كثّرت له العطاء حتى قال حَسْبِى . قال[(2)] :

وَنُقْفِى وَلِيدَ الحَىِّ إنْ كان جائعًا * ونُحْسِبُهُ إنْ كان ليس بجائِع

---

(١) يروى هكذا فى اللسان مادة « دهق » . وفى الأصول « مراجله » . والمناقع : القدور الصغار واحدها منقع ومنقعة .

(٢) قائله امرأة من بنى قشير . ونقفيه أى نؤثره بالقفية وهى ما يؤثر به الضيف والصبى .

وقال القتبي : ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبي . وقال الزجاج : «حِسَاباً» أى ما يكفيهم . وقاله الأخفش . يقال : أَحْسَبني كذا أى كفانى . وقال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . مجاهد : حسابا لما عملوا فالحساب بمعنى العَد . أى بقدر ما وجب له فى وعد الربّ فإنه وعد للحسنة عشرا ، ووعد لقوم بسبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار ؛ كما قال تعالى : «إِنَّمَا يُوَفَّى الصابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» . وقرأ أبو هاشم «عَطَاءً حَسَّاباً» بفتح الحاء وتشديد السين على وزن فَعّال أى كَفَافا ؛ قال الأصمعي : تقول العرب حسَّبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

* إذا أتاهُ ضَيفُه يُحَسِّبُه *

وقرأ ابن عباس «حَسَناً» بالنون .

قوله تعالى : رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضَّل عن عاصم «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف «الرَّحْمَنُ» خبره . أو بمعنى هو ربُّ السموات ويكون «الرَّحْمَنُ» مبتدأ ثانيا . وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض نعتا لقوله : «جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ» أى جزاء من ربك ربِّ السموات الرحمنِ . وقرأ ابن عباس وعاصم وحمزة والكسائى «رَبِّ السَّمَوَاتِ»

خفضا على النعت « الرَّحْمَنُ »(١) رفعا على الابتــداء أى هو الرحمن . وآختاره أبو عبيد وقال : هذا أعدلها ؛ خفض « رب » لقربه من قوله « مِنْ رَبِّكَ » فيكون نعتا له ورفع « الرّحمن » لبعــده منه على الاستئناف وخبره ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه . وقال الكسائى : « لَا يَمْلِكُونَ مِنْــهُ خِطَابًا » بالشفاعة إلا بإذنه . وقيــل : الخطاب الكلام؛ أى لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه ؛ دليله : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : أراد الكفار « لَا يَمْلِكُونَ مِنْــهُ خِطَابًا » فأما المؤمنون فيشفعون .

قلت : بعد أن يؤذن لهم ؛ لقوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا » .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ « يَوْمَ » نصب على الظرف؛ أى يوم لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح . وآختلف فى الروح على أقوال ثمانية : الأول — أنه ملك من الملائكة . قال آبن عباس : ماخلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفًّا وقامت الملائكة كلهم صفًّا فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم . ونحو منه عن آبن مسعود؛ قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال . وهو حِيَال السماء الرابعة(٢) يسبح الله كل يوم آثنتى عشرة ألف تسبيحة ؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكا ، فيجىء يوم القيامة وحده صفًّا وسائر الملائكة صفًّا . الثانى — أنه جبريل عليــه السلام . قاله الشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وعن آبن عباس : إن عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار الســبع ، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل فيزداد نورا على نوره وجمالا على جماله وعظما على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

(١) هــذه القراءة ذكرها القرطبى وآبن عطية ولم يذكرا قراءة عاصم بالجر فيهما وهى رواية حفص ، وقد ذكرها أبو حيان والألوسى ، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثا ؛ رفع فيهما وجر فيهما وجر « رب » ورفع « الرحمن » .

(٢) فى نسخة : السماء السابعة .

تقع من ريشه سبعين ألف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيتَ المعمور والكعبةَ سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة . وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تعالى تُرْعَد فَرَائِصُه ، يخلق الله تعالى من كل رِعْدة مائة ألف ملك ، فالملائكة صفوف بين يدى الله تعالى منكسة رءوسهم فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا أنت ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » فى الكلام « وَقَالَ صَوَابًا » يعنى قول : « لا إله إلا أنت » . والثالث — روى آبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الروح فى هذه الآية جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل يأكلون الطعام " ثم قرأ « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا » فإن هؤلاء جند وهؤلاء جند وهذا قول أبى صالح ومجاهد . وعلى هذا هم خلق على صورة بنى آدم كالناس وليسوا بناس . الرابع — أنهم أشراف الملائكة ؛ قاله مقاتل بن حيان . الخامس — أنهم حفظة على الملائكة ؛ قاله آبن أبى نجيح . السادس — أنهم بنو آدم ؛ قاله الحسن وقتادة . فالمعنى ذوو الروح . وقال العوفى والقرظى : هذا مما كان يكتمه آبن عباس ؛ قال : الروح خلق من خلق الله على صور بنى آدم وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح . السابع — أرواح بنى آدم تقوم صفًّا فتقوم الملائكة صفًّا وذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجساد ؛ قاله عطية . الثامن — أنه القرآن ؛ قاله زيد بن أسلم وقرأ « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . و « صَفًّا » مصدر أى يقومون صفوفا . والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع كالعَدْل والصَّوْم . ويقال ليوم العيد : يوم الصفّ . وقال فى موضع آخر : « وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » هذا يدل على الصّفوف وهذا حين العرض والحساب . قال معناه القتبى وغيره . وقيل : يقوم الروح صفًّا والملائكة صفًّا فهم صفّان . وقيل : يقوم الكل صفًّا واحدا . ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أى لا يشفعون ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ فى الشفاعة ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ يعنى حقًّا ؛ قاله الضحاك ومجاهد . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : يشفعون لمن قال لا إله إلا الله .

وأصل الصواب السداد من القول والفعل وهو من أصاب يصيب إصابة ؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة . وقيل : «لَا يَتَكَلَّمُونَ» يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفًّا لا يتكلمون هيبة وإجلالا « إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ » في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه . وقال الحسن : إن الروح تقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة ولا النار إلا بالعمل . وهو معنى قوله : « وَقَالَ صَوَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أي الكائن الواقع ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ أي مرجعا بالعمل الصالح ؛ كأنه إذا عمل خيرا ردّه إلى الله عز وجل ، وإذا عمل شرا عده منه . وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : " والخير كله بيديك والشر ليس إليك " . وقال قتادة : « مآبا » سبيلا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يخاطب كفار قريش ومشركي العرب ؛ لأنهم قالوا : لا نبعث . والعذاب عذاب الآخرة وكل ما هو آتٍ فهو قريب ، وقد قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » قال معناه الكلبي وغيره . وقال قتادة : عقوبة الدنيا ؛ لأنها أقرب العذابين . قال مقاتل : هي قتل قريش ببدر . والأظهر أنه عذاب الآخرة وهو الموت والقيامة ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة ، وإن كان من أهل النار رأى الخزى والهوان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ بين وقت ذلك العذاب ؛ أي أنذرناكم عذابا قريبا في ذلك اليوم وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه أي يراه . وقيل : ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى . والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن ؛ أي يجد لنفسه عملا فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . ولما قال : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن . وقيل : المرء ها هنا أُبيّ بن خلف وعُقْبة بن أبي مُعَيط « ويقولُ الْكَافِرُ » أبو جهل . وقيل : هو عام في كل أحد وإنسان يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب . وقال مقاتل : نزلت قوله « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ» في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ

تُرَابًا ﴾ فى أخيه الأسود بن عبد الأسد . وقال الثعلبى : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب وآفتخر بأنه خلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب تمنى أنه يكون بمكان آدم فـ « يَقُولُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » قال : ورأيته فى بعض التفاسير للقشيرى أبى نصر . وقيل : أى يقول إبليس ياليتنى خلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم . وعن آبن عمر : إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرضُ مدّ الأَدِيم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القِصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجَمّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها : كونى ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر: « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ونحوه عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة مجودا والحمد لله . ذكر أبو جعفر النحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا عبد الرزاق قال حدثنا معمر ، قال أخبرنى جعفر بن برقان الجزرى عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان ثم يقال للبهائم والطير كونى ترابا فعند ذلك « يَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال قوم : « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أى لم أبعث كما قال : « يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ » . وقال أبو الزِّناد : إذا قُضِى بين الناس ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم ولمؤمنى الجنّ عودوا ترابا فيعودون ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال ليث بن أبى سليم : مؤمنو الجنّ يعودون ترابا . وقال عمر بن عبد العزيز والزهرى والكلبى ومجاهد : مؤمنو الجنّة حول الجَنَّة فى رَبَضٍ ورحاب وليسوا فيها . وهذا أصح وقد مضى فى سورة « الرحمن » (١) بيان هذا وأنهم مكلّفون يثابون ويعاقبون فهم كبنى آدم ، والله أعلم بالصواب .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٩

سورة النازعات

مكية بإجماع . وهى خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾
وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا
كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ
زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها على أن القيامة حقّ . و «النَّازِعَاتِ» الملائكة التى تنزِع أرواح الكفار؛ قاله علىّ رضى الله عنه، وكذا قال ٱبن مسعود وٱبن عباس ومسروق ومجاهد: هى الملائكة تنزِع نفوس بنى آدم. قال ٱبن مسعود: يريد أنفس الكفار ينزِعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نزعًا كالسَّفُّود ينزع من الصُّوف الرَّطْب، ثم يُغرِقها أى يرجعها فى أجسادهم، ثم ينزِعها؛ فهذا عمله بالكفّار . وقاله ٱبن عباس . وقال سعيد بن جبير : نُزِعت أرواحُهم ثم غُرِّقت ثم حُرِّقت ثم قُذِف بها فى النار . وقيل : يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق. وقال السدى : و «النازِعاتِ» هى النفوس حين تغرق فى الصدور. مجاهد : هى الموت ينزِع النفوس . الحسن وقتادة : هى النجوم تنزِع من أفق الى أفق؛ أى تذهب من قولهم: نزع اليه أى ذهب، أو من قولهم: نزعت الخيل أى جرت . «غَرْقًا»

أى إنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقاله أبو عبيدة وآبن كيسان والأخفش . وقيل : النازعات القسىّ تنزع بالسهام ؛ قاله عطاء وعكرمة . و «غَرْقًا» بمعنى إغراقا ؛ وإغراق النازع فى القوس أن يبلغ غاية المدّ حتى ينتهى إلى النَّصْل . يقال : أغرق فى القوس أى آستوفى مدّها ، وذلك بأن تنتهى إلى العَقَب الذى عند النَّصْل الملفوف عليه . والآستغراق الآستيعاب . ويقال لقشرة البيضة الداخلة : « غِرْقِىء » . وقيل : هم الغزاة الرماة .

قلت : هو والذى قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِىّ فالمراد النازعون بها تعظيما لها ؛ وهو مثل قوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » والله أعلم . وأراد بالإغراق المبالغة فى النزع وهو سائغ فى جميع وجوه تأويلها . وقيل : هى الوحش تَنزِع (١) من الكلأ وتَنفر . حكاه يحيى بن سلّام . ومعنى « غَرْقًا » أى إبعادا فى النزع .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ قال آبن عباس : يعنى الملائكة تَنشِط نَفْس المؤمن فتقبضها كما يُنشَط العِقَال من يد البعير إذا حُلّ عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال : والذى سمعت من العرب أن يقولوا أنْشِطت وكأنما أُنْشِط من عِقَال . وربطها نَشَطها والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل فى يد البعير فقد نَشَطته فأنت ناشط ، وإذا حللته فقد أَنْشطته وأنت مُنشِط . وعن آبن عباس أيضا : هى أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَط للخروج ؛ وذلك أنه مامن مؤمن [يَحضُره الموت] (٢) إلا وتُعرَض عليه الجنة قبل أن يموت فيرى فيها ما أعَدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين فهم يَدْعونه إليها فنفسه إليهم نَشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم . وعنه أيضا قال : يعنى أنفس الكفار والمنافقين تَنْشَط كما يُنشَط العَقَبُ ، الذى يعقب به السهم ، والعَقَب بالتحريك العَصَب الذى تُعمَل منه الأوتار ، الواحدة عَقَبة ؛ تقول منه : عَقَب السَّهمَ والقَدَحَ والقوسَ عَقْبا إذا لوى شيئا منه عليه . والنَّشْط الجذب بسرعة ومنه الأُنْشوطة عقدة يسهل آنحلالها إذا جُذبت مثل عقدة التِّكّة . وقال أبو زيد : نشطت

(١) فى نسخ الأصل : تنزع من الكلأ . وفى البحر : تنزع الى ... الخ .
(٢) الزيادة من تفسير الثعلبى .

الحبلَ أَنْشُطه نَشْطا عقدته بأُنْشُوطة ، وأَنْشَطته أى حللته ، وأَنْشطت الحبلَ أى مددته حتى ينحل . وقال الفراء : أُنشِطَ العقالُ أى حُلّ ونُشِط أى ربط الحبل فى يديه . وقال الليث : أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أى أوثقته ، وأَنشطتُ العِقالَ أى مددت أُنْشوطته فآنحلت . قال : ويقال نَشَط بمعنى أَنْشَط لغتان بمعنًى ؛ وعليه يصح قول آبن عباس المذكور أوّلا . وعنه أيضا : الناشطات الملائكة لنشاطها تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان . وعنه أيضا وعن علىّ رضى الله عنهما : هى الملائكة تَنْشِط أرواحَ الكفّار مابين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم نَشْطا بالكَرْب والغمّ كما تنشط الصّوف من سُفّود الحديد وهى من النَّشْط بمعنى الجَذْب ؛ يقال : نَشَطتُ الدّلو أَنشِطها بالكسر وأَنشُطها بالضم أى نزعتها . قال الأصمعى : بئر أنشاط أى قريبة القعر تخرج الدّلو منها بجذبة واحدة . وبئر نَشُوط ؛ قال : وهى التى لا يخرج منها الدّلو حتى تُنْشَطَ كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نَفْس الإنسان . السدى : هى النفوس حين تَنشط من القدمين . وقيل : النازعات أيدى الغزاة أو أنفسهم تَنزِع القسىّ بإغراق السهام وهى التى تنشط الأوهاق (١). عكرمة وعطاء : هى الأوهاق تنشط السهام . وعن عطاء أيضا وقتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تَنشِط من أفق إلى أفق أى تذهب . وكذا فى الصحاح . « والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » يعنى النجوم من بُرْج إلى بُرْج كالثور الناشط من بلد إلى بلد . والهموم تَنشِط بصاحبها؛ قال هِميان بن قُحافة :

أَمْسَتْ هُمُومِى تَنْشِطُ المَنَاشِطَا * الشَّامَ بِى طَوْرًا وطَوْرًا وَاسِطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضا : الناشطات هى الوحش حين تَنشط من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تنشط الإنسان من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان :

* أمست همومى ... * البيت

وقيل : « والنَّازِعَاتِ » للكافرين « والنَّاشِطَاتِ » للؤمنين ، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق والنّزع جَذْبٌ بشدّة والنَّشْط جذب برِفْق . وقيل : هما جميعا للكفار والآيتان بعدهما للؤمنين عند فراق الدنيا .

---

(١) جمع وهق بحركتين وقد يسكن الحبل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تندّ ، ويقال فى طرفه أنشوطة .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين . الكلبي : هى الملائكة تقبض أرواح المؤمنين ، كالذى يسبح فى الماء فأحيانا يَنْغَمِس وأحيانا يرتفع ، يسلّونها سَلًّا رفيقا بسهولة ثم يدعونها تستريح . وقال مجاهد وأبو صالح : هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ؛ كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع فى جريه . وعن مجاهد أيضا : الملائكة تسبح فى نزولها وصعودها . وعنه أيضا : السابحات الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل : هى الخيل الغزاة ؛ قال عنترة :

وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسْـ　＊　ـبَحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ سَبْحَا

وقال آمرؤ القيس :

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى　＊　أَثَرْنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرَكَّلِ (١)

قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها وكذا الشمس والقمر ؛ قال الله تعالى : « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . عطاء : هى السفن تسبح فى الماء . آبن عباس : السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج .

قوله تعالى : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : هى الملائكة تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء عليهم السلام . وقاله مسروق ومجاهد . وعن مجاهد أيضا وأبى روق : هى الملائكة سبقت آبن آدم بالخير والعمل الصالح . وقيل : تسبق بنى آدم إلى العمل الصالح فتكتبه . وعن مجاهد أيضا : الموت يسبق الإنسان . مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . آبن مسعود : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته . ونحوه عن الرُّبيع قال : هى النفوس تسبق بالخروج عند الموت . وقال قتادة والحسن ومَعْمَر : هى النجوم يسبق بعضها بعضا فى السير . عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل : يحتمل أن تكون

---

(١) مسح : يصب الجرى . الونى : الفتور . الكديد : الموضع الغليظ . المركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله الماوردى . وقال الجرجانى : ذكر « فالسَّابِقَاتِ » بالفاء لأنها مشتقة من التى قبلها ؛ أى واللائى يسبحن فيسبقن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم يكن القيام سببا للذهاب .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال القشيرى : أجمعوا على أن المراد الملائكة . وقال الماوردى فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور . والقول الثانى هى الكواكب السبعة ، حكاه خالد بن مَعْدان عن معاذ بن جبل . وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها . الثانى تدبير ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال . وحكى هذا القول أيضا القشيرى فى تفسيره ، وأن الله تعالى علّق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها و إن كان من الله ، كما يسمى الشيء بٱسم ما يجاوره . وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله ٱبن عباس وقتادة وغيرهما . وهو إلى الله جل ثناؤه ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » وكما قال تعالى : « فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » يعنى جبريل نزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذى أنزله . وروى عطاء عن ٱبن عباس : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وٱسمه عزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقَطْر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس فى البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل و بينه و بين العرش مسيرة خمسمائة عام . وقيل : أى وُكِّلوا بأمور عرّفهم الله بها . ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لنا ذلك إلا به عز وجل . وجواب القسم مضمر كأنه قال : والنازعات وكذا وكذا لتبعثُنّ ولتحاسبُنّ أضمر لمعرفة السامعين

بالمعنى ؛ قاله الفراء . ويدل عليــه قوله تعالى : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِـرَةً » ألست ترى أنه كالجواب لقولهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً » نبعث فآكتفى بقوله : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً » . وقال قوم : وقع القسم على قوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِـبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » وهــذا آختيار الترمذى آبن على . أى فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون «لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى» ولكن وقع القسم على ما فى السورة مذكورا ظاهرا بارزا أحرى وأقمن من أن يؤتى بشىء ليس بمذكور فيها . قال آبن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : جواب القسم «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى» لأن المعنى قد أتاك . وقيل : الجواب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ على تقدير ليوم ترجف فحذف اللام . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقا . وقال السجستانى : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . آبن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يفتتح بهـا الكلام والأول الوجه . وقيل : إنمـا وقع القسم على أن قلوب أهل النـار تجف وأبصارهم تخشع فآنتصـاب « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » على هــذا المعنى ولكن لم يقع عليه . قال الزجاج : أى قلوب واجفة يوم ترجف . وقيــل : آنتصب بإضمار آذكر . و « ترجف » أى تضطرب والراجفة أى المضطربة كذا قال عبد الرحمن زيد ؛ قال : هى الأرض ، والرادفة الساعة . مجاهــد : الراجفة الزلزلة ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ الصيحة . وعنــه أيضا وآبن عبـاس والحسن وقتادة : هما الصيحتان . أى النفختان أما الأولى فتميت كل شىء بإذن الله تعـالى ، وأما الثـانية فتحيي كل شىء بإذن الله تعالى . وجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينهما أربعون سنة " وقال مجاهد أيضا : الرادفة حين تَنْشَقّ السماء وتُحْمَلُ الأرض والجبال فتُدَكُّ دكّة واحدة وذلك بعد الزلزلة . وقيل : الراجفة تحرك الأرض ، والرادفة زلزلة أخرى تفنى الأرضين . فالله أعلم . وقد مضى فى آخر « النمل »[1] ما فيه كفاية فى النفخ فى الصور . وأصل الرجفة الحركة ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » وليست الرجفة ها هنا من

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعدها .

الحركة فقط بل من قولهم : رَجَفَ الرّعدُ يَرْجُفُ رَجْفًا ورَجيفا أى أظهر الصوت والحركة ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها و إفاضة الناس فيها ؛ قال[(١)] :

أبالأراجيفِ يَابْنَ اللُّؤْمِ تُوعِدُنِى * وفى الأَراجيفِ خِلْتُ اللُّؤْمَ والخَوَرَا

وعن أُبىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال : "يأيها الناس آذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه" . ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أى خائفة وجلة ؛ قاله آبن عباس وعليه عامة المفسرين . وقال السدى : زائلة عن أماكنها ؛ نظيره «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ»[(٢)] . وقال المؤرّج : قلقة مستوفزة، مرتكضة غير ساكنة . وقال المبرد : مضطربة . والمعنى متقارب والمراد قلوب الكفار؛ يقال وجف القلب يجف وجيفا إذا خفق ؛ كما يقال : وجب يجب وجيبا ؛ ومنه وجيف الفرس والناقة فى العدو ؛ والإيجاف حمل الدابة على السير السريع ؛ قال :

بُدِّلْنَ بَعْدَ جِرَّةٍ صَرِيفَا * وبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الْوَجِيفَا

و « قُلُوبٌ » رفع بالابتداء و « وَاجِفَةٌ » صفتها . و ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ خبرها؛ مثل قوله : « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ » ومعنى « خَاشِعَةٌ » منكسرة ذليلة من هول ما ترى؛ نظيره : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » والمعنى أبصار أصحابها فحذف المضاف . ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴾ أى يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم : « أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته أى رجع من حيث جاء ؛ قاله قتادة . وأنشد آبن الأعرابى :

---

(١) قائله منازل بن ربيعة المنقرى فى هجو رؤبة والعجاج . والرواية المشهورة للبيت كما فى كتب النحو كشرح التصريح وغيره هى :

أبا لأراجيز يابن اللؤم توعدنى * وفى الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز جمع أرجوزة وهى القصائد الجارية على بحر الرجز . وفى الأراجيز خبر مقدّم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط خلت بين المبتدإ والخبر أبطل عملها ؛ وهو موضع الشاهد فى البيت عند النحاة . وقيل لا يمتنع النصب على أن يقدر مبتدأ أى وأما خلت . (٢) مرتكضة : مضطربة .

أَحافِرَةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ * مَعاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وعَارِ

يقول : أأرجع إلى ما كنتُ عليه فى شبابى من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبتُ وصلِعتُ ! ويقال : رجع على حافرته ، أى الطريق الذى جاء منه . وقولهم فى المثل : النَّقْدُ عند الحافرة . قال يعقوب : أى عند أوّل كلمة . ويقال : ٱلتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة . أى عند أوّل ما ٱلتقوا . وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أى أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟ قال الشاعر :

آلَيْتُ لا أَنْساكُمُ فَٱعْلَمُوا * حَتَّى يُرَدَّ النَّاسُ فى الحافِرَهْ

وقيل : الحافرة الأرض التى تحفر فيها قبورهم فهى بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعالى : « مَآءٍ دَافِقٍ » و « عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » والمعنى أئنا لمردودون فى قبورنا أحياء . قاله مجاهد والخليل والفرّاء . وقيل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مستقرّ الحوافر كما سميت القدم أرضا ؛ لأنها على الأرض . والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشى على أقدامنا . وقال ٱبن زيد : الحافرة النار وقرأ « تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هى ٱسم من أسماء النار . وقال ٱبن عباس : الحافرةُ فى كلام العرب الدنيا . وقرأ أبو حيوة : « الحَفِرَة » بغير ألف مقصور من الحافرة . وقيل : الحَفِرة الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛ من قولهم : حفِرت أسنانه إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . يقال : فى أسنانه حَفْرٌ وقد حَفَرَتْ تَحْفِرُ حَفْرًا ، مثال كَسَر يَكْسِر كَسْرا إذا فسدت أصولها . وبنو أسد يقولون : فى أسنانه حَفَرٌ بالتحريك . وقد حفِرت مثال تعِب تعبا وهى أردأ اللغتين ؛ قاله فى الصحاح .

﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ أى بالية متفتتة . يقال : نَخِر العظم بالكسر أى بلِى وتفتّت ؛ يقال : عظام نَخِرَةٌ وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة وٱختاره أبو عبيد ؛ لأن الآثار التى تُذكر فيها العظام نظرنا فيها فرأينا نَخِرَةً لا ناخرة . وقرأ أبو عمرو وٱبنه عبد الله وٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن الزبير وحمزة والكسائى وأبو بكر « نَاخِرَةً » بألف وٱختاره الفرّاء والطبرى وأبو معاذ النحوى ؛ لوفاق رءوس الآى . وفى الصحاح : والنّاخِر من العظام

التي تدخل الريح فيـه ثم تخرج منه ولها نخِـيرٌ . ويقال : ما بها ناخر أى ما بها أحد . حكاه يعقوب عن الباهلي . وقال أبو عمرو بن العلاء : النّاخرة التي لم تنخر بعد أى لم تبل ولا بدّ أن تنخر . وقيل : الناخرة المجوّفة . وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نخِر الشيء فهو نخِر وناخِر؛ كقولهم : طَمِـعَ فهو طَمِـعٌ وطامِـعٌ وحَذِرٌ وحاذِرٌ وبخِلٌ و باخِل وفرِه وفارِه؛ قال الشاعر :

يَظَلُّ بها الشَّيْخُ الّذِى كان بَادِنًا * يَـدِبُّ على عُوْجٍ لَهُ نَخِـراتِ

عُوْج يعنى قَوائم . وفى بعض التفسير : ناخرة بالألف بالِيَةٌ ونَخِرة تَنْخَر فيها الريح أى تمر فيهـا على عكس الأوّل ؛ قال(١) :

* مِنْ بَعْـدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرَهْ *

وقال بعضهم : الناخرة التي أَكلَتْ أطرافها و بقيت أوساطها . والنخرة التي فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة أى مرفوتة ؛ كما قال تعالى : « عِظَاماً وَرُفَاتاً » ونُخْرَةُ الريح بالضم شدّة هبوبها . والنخرة أيضا والنُّخَرَة مثال الهُمَزَة مقدّم أنف الفرس والحمار والخنزير ؛ يقال : هَشَمَ نُخْرَتَه أى أنفه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أى رجعة خائبة كاذبة باطلة أى ليست كائنة ؛ قاله الحسن وغيره . الربيـع بن أنس : « خَاسِرَةٌ » على من كذّب بها . وقيـل : أى هى كرة خسران . والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحـة أى يربح صاحبها . ولا شيء أخسر من كرة تقتضى المصير إلى النار . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا أحياء بعـد الموت لنُحشرنّ بالنار ؛ وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار . والكرّ الرجوع ؛ يقال : كَرّه وكَرّ بنفسه يتعدى ولا يتعدى . والكرة المرة والجمع الكرات . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نفخة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ أى الخلائق أجمعون ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى على وجه الأرض بعد ما كانوا فى بطنها . قال الفراء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم

(١) قائله الهمداني يوم القادسية .

الحيوان وسهرهم . والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة بمعنى ذات سهر؛ لأنه يسهر فيها خوفا منها فوصفها بصفة ما فيها؛ وآستدل آبن عباس والمفسرون بقول أمية آبن أبى الصّلت :

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبَحْرٍ * وما فاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقيمُ

وقال آخر يوم ذى قارٍ لفرسه :

أَقْدِمْ مَحاجِ إنّها الأَساوِرَهْ * ولا يَهُولَنَّكَ رِجْلٌ نادِرَهْ[1]

فإنّما قَصْرُكَ تُرْبُ السّاهِرَهْ * ثُمّ تَعودُ بَعْدَها فى الحافِرَهْ

* مِنْ بَعْدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرَهْ *

وفى الصحاح : ويقال : السّاهور ظِلّ الساهرة وهى وجه الأرض . ومنه قوله تعالى : «فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ» قال أبو كبير الهُذَلىّ :

يَرْتَدْنَ ساهِرةً كأنّ جَميمَها * وعَميمَها أَسْدافُ لَيْلٍ مُظلِمِ[2]

ويقال : السّاهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف[3] ، وأنشدوا قول أمية بن أبى الصّلت[4] :

* قَمَرٌ وساهورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدُ *

وأنشدوا لآخر فى وصف آمرأة :

كأنّها عِرْقُ سامٍ عِنْدَ ضارِبِهِ * أو شُقّةٌ[5] خَرَجَتْ مِن جَوْفِ ساهورِ

يريد شقة القمر . وقيل : الساهرة هى الأرض البيضاء . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : أرض من فِضّة لم يُعصَ الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ . وقيل : أرض جددها

---

(١) هذه الأبيات للهمدانى يوم القادسية وقد تقدم ذكرها . محاج : آسم فرس الشاعر . وفى اللسان مادة «نخر» : أقدم أخانهم . ولا تهولنك رءوس . وفى السمين : بادره . (٢) الجميم بالجيم ، النبت الذى قد نبت وآرتفع قليلا ولم يتم كل التمام ، والعميم المكتمل التام من النبت ، والأسداف جمع سدف بالتحريك وهو ظلمة الليل . (٣) هذا كما تزعم العرب فى الجاهلية . (٤) وصدر البيت : * لا نقص فيه غير أن خبيئه *
(٥) كذا فى نسخ الأصل التى بأيدينا والذى فى اللسان مادة « سهر » أو فلقة .

الله يوم القيامة . وقيل : الساهرة ٱسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض . وقال الثوري : الساهرة أرض الشام . وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . عثمان بن أبي العاتكة : إنه ٱسم مكان من الأرض بعينه بالشام وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان[1] يمده الله كيف يشاء . قتادة : هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ . وقيل : الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أي يوقفون بأرض القيامة فيدوم السهر حينئذ . ويقال : الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يَضْحَى السَّرابُ مُجَلِّلاً * لِأَقْطارِها قد جئتُها متلثِّمَا

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أي قد جاءك وبلغك « حَدِيثُ مُوسَى » وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أي إن فرعون

(١) ذكره الطبري أيضا .

كان أقوى من كفار عصرك ثم أخذناه وكذلك هؤلاء . وقيل : « هل » بمعنى « ما » أى ما أتاك ولكن أخبرت به فإن فيه عبرة لمن يخشى . وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية[1] . وفى «طُوًى» ثلاث قراءات : قرأ ابن محيصن وابن عامر والكوفيون « طُوًى » منونا واختاره أبو عبيد لخفة الاسم . الباقون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عُمَر وقُثَم ؛ قال الفراء : طوى واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول عن طاوٍ كما عدل عمر عن عامر . وقرأ الحسن وعكرمة « طِـوًى » بكسر الطاء وروى عن أبى عمـرو على معنى المقدس مرة بعد مرة ؛ قاله الزجاج ؛ وأنشد[2] :

أَعاذِلَ إنّ اللَّوْمَ فى غَيْرِ كُنْهِهِ * عَلَىَّ طِوًى مِن غَيِّكِ المُتَرَدِّدِ

أى هو لَوْمٌ مكرر علىّ . وقيـل : ضم الطاء وكسرها لغتان وقـد مضى فى « طـه »[3] القول فيـه . ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ أى ناداه ربه فحذف لأن النـداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه « ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَـوْنَ » . ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى جاوز القـدر فى العصـيان . وروى عن الحسن قال : كان فرعون عِلْجًا من هَمْدان . وعن مجاهد قال : كان من أهل إِصْطَخْر . وعن الحسن أيضـا قال : مـن أهل أصبهان يقال له ذو ظفـر طوله أربعـة أشبار . ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ أى تسلم فتطهر من الذنوب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : هـل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ وَأَهْـدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى وأرشـدك إلى طاعة ربك ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أى تخافه وتتقيه . وقرأ نافع وابن كثير « تَزَّكَّى » بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى لأن أصلها تتزكى الباقون : «تَزَكَّى» بتخفيف الزاى على معنى طرح التاء . وقال أبو عمرو : « تَزَّكَّى » بالتشديد [تتصدق بـ][4] الصدقة و « تَزَكَّى » تكون زكيا مؤمنا . وإنما دعا فرعون ليكون زكيا مؤمنا . قال : فلهـذا اخترنا التخفيف . وقال صخـر بن جويرية :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعدها و جـ ١١ ص ٢٠٠ فما بعدها و جـ ١٣ ص ٢٥٠ فما بعدها .

(٢) قائله عدى بن زيد .		(٣) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ .

(٤) الزيادة من الطبرى وهى لازمة .

لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له : « ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » إلى قوله « وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » ولن يفعل ؛ فقال : يارب وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعل ؟ فأوحى الله إليه أن آمض إلى ما أمرتك به فإن فى السماء آثنى عشر ألف ملك يطلبون علم القَدَر فلم يبلغوه ولا يدركوه . ﴿ فَأَرَاهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أى العلامة العظمى وهى المعجزة . وقيل : العصا . وقيل : اليد البيضاء تبرق كالشمس . وروى الضحاك عن آبن عباس : الآية الكبرى قال العصا . الحسن : يده وعصاه . وقيل : فلق البحر . وقيل : الآية إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته . ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ أى كذب نبىّ الله موسى ﴿ وَعَصَىٰ ﴾ أى عصى ربه عز وجل . ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أى ولى مدبرا معرضا عن الإيمان « يَسْعَىٰ » أى يعمل بالفساد فى الأرض . وقيل : يعمل فى نكاية موسى . وقيل : « أَدْبَرَ يَسْعَىٰ » هاربا من الحية . ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أى جمع أصحابه ليمنعوه منها . وقيل : جمع جنوده للقتال والمحاربة والسحرة للمعارضة . وقيل : حشر الناس للحضور . ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ أى قال لهم بصوت عال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أى لا رب لكم فوقى . ويروى : إن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام فأنكره فرعون ؛ فقال له إبليس : ويحك ! أما تعرفنى ؟ قال : لا . قال : وكيف وأنت خلقتنى ؟ ألست القائل أنا ربكم الأعلى . ذكره الثعلبى فى كتاب العرائس . وقال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها فقال أنا رب أصنامكم . وقيل : أراد القادة والسادة هو ربهم وأولئك هم أرباب السّفلة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر ؛ لأن النداء يكون قبل الحشر . ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أى نكال قوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي » وقوله بعد : « أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ » قاله آبن عباس ومجاهد وعكرمة . وكان بين الكلمتين أربعون سنة ؛ قاله آبن عباس . والمعنى أمهله فى الأولى ثم أخذه فى الآخرة فعذبه بكلمتيه . وقيل : نكال الأولى هو أن أغرقه ، ونكال الآخرة العذاب فى الآخرة . قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد : هو عذاب أول عمره وآخره . وقيل : الآخرة قوله « أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ » والأولى تكذيبه لموسى . عن قتادة أيضا .

و « نَكَالَ » منصوب على المصدر المؤكد في قول الزجاج ؛ لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج [نكال] (١) مكان مصدر من معناه لا من لفظه . وقيل : نصب بنزع حرف الصفة، أي فأخذه الله بنكال الآخرة فلما نُزِع الخافض نصب . وقال الفراء : أي أخذه الله أخذا نكالا أي للنكال . والنكال آسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به . يقال : نكل فلان بفلان إذا أثخنه عقوبة . والكلمة من الآمتناع ومنه النكول عن اليمين والنِّكْلُ القيد . وقد مضى في سورة «المزمل» (٢) والحمد لله . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ أي آعتبارا وعظة، ﴿ لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ أي يخاف الله عز وجل .

قوله تعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ يريد أهل مكة أي أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ فمن قدر على السماء قدر على الإعادة؛ كقوله تعالى: « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله تعالى : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ . ثم وصف السماء فقال : ﴿ بَنَاهَا ﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء . ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أي أعلى سقفها في الهواء ؛ يقال : سمكت الشيء أي رفعته في الهواء وسَمَكَ الشيءُ سموكا آرتفع . وقال الفراء : كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سَمْكٌ . وبناء مَسْموكٌ وسَنام سامِكٌ تامِكٌ أي عالٍ والمسموكات (٣) السموات . ويقال : آسْمُكْ في الدَّيْم أي آصعد في الدرجة .

(١) زيادة تقتضيها العبارة . (٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء . (٣) الذى فى اللغة المسمكات كمكرمات وورد كذلك فى الخبر وصحح التاج أن المسموكات لغة لا لحن وبها ورد الخبر عن طريق آخر .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى خلقها خلقا مستويا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور . ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أى جعله مظلما ؛ غطش الليل وأغطشه الله؛ كقولك : ظَلِمَ [الليلُ][(١)] وأظلمه الله . ويقال أيضا : أغطش الليل بنفسه وأغطشه الله؛ كما يقال : أظلم الليل وأظلمه الله . والغَطَش والغَبَش الظلمة ورجل أغطش أى أعمى أو شبيه به وقد غَطِش والمرأة غطشاء ؛ ويقال : ليلةٌ غطشاء وليل أغطش، وفلاة غَطْشَى لا يهتدى لها ؛ قال الأعشى :

وَيَهْمَاء بِاللَّيْلِ غَطْشَى الفَلَا * ةِ يُؤْنِسُنِي صَوْتُ فَيَّادِها[(٢)]

وقال الأعشى أيضا :

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِنا ناقَتِي * وغامَرَهُمْ مَدْلَهِمٌّ غَطَشْ

يعنى بغامرهم لَيْلَهم لأنه غمرهم بسواده . وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس والشمس مضاف إلى السماء ؛ ويقال : نجوم الليل لأن ظهورها بالليل . ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى أبرز نهارها وضوءها وشمسها . وأضاف الضحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها . ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ أى بسطها . وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء . وقد مضى القول فيه فى أول « البقرة »[(٣)] عند قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » مستوفى . والعرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحوا إذا بسطته . ويقال لعُشّ النعامة أُدْحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض . وقال أمية بن أبى الصَّلْت :

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذْ دَحاها * فَهُمْ قُطَّانُها[(٤)] حَتّى التَّنادى

وأنشد المبرّد :

دَحَاها فلَمّا رآها اسْتَوَتْ * عَلَى المَاءِ أَرْسَى عَلَيْها الجِبالا

(١) هذه الزيادة من اللسان عن الفراء قال : ظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى .

(٢) الفياد بفتح الفاء وضمها ذكر البوم . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٥ فما بعدها .

(٤) مضى هذا البيت فى جـ ١٥ ص ٣١٠ بلفظ : سكانها . والمعنى واحد .

وقيل : دحاها سوّاها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ * لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالا
دَحاها فلمَّا ٱستوَتْ شَدَّهَا * بِأَيْدٍ وأرْسَى عَلَيْهَا الجِبالا

وعن ٱبن عباس : خلق الله الكعبة ووضعها على المـاء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألف عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وذكر بعض أهل العلم أنّ «بَعْدَ» في موضع «مع» كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» . ومنه قولهم : أنت أحمق وأنت بعد هذا سيّء الخلق ؛ قال الشاعر :

فَقُلْتُ لهـا عَنِّي إِلَيْكِ فَإِنَّنِي * حَرَامٌ وإِنِّي بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبُ

أى مع ذلك لبيب . وقيل : بعد بمعنى قَبْلُ؛ كقوله تعالى : «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» أى من قبل الفرقان ؛ قال أبو خِراش الهُذَليّ :

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا * خِراشٌ وبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وزعموا أن خِراشا نجا قبل عروة . وقيل : «دَحَاهَا» حرثها وشقها . قاله ٱبن زيد . وقيل: دحاها مهدها للأقوات . والمعنى متقارب . وقراءة العامة «وَالْأَرْضَ» بالنصب أى دحا الأرض . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «وَالْأَرْضُ» بالرفع على الآبتداء ؛ لرجوع الهـاء . ويقال : دحا يَدْحو دحوًا ودحَى يَدْحَى دحيًا؛ كقولهم : طَغَى يطْغَى ويَطغُو وطَغِيَ يَطغَى ومحا يمحو ويَمْحَى ولَحَى العودَ يلحَى ويلحو فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحَى قال دحيت . ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴾ أى أخرج من الأرض ﴿ مَاءَهَا ﴾ أى العيون المتفجرة بالمـاء . ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ أى النبات الذى يرعى . وقال القتبي : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحبّ والتّمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من المـاء . ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ قراءة العامة «والْجِبَالَ» بالنصب أى وأرسى الجبال «أَرْسَاهَا» يعنى أثبتها فيها أوتادا لها . وقرأ

الحسن وعمرو بن ميمون وعمــرو بن عبيد ونصر بن عاصم « والجبالُ » بالرفع على الابتداء . ويقال : هلا أدخل حرف العطف على « أَخْرَجَ » فيقال : إنه حال بإضمار قد ؛ كقوله تعالى : «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» . ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أى منفعة لكم . ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ من الإبل والبقر والغنم . و « مَتَاعًا » نصب على المصدر من غير اللفظ ؛ لأن معنى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » أمتع بذلك . وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ أى الداهية العظمى ، وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس فى رواية الضحاك عنه وهــو قــول الحسن . وعن ابن عباس أيضا والضحاك أنها القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تَطِمّ على كل شىء فتعم ماسواها لعظم هولهــا ؛ أى تغلبه . وفى أمثالهم : جَرَى الوادِى فَطَمَّ على القَرِىّ[(١)] .

المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طَمَّ الفرسُ طَميما إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطَمَّ المــاءُ إذا ملأ النهر كله . غيره : هى مأخوذة من طمّ السيل الرَّكِيّة[(٢)] أى دفنها والطمّ الدفن والعلو . وقال القاسم بن الوليد الهمدانى : الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار . وهو معنى قول مجاهد . وقال سفيان : هى الساعة التى يسلم فيها أهل النــار إلى الزبانيــة . أى الداهيــة التى طَمّت وعظمت ؛ قال :

إن بعضَ الحُبِّ يُعْمِى ويُصِمّْ * وكذاك البُغْضُ أَدْهَى وأَطَمّْ

---

(١) القرى مجرى المــاء فى الروضة والجمع أقرية وأقراء وقريان ؛ و يضرب المثل عند تجاوز الشىء حده .
(٢) الركية : البئر ؛ أى جرى سيل الوادى .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أى ما عمل من خير أو شر . ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ أى ظهرت . ﴿ لِمَنْ يَرَى ﴾ قال ابن عباس : يكشف عنها تتلظى فيراها كل ذى بصر . وقيل : المراد الكافر لأنه الذى يرى النار بما فيها من أصناف العذاب . وقيل : يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلى الكافر بالنار . وجواب « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » محذوف أى إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقرأ مالك بن دينار : « وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ » عكرمة وغيره « لِمَنْ تَرَى » بالتاء أى لمن تراه الجحيم أو لمن تراه أنت يا محمد . والخطاب له عليه السلام والمراد به الناس .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى تجاوز الحد فى العصيان . قيل : نزلت فى النضر وابنه الحرث ، وهى عامة فى كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة . وروى عن يحيي بن أبى كثير قال : من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى . وروى جويبر عن الضحاك قال قال حذيفة : أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون (١) . ويروى أنه وجد فى الكتب : إن الله جل ثناؤه قال « لا يؤثر عبد لى دنياه على آخرته إلا بثثت عليه همومه وضيعته (٢) ثم لا أبالى فى أيها هلك » . ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى مأواه . والألف واللام بدل من الهاء . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أى حذر مقامه بين يدى ربه . وقال الربيع : مقامه يوم الحساب . وكان قتادة يقول : إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب

---

(١) فى بعض النسخ : ما يعملون .	(٢) فى نسخة : وضيعته .

فيقلع؛ نظيره : « ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » . ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أى زجرها عن المعاصى والمحارم . وقال سهل : ترك الهوى مفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » قال عبد الله بن مسعود : أنتم فى زمان يقود الحقّ الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحقّ ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان . ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى المنزل . والآيتان نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروى الضحاك عن آبن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسر يوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيّتوه عندهم ، فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عمير حديثه؛ فقال : ما هو لى بأخ ، شدّوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا . فأوثقوه حتى بعثت أمّه فى فدائه . « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فمصعب بن عمير؛ وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أُحُد حين تفرّق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه . وهى السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشحطا فى دمه قال : "عند الله أحتسبك" وقال لأصحابه : "لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما و إن شراك نعليه من ذهب" . وقيل : إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامرا يوم بدر . وعن آبن عباس أيضا قال : نزلت هذه الآية فى رجلين أبى جهل بن هشام المخزومى ومصعب بن عمير العبدرى . وقال السدى : نزلت هذه الآية « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوما بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لم لا تسألنى اليوم ؟ فقال : نسيت فمن أين لك هذا الطعام . فقال : تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطونيه . فتقايأه من ساعته وقال : يا رب ما بقى فى العروق فأنت حبسته فنزلت : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» . وقال الكلبى : نزلت فى من همّ بمعصيته وقدر عليها فى خلوة ثم تركها من خوف الله . ونحوه عن آبن عباس . يعنى من خاف عند المعصية مقامه بين يدى الله فآنتهى عنها والله أعلم .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال ٱبن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة ٱستهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ . ومعنى « مُرْسَاهَا » أي قيامها . قال الفراء : رسوها قيامها[1] كرسو السفينة . وقال أبو عبيدة : أي منتهاها ، ومرسا السفينة حيث تنتهي . وهو قول ٱبن عباس . الربيع بن أنس : متى زمانها . والمعنى متقارب . وقد مضى في «الأعراف»[2] بيان ذلك . وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة إلا بغضبة يغضبها ربك" . « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا » أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها . وهذا معنى ما رواه الزهري عن عروة بن الزبير قال : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » أي منتهى علمها ؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك فقيل له : لا تسأل فلست في شيء من ذلك . ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين في مسألتهم له ؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه ولست ممن يعلمه . روى معناه عن ٱبن عباس . والذكرى بمعنى الذكر . « إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » أي منتهى علمها فلا يوجد عند غيره علم الساعة ؛ وهو كقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي » وقوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » . ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾

(١) قال الفراء : كقولك قام العدل وقام الحق أي ظهر وثبت .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٣٥ فما بعدها .

أى مخوّف ؛ وخص الإنذار بمن يخشى لأنهم المنتفعون به وإن كان منذرا لكل مكلّف ؛ وهو كقوله تعالى : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ » . وقراءة العامة « مُنْذِرُ » بالإضافة غير منون ؛ طلبَ التخفيف وإلا فأصله التنوين ؛ لأنه للمستقبل وإنما لاينون فى الماضى . قال الفراء : يجوز التنوين وتركه ؛ كقوله تعالى : « بَالِغٌ أَمْرَهُ » و « بَالِغُ أَمْرِهِ » و « مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » و « مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » والتنوين هو الأصل وبه قرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن محيصن وحميد وعياش عن أبى عمرو « مُنْذِرٌ » منونا وتكون فى موضع نصب والمعنى إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة . وقال أبوعلى : يجوز أن تكون الإضافة للماضى نحو ضارب زيدٍ أمس ؛ لأنه قد فعل الإنذار ، والآية ردّ على من قال : أحوال الآخرة غير محسوسةٍ وإنما هى راحة الروح أو تألمها من غير حسّ . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ يعنى الكفار يرون الساعة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى دنياهم ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً ﴾ أى قدر عشية ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى أو قدر الضحا الذى يلى تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال تعالى : « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » . وروى الضحاك عن ابن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا . وقيل : « لَمْ يَلْبَثُوا » فى قبورهم « إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وذلك أنهم استقصروا مدّة لبثهم فى القبور لما عاينوا من الهول . وقال الفرّاء : يقول القائل وهل للعشية ضحا ؟ وإنما الضحا لصدر النهار ولكن أضيف الضحا إلى العشية وهو اليوم الذى يكون فيه على عادة العرب ؛ يقولون : آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها ، فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أوّل النهار ؛ قال : وأنشدنى بعض بنى عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنَا عامِرًا فى دَارِهَا * جُرْدًا تَعَادَى طَرَفَىْ نَهارِها
* عَشِيَّةَ الهِلالِ أَوْ سِرارِها *

راد عشية الهلالِ أو عشية سِرارِ العشية ، فهو أشدّ من آتيك الغداة أو عشيتها .

سورة عبس

مكية فى قول الجميع، وهى إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ ﴾ أى كلح بوجهه؛ يقال : عبس و بسر . وقد تقدّم . ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أى أعرض بوجهه ﴿ أَن جَاءَهُ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب لأنه مفعول له ، المعنى لأن جاءه الأعمى أى الذى لايبصر بعينيه . فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عبد الله عليه كلامه فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية . قال مالك : إن هشام بن عروة حدّثه عن عروة أنه قال نزلت « عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ » فى ابن أمّ مكتوم؛ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد استدنني[1] وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه و يقبل على الآخر و يقول : "يافلان هل ترى بما أقول بأسا" فيقول : لا والدُّمى[2] ماأرى بما تقول بأسا؛ فأنزل الله « عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ » . وفى الترمذى مسندا قال : حدّثنا سعيد ابن يحيى بن سعيد الأموى، حدّثنى أبى، قال هذا ماعرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت : نزلت «عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ» فى ابن أمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الرواية هنا وفى ابن العربي يا محمد، والمشهور فى التفسير يارسول الله علمنى مما علمك الله . وفى رواية : يارسول أرشدنى، كما سيأتى للصنف .

(٢) الدمى جمع دمية وهى الصورة ، و يريد بها الأصنام .

وسلم بخعل يقول : يارسول الله أرشدنى ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، بخعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه و يقبل على الآخر، و يقول : " أترى بما أقول بأسا " فيقول : لا، ففى هذا نزلت، قال هذا حديث غريب .

الثانيــة — الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى إعراضه وتوليه عن عبد الله آبن أم مكتوم . و يقال : عمرو بن أم مكتوم، وآسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا هو آبن قيس بن زائدة بن الأصم ، وهو آبن خال خديجة رضى الله عنها . وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين يقال كان الوليد بن المغيرة ؛ آبن العربى : قاله المالكية من علمائنا ، وهو يكنى أبا عبد شمس . وقال قتادة : هو أمية بن خلف وعنه أبى بن خلف . وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبى بن خلف . وقال عطاء: عتبة بن ربيعة . سفيان الثورى : كان النبى صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس . الزمخشرى : كان عنده صناديد قريش عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . قال آبن العربى : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، وذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وآبن أم مكتوم كان بالمدينة ماحضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ولا حضر عنده مفردا ولا مع أحـــد .

الثالثــة — أقبل آبن أم مكتوم والنبى صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوى طمعه فى إسلامهم وكان فى إسلامهم إسلام مَن وراءهم من قومهم ، بخاء آبن أم مكتوم وهو أعمى فقال : يارسول الله عَلِّمنى مما عَلَّمك الله ؛ وجعل يناديه و يكثر النداء ولا يدرى أنه مشغول بغيره حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه ، وقال فى نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسّفلة

والعبيد ؛ فعبس وأعرض عنــه فنزلت الآية . قال الثوري : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى آبن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : " مرحبا بمن عاتبني فيــه ربي " ويقول : "هل من حاجة"، وآستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعــة — قال علماؤنا : ما فعــله آبن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالمـا بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغــيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعــالى عاتبه حتى لاتنكسر قلوب أهل الصُّفّة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمــانهم ، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى » الآية على ما تقــدّم[1] . وقيل : إنمــا قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب آبن أم مكتوم من الإيمان؛ كما قال: " إني لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه " .

الخامســـة — قال آبن زيد : إنمــا عبس النبي صــلى الله عليه وســلم لآبن أم مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه آبن أم مكتوم وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعلِّمه، فكان في هذا نوع جفاء منــه . ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » بلفظ الإخبار عن الغــائب تعظيما[2] له ولم يقل : عبست وتوليت . ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي يعلمك ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ يعني آبن أم مكتوم ﴿ يَزَّكَّى ﴾ بمــا آستدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين بأن يزداد طهارة في دينــه ، وزوال ظلمة الجهل عنه . وقيل : الضمير في « لَعَلَّهُ » للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥ فما بعدها .

(٢) في نسخة : تعليما .

وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرأ الحسن « آأنْ جَاءَهُ الأَعْمَى »[1] بالمدّ على الاستفهام فـ«أنْ» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عَبَسَ وَتَوَلَّى» التقدير آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على « وَتَوَلَّى » ولا يوقف عليه على قراءة الخبر وهى قراءة العامة .

السادسـة — نظير هذه الآية فى العتاب قوله تعالى فى سـورة الأنعام : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » وكذلك قوله فى سـورة الكهف : « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وما كان مثله ، والله أعلم . ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ يتعظ بما تقول ﴿ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى العظة . وقراءة العامة «فَتَنْفَعُهُ» بضم العين عطفا على «يَزَّكَّى» . وقرأ عاصم وابن أبى إسحق وعيسى « فَتَنْفَعَهُ » نصـبا . وهى قراءة السُّلَمِىّ وزرّ بن حُبَيش على جواب لعل لأنه غير موجب؛ كقوله تعالى : « لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ » ثم قال : « فَأَطَّلِعَ » .

قوله تعـالى : أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ أى كان ذا ثروة وغنًى ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أى تعرّض له وتصغى لكلامه . والتصدى الإصغاء؛ قال الراعى :

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ * سِرَاجُ الدُّجَى يَحْنِى إليه الأَسَاوِرُ[2]

وأصله تتصدّد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك؛ يقال : دارى صدد داره أى قبالتها ، نصب على الظرف . وقيل : من الصدى وهو العطش . أى تتعرض له كما يتعرّض العطشان للمـاء والمصاداة المعارضة . وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف على طرح التاء الثانية تخفيفا .

(١) قال الزمخشرى : وقرئ « آأن » بهمزتين وألف بينهما .

(٢) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس ؛ وقيل : هو الجيد الرمى بالسهام ؛ وقيل : هو الجيد الثبات على ظهر الفرس ، والجمع أساورة وأساور .

وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام . ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ أى لا يهتدى هذا الكافر ولا يؤمن إنما أنت رسول ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أى يخاف الله ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أى تعرض عنه بوجهك وتشتغل بغيره . وأصله تتلهى ؛ يقال : لهيت عن الشيء ألهى أى تشاغلت عنه . والتلهى التغافل ولهيت عنه وتلهيت بمعنى .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ « كَلَّا » كلمة ردع وزجر ؛ أى ما الأمر كما تفعل مع الفريقين ؛ أى لا تفعل بعدها مثلها من إقبالك على الغنى وإعراضك عن المؤمن الفقير . والذى جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدّم ، ولو حمل على صغيرة لم يبعد ؛ قاله القشيرى . والوقف على « كَلَّا » على هذا الوجه جائز . ويجوز أن تقف على « تَلَهَّى » ثم تبتدئ « كَلَّا » على معنى حقا . ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى السورة أو آيات القرآن ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى اتعظ بالقرآن . قال الجرجانى : « إِنَّهَا » أى القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ولو ذكّره لجاز ؛ كما قال تعالى فى موضع آخر : « كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ » . ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » أى كان حافظا له غير ناس ؛ وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » قال من شاء الله تبارك وتعالى ألهمه . ثم أخبر عن جلالته فقال : ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أى عند الله ؛ قاله السدى . الطبرى : « مُكَرَّمَةٍ » فى الدين لما فيها من العلم والحكم . وقيل : « مُكَرَّمَةٍ » لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : « مُكَرَّمَةٍ »

لأنها نزلت من كريم ؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه . وقيل : المراد كتب الأنبياء ؛ دليله : «إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» . ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى . وقيل : مرفوعة في السماء السابعة ؛ قاله يحيى بن سلّام . الطبري : مرفوعة الذكر والقدر . وقيل : مرفوعة عن الشبه والتناقض . ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ قال الحسن : من كل دنس . وقيل : مصانة عن أن ينالها الكفار . وهو معنى قول السُّدّى . وعن الحسن أيضا : مطهرة من أن تنزل على المشركين . وقيل : أى القرآن أثبت للملائكة فى صحف يقرءونها فهى مكرمة مرفوعة مطهرة . ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أى الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مطهرة تجعل التطهير لمن حملها «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» قال : كَتَبَةٍ . وقاله مجاهد أيضا . وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد فى الأسفار التى هى الكتب واحدهم سافر؛ كقولك : كاتب وكَتَبَة . ويقال : سفرت أى كتبت والكتاب هو السِّفْر وجمعه أَسْفار . قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سِفْرٌ بكسر السين وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه . يقال : أَسْفر الصبح إذا أضاء، وسَفَرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها . قال : ومنه سَفَرْتُ بين القوم أسفِر سِفارة أصلحت بينهم . وقاله الفراء وأنشد :

فما أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي * ولا أَمْشِي بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ

والسفير الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء مثل فقيه وفقهاء . ويقال للورّاقين سفراء بلغة العبرانية . وقال قتادة : السَّفَرَةُ هنا هم القرّاء لأنهم يقرءون الأسفار . وعنه أيضا كقول ابن عباس . وقال وهب بن منبه : «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ» هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن العربى : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة كراما بررة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادين بها ، بل هى لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق ، ولا يشاركهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم فى متناولها غيرهم . وروى

فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "[مثل[(١)]] الذى يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ومثل الذى يقرؤه وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران" متفق عليه واللفظ للبخارى. ﴿ كِرَامٍ ﴾ أى كرام على ربهم؛ قاله الكلبى. الحسن: كرام عن المعاصى فهم يرفعون أنفسهم عنها. وروى الضحاك عن ابن عباس فى « كِرَامٍ » قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته أو تبرز لغائطه. وقيل: أى يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم. ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بَرٌّ وبارّ إذا كان أهلا للصدق، ومنه بَرَّ فلانٌ فى يمينه أى صدق، وفلان يَبَرُّ خالقه ويتبرّره أى يطيعه؛ فمعنى « بَرَرَةٍ » مطيعون لله صادقون لله فى أعمالهم. وقد مضى فى سورة « الواقعة »[(٢)] قوله تعالى: « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ. كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنهم الكرام البررة فى هذه السورة.

قوله تعالى: قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ « قُتِلَ » أى لُعن. وقيل: عُذِّب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان فى القرآن « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » فإنما عنى به الكافر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت فى عُتْبة بن أبى لهب وكان قد آمن، فلما نزلت « وَالنَّجْمِ » ارتدّ وقال آمنت بالقرآن كله إلا النجم، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » أى لعن عتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من صحيح البخارى.
(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٢٥

فقال : " اللهم سَلِّط عليه كلبك أسد الغاضِرة "(١) فخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيًّا ، فجعلوه في وسط الرفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد ، فلما دنا من الرحال وثب فإذا هو فوقه فمزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال محمد شيئا قط إلا كان . وروى أبو صالح عن ابن عباس « مَا أَكْفَرَهُ » أيّ شيء أكفره . وقيل : «ما» تعجب ؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ؛ والمعنى اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا . وقيل : ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا ؛ قال ابن جريج : أي ما أشدّ كفره . وقيل : « ما » استفهام أي أيّ شيء دعاه إلى الكفر ؛ فهو استفهام توبيخ . و « ما » تحتمل التعجب ، وتحتمل معنى أيّ فتكون استفهاما . ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر ؛ أي اعجبوا لخلقه . ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي من ماء يسير مهين جماد ﴿ خَلَقَهُ ﴾ فلِمَ يغلظ في نفسه ؟ ! . قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين . ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ في بطن أمه . كذا روى الضحاك عن ابن عباس : أي قدر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه ، وحسنا ودميا ، وقصيرا وطويلا ، وشقيا وسعيدا . وقيل : « فَقَدَّرَهُ » أي فسواه كما قال : « أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا » . وقال : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » . وقيل : « فَقَدَّرَهُ » أطوارا أي من حال إلى حال ؛ نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل : يسره للخروج من بطن أمه . مجاهد : يسره لطريق الخير والشر ؛ أي بين له ذلك . دليله : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » و « هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضا في رواية أبي صالح عنه . وعن مجاهد أيضا قال : سبيل

(١) كذا لفظ الحديث في الأصول ورواية أبي حيان له : " اللهم ابعث عليه كلبك يأكله "، ثم قال : فلما انتهى إلى الغاضرة ... الخ .

الشقاء والسعادة . ابن زيد : سبيل الإسلام . وقال أبو بكر بن طاهر : يسر على كل أحد ما خلقه له ، وقدره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام : " اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له " .
﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعل له قبرا يوارى فيه إكراما ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي (١) ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : « أَقْبَرَهُ » جعل له قبرا ، وأمر أن يقبر . قال أبو عبيدة : ولما قتل عمرُ بن هبيرة صالحَ بن عبد الرحمن قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أَقْبِرنا صالحا ؛ فقال : دونكموه . وقال : « أَقْبَرَهُ » ولم يقل قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ؛ قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إلى نَحْرِها　*　عاشَ ولَمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ

يقال : قبرت الميت إذا دفنته ، وأقبره الله أي صيره بحيث يقبر وجعل له قبرا ؛ تقول العرب : بترتُ ذَنَب البعير وأبتره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله ، وطردت فلانا والله أطرده أي صيره طريدا . ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أي أحياه بعد موته . وقراءة العامة « أَنْشَرَهُ » بالألف . وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة « شَاءَ نَشَرَهُ » بغير ألف لغتان فصيحتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونَشَره ؛ قال الأعشى :

حتّى يقولَ النّاسُ ممّا رَأَوا　*　يا عَجَبًا لِلمَيِّتِ النّاشِرِ

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة : « لَمَّا يَقْضِ » لا يقضي أحد ما أمر به . وكان ابن عباس يقول : « لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ » لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم . ثم قيل : « كَلَّا » ردع وزجر أي ليس الأمر كما يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال : « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » ربما يقول قد قضيت ما أمرت به ، فقال : كلا لم يقض شيئا بل هو كافر بي وبرسولي . وقال الحسن : أي حقًّا لم يقض أي لم يعمل بما أمر به . و « ما » في قوله : « لَمَّا » عماد للكلام ؛ كقوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ » وقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ »

---

(١) العوافي : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير ؛ والمراد هنا الوحوش والبهائم .

وقال الإمام ٱبن فورك : أى كلا لما يقض الله لهـذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . ٱبن الأنباري : الوقف على « كَلَّا » قبيح ، والوقف على « أَمَرَهُ » و « أَنْشَرَهُ » جيد ؛ فـ « كَلَّا » على هذا بمعنى حقًّا .

قوله تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ لما ذكر جل ثناؤه ٱبتداء خلق الإنسان ذكر ما يسر من رزقه ؛ أى فلينظر كيف خلق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أى ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذى هو قِوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعدّ بها للعاد . وروى عن الحسن ومجاهد قالا : « فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » أى إلى مدخله ومخرجه . وروى ٱبن أبى خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابى قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : " يا ضحاك ما طعامك " قلت : يا رسول الله ! اللحم واللبن؛ قال : " ثم يصير إلى ماذا " قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : " فإن الله ضرب ما يخرج من ٱبن آدم مثلا للدنيا " . وقال أُبَىّ بن كعب قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن مطعم ٱبن آدم جعل مثلا للدنيا وإن قَزَّحه ومَلَّحه فٱنظر إلى ما يصير " (١) . وقال أبو الوليد : سألت ٱبن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول ٱنظر ما بخلت به إلى ما صار .

---

(١) قزحه : أى تبله من القزح وهو التابل الذى يطرح فى القدر كالكمون والكزبرة ونحو ذلك .
والمعنى : إن المطعم وإن تكلف الإنسان التنوق فى صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار . « النهاية » .

قوله تعالى : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ قراءة العامة «إِنَّا» بالكسر على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب «أَنَّا» بفتح الهمزة ف «أنَّا» في موضع خفض على الترجمة عن الطعام فهو بدل منه؛ كأنه قال : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» إلى «أَنَّا صَبَبْنَا» فلا يحسن الوقف على «طَعَامِهِ» من هذه القراءة . وكذلك إن رفعت «أَنَّا» بإضمار هو أنا صببنا ؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام . وقيل: المعنى لأنَّا صببنا الماء فأخرجنا به الطعام أي كذلك كان . وقرأ الحسين بن علي (١) «أَنَّى» ممال بمعنى كيف . فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على «طعامه» تام . ويقال : معنى «أنَّى» أين إلا أنّ فيها كناية عن الوجوه ؛ وتأويلها : من أي وجه صببنا الماء ؛ قال الكميت :

أَنَّى ومِنْ أَيْنَ آبَكَ (٢) الطَّرَبُ　*　مِن حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيَبُ

«صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا» يعني الغيث والأمطار . ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي قمحا وشعيرا وسُلتا (٣) وسائر ما يحصد و يدخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَتُّ والعَلَف؛ عن الحسن ؛ سمي بذلك لأنه يُقضَب أي يُقطَع بعد ظهوره مرة بعد مرة . قال القتبي وثعلب : وأهل مكة يسمون القَتّ القَضْب . وقال ابن عباس : هو الرُّطَب لأنه يُقضَب من النخل ؛ ولأنه ذكر العنب قبله . وعنه أيضا : أنه الفِصْفِصَة وهو القَتّ الرَّطْب . وقال الخليل : القَضْب الفِصفِصة الرَّطْبة . وقيل : بالسين فإذا يبست فهو قَتّ . قال : والقَضْب اسم يقع على ما يُقضَب من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قِسيّ . ويقال : قضبا يعني جميع ما يقضب مثل القَتّ والكرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية والموضع الذي ينبت فيه مَقْضَبَةٌ . ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَائِقَ﴾ أي

---

(١) في نسخة : قرأ بعض القراء .

(٢) آبك : أتاك . الريب : صروف الدهر .

(٣) السلت (بالضم) : ضرب من الشعير .

بساتين واحدها حديقة . قال الكلبي : وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة . ﴿ غُلْباً ﴾ عظاما شجرها ؛ يقال : شجرة غَلْبَاءُ، ويقال للأسد الأغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعا ؛ قال العجّاج :

ما زالتْ يومَ البَيْنِ أَلْوِي صَلَبِي * والرأسَ حتّى صِرْتُ مِثْلَ الأَغْلَبِ

ورجل أغلب بيِّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة . والأصل في الوصف بالغُلْب الرِّقابُ فأستعير ؛ قال عمرو بن معدي كَرِب :

يمشِي بها غُلْبُ الرِّقابِ كأنَّهمْ * بُزْلٌ كُسِينَ مِنَ الكُحَيْلِ جِلالا(١)

وحديقة غَلْباء ملتفّة وحدائق غُلْب . وٱغْلَوْلَبَ العُشْبُ بلغ وٱلتفّ البعض بالبعض . قال ٱبن عباس : الغُلْب جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ . وعنه أيضا الطوال . قتادة وٱبن زيد : النخل الكرام . وعن ٱبن زيد أيضا وعِكرمة : عظام الأوساط والجذوع . مجاهد : ملتفة . ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرهما . ﴿ وَأَبّاً ﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشْب ؛ قال ٱبن عباس والحسن : الأبّ كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، وما يأكله الآدميون هو الحصيد ؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

له دَعوةٌ مَيْمونةٌ رِيحُها الصَّبَا * بها يُنْبِتُ الله الحَصِيدةَ والأَبّا

وقيل : إنما سمي أبّاً ؛ لأنه يُؤَبّ أي يُؤَمّ ويُنْتجع . والأَبُّ والأمُّ أخوان ؛ قال :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا * ولنا الأَبُّ بِهِ والمَكْرَعُ(٢)

وقال الضحاك : الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض . وكذا قال أبو رزين : هو النبات ؛ يدل عليه قول ٱبن عباس قال : الأبّ ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

(١) الكحيل : نوع من القطران تطلى به الإبل للجرب ولا يستعمل إلا مصغرا . وجل الدابة : الذي تلبسه لتصان به والجمع جلال وأجلال .

(٢) الجذم (بكسر الجيم) : الأصل . والمكرع : مفعل من الكرع أراد به الماء الصالح للشرب .

وعن ابن عباس أيضا وابن أبي طلحة : الأبّ الثمار الرّطبة . وقال الضحاك : هو التين خاصة . وهو محكى عن ابن عباس أيضا ؛ قال الشاعر :

فما لهم مرتع للسّوا(١) * م والأبّ عندهم يقدر

الكلبيّ : هو كل نبات سوى الفاكهة . وقيل : الفاكهة رطب الثمار والأبّ يابسها . وقال إبراهيم التيميّ : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأبّ فقال : أيّ سماء تظلّني وأيّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعمرُ الله التكلّف وما عليك يا ابن أم عمر ألّا تدرى ما الأبّ ، ثم قال : اتبعوا ما بُيّن لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خُلقتم من سبع ورُزقتم من سبع فاسجدوا لله على سبع" وإنما أراد بقوله : "خُلقتم من سبع" يعنى «مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ» الآية ، والرزق من سبع وهو قوله تعالى : «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا» إلى قوله : «وَفَاكِهَةً» ثم قال : «وَأَبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم وأنه مما تختص به البهائم . والله أعلم . ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ نصب على المصدر المؤكد ؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات . وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم ؛ كنبات الزرع بعد دثوره كما تقدم بيانه في غير موضع . ويتضمن امتنانا عليهم بما أنعم به وقد مضى في غير موضع أيضا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

(١) السوام والسائمة : المال الراعى من الإبل والغنم وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة و بالإنفاق مما آمتن به عليهم . والصّاخّة الصيحة التى تكون عنها القيامة وهى النفخة الثانية ، تُصِيخ الأسماعَ أى تُصِمّها فلا تسمع إلا ما يدعى به للإحياء . وذكر ناس من المفسرين قالوا : تُصِيخ لها الأسماع من قولك أصاخ إلى كذا أى آستمع إليه ؛ ومنه الحديث : "ما من دابة إلا وهى مُصِيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلّا الجنّ والإنس".
وقال الشاعر :

يُصِيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْمَاعَهُ * إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل ؛ قال الخليل : الصّاخّة صيحة تَصُخُّ الآذانَ صَخًّا أى تُصِمُّها بشدة وقعتها . وأصل الكلمة فى اللغة الصكّ الشديد . وقيل : هى مأخوذة من صخه بالحجر إذا صكّه ؛ قال الراجز :

يا جَارَتِى هَلْ لَكِ أَنْ تُجالِدِى * جِلَادَةً كالصَّكِّ بالجَلَامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صخّتهم الصاخه و باتتهم البائنة وهى الداهية . الطبرى : وأحسبه من صَخّ فلانٌ فلانا إذا أصمّه . قال آبن العربى : الصاخة التى تورث الصمم، وإنها لَمُسْمِعة وهذا من بديع الفصاحة ، حتى لقد قال بعض حديثى الأسنان حديثى الأزمان :

* أَصَمّ بِكَ النّاعِى وإنْ كانَ أَسْمَعا *

وقال آخر :

أَصَمَّنِى سِرُّهُمْ أيامَ فُرْقَتِهم * فَهَلْ سَمِعْتُم بِسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما

ولَعمر الله إنّ صيحة القيامة لَمُسْمِعة تُصِمُّ عن الدنيا وتُسْمِـع أُمور الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ أى يهرب أى تجىء الصاخة فى هذا اليوم الذى يهرب فيه من أخيه ؛ أى من موالاة أخيه ومكالمته ؛ لأنه لا يتفرغ لذلك لاشتغاله بنفسه ، كما قال بعده : ﴿ لِكُلِّ آمْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى يشغله عن غيره . وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه لما بينهم من التبعات . وقيل : لئلا يروا ما هو

فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا ؛ كما قال : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا » . وقال عبد الله بن طاهر الأبهرى : يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك فى الدنيا لما آعتمد شيئا سوى ربه تعالى . ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أى زوجته . ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أى أولاده .

وذكر الضحاك عن آبن عباس قال : يفرّ قابيل من أخيه هابيل ، ويفرّ النبي صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من آبنه ، ولوط من آمرأته ، وآدم من سوأة بنيه . وقال الحسن : أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأوّل من يفرّ من آبنه نوح ، وأوّل من يفرّ من آمرأته لوط . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ . ﴿ لِكُلِّ آمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يُحشر الناسُ يوم القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . خرجه الترمذى عن آبن عباس أن النبي صلى عليه وسلم قال : " يحشرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا " فقالت آمرأة : أينظر بعضنا — أو بعضنا يرى — عورة بعض؟ قال : " يافلانة " " لكل آمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " قال : حديث حسن صحيح . وقراءة العامة بالغين المعجمة ؛ أى حال يشغله عن الأقرباء . وقرأ آبن محيصن وحميد « يَعْنِيهِ » بفتح الياء وعين غير معجمة ؛ أى يعنيه أمره . وقال القتبي : يعنيه يصرفه ويصدّه عن قرابته ؛ ومنه يقال : آعْنِ عنّى وجهك أى آصرفه وآعْنِ عن السّفيه ؛ قال خُفَاف :

سَيَعْنِيك حَرْبُ بنى مالكٍ ﴿ عن الفُحْش والجهْلِ فى المَحْفِلِ

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ أى مشرقة مضيئة قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهى وجوه المؤمنين . ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ أى مسرورة فرحة . ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى بما

أتاها الله من الكرامة . وقال عطاء الخُراسانى : « مُسْفِرَةٌ » من طول ما آغبرّت فى سبيل الله جل ثناؤه . ذكره أبو نُعَيم . الضحاك : من آثار الوضوء . آبن عباس : من قيام الليل؛ لما روى فى الحديث : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" يقال : أسفر الصبح إذا أضاء . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أى غبار ودخان ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أى تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أى كسوف وسواد . كذا قال آبن عباس . وعنه أيضا : ذِلّة وشِدّة . والقَتَر فى كلام العرب الغُبار جمع القترة عن أبى عبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مُتَوَّجٌ بِرِداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ * مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ والقَتَرَا

وفى الخبر : إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب فى وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم : القَتَرَة ما آرتفعت إلى السماء ، والغَبَرَة ما آنحطت إلى الأرض ، والغبار والغبرة واحد . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ ﴾ جمع كافر ﴿ الْفَجَرَةُ ﴾ جمع فاجر وهو الكاذب المفترى على الله تعالى . وقيل : الفاسق ؛ [يقال] : فجر فجورا أى فسق وفجر أى كذب ، وأصله الميل والفاجر المائل . وقد مضى بيانه والكلام فيه والحمد لله وحده .

ســورة التكوير

مكية فى قول الجميع وهى تسع وعشرون آية

وفى الترمذى : عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سره أن ينظر إلىّ يوم القيامة [كأنه رأى عين][(١)] فليقرأ إذا الشمس كورت و إذا السماء آنفطرت و إذا السماء آنشقت " قال : هذا حديث حسن [غريب] .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال ابن عباس : تكويرها إدخالها فى العرش . الحسن : ذهاب ضوئها . وقاله قتادة ومجاهد ؛ وروى عن ابن عباس أيضا . سعيد بن جبير : غُوِّرَتْ . أبو عبيدة : كُوِّرت مثل تكوير العمامة تُلَفّ فتُمْحَى . وقال الربيع بن خُثَيْم : « كُوِّرَتْ » رُمِى بها ؛ ومنه كَوَّرْتُه فتكَوَّر أى سقط .

قلت : وأصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يَكُورُها أى لاثها وجمعها فهى تُكَوَّر ويُمْحَى ضوءها ثم يُرْمَى بها فى البحر . والله أعلم . وعن أبى صالح : كُوِّرت نكست . ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى تهافتت وتناثرت . وقال أبو عبيدة : انصبت كما ينصبّ العُقاب إذا انكسرت . قال العَجّاج يصف صقرا[1] :

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ * تَقَضِّىَ الْبَازِى إِذَا الْبَازِى كَسَرْ

(١) هكذا البيت فى نسخ الأصل التى بأيدينا والذى فى ديوان العجاج رواية الأصمعى نسخة الشنقيطى : قال يمدح عمرو بن عبيد الله بن معمر : قد جبر الدين الاله فجبر . إلى أن قال :

دانى جناحيه من الطور فمر * تقضى البازى إذا البازى كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر * شاكى الكلاليب إذا أهوى اطفر

الطور الجبل وعنى هنا الشام ، يقول : انقض ابن معمر انقضاضة من الشام انقضاض البازى ضم جناحيه . وخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى ، والكلاليب المخالب ، واطفر أصله اظتفر فأبدلت التاء طاء فأدغمت فى الظاء .

وروى أبو صالح عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا " يعني الأرض . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : تساقطت؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها . ويحتمل أن يكون آنكدارها طمس آثارها . وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها . وعن آبن عباس أيضا : آنكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها . والمعنى متقارب . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء؛ وهو مثل قوله تعالى : «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» . وقيل : سيرها تحولها عن منزلة الحجارة فتكون كثيبا مهيلا أي رملا سائلا، وتكون كالعهن، وتكون هباء منثورا ، وتكون سرابا مثل السَّراب الذي ليس بشيء . وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . وقد تقدم في غير موضع والحمد لله . ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها؛ الواحدة عشراء أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك آسمها حتى تضع وبعد ما تضع أيضا . ومن عادة العرب أن يسموا الشيء بآسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح : هاتوا مهري وقربوا مُهْري يسميه بمتقدم آسمه ؛ قال عَنْترة :

لا تَذْكُرِي مُهْرِي وما أَطْعَمْتُهُ * فَيكونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ

وقال أيضا :

* وحَمَلْتُ مُهْرِي وَسْطَها فَمَضَاها [(١)] *

وإنما خص العِشار بالذكر؛ لأنها أعزّ ما تكون على العرب وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة . وهذا على وجه المثل ؛ لأن في القيامة لاتكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ؛ أن هول

(١) صدره : * وضربت قرني كبشها فتجدلا *

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها وآشتغل بنفسه . وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم لم يعبئوا بها ولم يهمهم أمرها . وخوطبت العرب بأمر العشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل . وروى الضحاك عن آبن عباس : عُطِّلَتْ عطلها أهلها لآشتغالهم بأنفسهم . وقال الأعشى :

هُوَ الواهِبُ المائةَ المُصْطَفا * ةَ إمَّا مَخَاضًا وإمَّا عِشارا

وقال آخر :

تَرَى المَرْءَ مَهْجورا إذا قَلَّ مالُه * وبَيْتُ الْغَنِيِّ يُهْدَى لَهُ ويُزَارُ
وما يَنفَعُ الزُّوَارَ مالُ مَزُورِهِم * إذا سُرِّحَتْ شُوَّلٌ(١) له وعِشارُ

يقال : ناقة عشراء وناقتان عشراوان ونوق عِشار وعشراوات يبدلون من همزة التأنيث واوا . وقد عَشَّرت الناقةُ تعشيرا أي صارت عَشْراء . وقيل : العشار السحاب يُعطَّل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تُعطَّل فلا تُسكَن . وقيل : الأرض التي يُعشَّر زرعُها تُعطَّل فلا تُزرَع . والأول أشهر وعليه من الناس الأكثر . ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت والحشر الجمع . عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقال آبن عباس : حشرها موتها . رواه عنه عكرمة . وحَشْر كل شيء الموتُ غير الجن والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة . وعن آبن عباس أيضا قال : يحشر كل شيء حتى الذباب . قال آبن عباس : تحشر الوحوش غدا ؛ أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها كوني ترابا فتموت . وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة ، وقد بيناه في كتاب « التذكرة » مستوفى ، ومضى في سورة « الأنعام »(٢) بعضه . أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم . وقيل : عنى بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبددها

(١) في نسخة : بزل . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢١

فى الصحارى ، تنضم غدا إلى النـاس من أهوال ذلك اليوم . قال معناه أبيّ بن كعب .
﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أى ملئت من المـاء ؛ والعـرب تقول : سَجَرتُ الحوض أَسجُره سَجْرا إذا ملأته وهو مسجور، والمسجور والساجر فى اللغة الملآن . وروى الربيع بن خيثم : سُجِّـرت فاضت وملئت . وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . قال ٱبن أبى زمنين : سُجِّرَتْ حقيقته ملئت فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا . وهو معنى قول الحسن . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى ٱمتلأت . عن الضحاك ومجاهد : أى فجرت فصارت بحرا واحدا . القشيرى : وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذى ذكره فى قوله تعـالى : « بَيْنَهُـمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الأرض كلها ، وصارت البحار بحرا واحدا . وقيـل : صارت بحرا واحدا من الحميم لأهـل النار . وعن الحسن أيضا وقتادة وٱبن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة . القشـيرى : وهو من سَجَرتَ التّنور أَسجُره سَجْرا إذا أحميتـه ، وإذا سُلِّط عليـه الإيقاد نشف ما فيـه من الرطوبة ، وتُسَـيَّر الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا ، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقـد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تيبّس من المـاء بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا .

قلت : ثم تسير الجبال حينئذ كما ذكر القشيرى والله أعلم . وقال ٱبن زيد وشمر وعطية وسفيان ووهب وأُبيّ وعليّ بن أبى طالب وٱبن عبـاس فى رواية الضحاك عنـه : أوقدت فصارت نارا . قال ٱبن عبـاس : يكوِّر الله الشمس والقمر والنجوم فى البحر ، ثم يبعث الله عليها ريحا دَبُورا فتنفخه حتى يصير نارا . وكذا فى بعض الحديث : "يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرن فى البحر ثم يبعث الله جل ثناؤه الدَّبور فيسجرها نارا فتـلك نار الله الكبرى التى يُعـذَّب بها الكفار" . قال القشيرى : قيل فى تفسـير قول ٱبن عباس « سُجِّـرَتْ » أوقدت يحتمل أن تكون جهنم فى قعور من البحار ، فهى الآن غير مسـجورة لقوام الدنيا ، فإذا ٱنقضت الدنيـا سجرت فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها . ويحتمل أن تكون تحت البحر نار ، ثم يوقـد الله البحر كله فيصـير نارا . وفى الخبر : البحر نار فى نار .

وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسط الأرض أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة . وقيل : تكون الشمس في البحر، فيكون البحر نارا بحرّ الشمس . ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة .

قلت : روى عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال أبيّ بن كعب : ست آيات من قبل يوم القيامة ؛ بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واحترقت فصارت هباء منثورا ، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس، واختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ثم قالت الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السّفلى ، وإلى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم . وقيل : معنى « سُجِّرَتْ » هو حمرة مائها حتى تصير كالدم؛ مأخوذ من قولهم : عين سجراء أي حمراء . وقرأ ابن كثير « سُجِرَتْ » وأبو عمرو أيضا إخبارا عن حالها مرة واحدة . وقرأ الباقون بالتشديد إخبارا عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبي صلى الله عليه وسلم « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قال : "يُقْرَن كُلُّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله". وقال عمر بن الخطاب : يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح . وقال ابن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج — يعني صنفا — وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج . وعنه أيضا قال : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرن الكافر بالشياطين وكذلك المنافقون . وعنه أيضا : قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار،

فيضم المبرِّز فى الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهـل المعصية إلى مثله ؛ فالتزويج أن يقرن الشيء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها فى الجنـة والنار . وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان ، كما قال تعـالى : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُـمْ » . وقال عبـد الرحمن بن زيد : جعلوا أزواجا على أشـباه أعمالهم ليس بتزويج ، أصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ؛ وقد قال جل ثناؤه : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشكالهم . وقال عكرمة : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قرنت الأرواح بالأجساد ؛ أى ردت إليها . وقال الحسن : ألحق كل آمرئ بشيعته ؛ اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين . وقيـل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شـيطان أو إنسان على جهة البغض والعـداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها فصارت لاختصاصها به كالتزويج .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة المقتولة ؛ وهى الجارية تدفن وهى حية ، سميت بذلك لمـا يطرح عليها من التراب فيؤودها أى يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا » أى لا يثقله ؛ وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرَة :

وموءودةٍ مقبورةٍ فى مَفَازَةٍ * بآمَتِها مَوْسُـودةٍ لم تُمَهَّـدِ[1]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصْلتين ؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق ، وإما خوفا من السبى والآسترقاق . وقد مضى

---

(١) كذا روى البيت ونسب إلى متمم بن نويرة فى الأصـول ، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (عوز) إلى حسان رضى الله عنه وروى فيهما :

وموءودة مقرورة فى معـاوز * بآمتهـا مرموسة لم توسَّـد

والآمة : ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه . والمعاوز : خرق يلف بها الصبى .

فى سورة «النحل»(١) هذا المعنى عند قوله تعالى : « أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » مستوفى . وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، و يمنعون منه حتى ٱفتخر به ٱلفرزدق، فقال :

ومنّا(٢) الّذى مَنَعَ الوَائِداتِ * فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ يُوأَدِ

يعنى جَدّه صَعْصَعة كان يشتريهن من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال ٱبن عباس : كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتمخضت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة وردّت التراب عليها ، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمَّيْتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ * والقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زِمِّيتُ

الزِّمِّيت الوقور ، والزِّميت مثال الفِسِّيق أَوْقَر من الزِّمِيت ، وفلان أزمت الناس أى أوقرهم ، وما أشد تَزَمُّته ، عن الفراء . وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم ٱبنته و يغذو كلبه ، فعاتبهم الله على ذلك وتوعّدهم بقوله : «وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» قال عمر فى قوله تعالى «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» قال : جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله! إنى وأدت ثمان بنات كنّ لى فى الجاهلية ، قال : "فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة" قال : يا رسول الله إنى صاحب إبل ، قال : "فأهد عن كل واحدة منهنّ بَدَنة إن شئت" . وقوله تعالى : «سُئِلَتْ» سؤال الموءودة سؤال توبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضُرِب لم ضُرِبت وما ذنبك؟ قال الحسن : أراد الله أن يوبّخ قاتلها ، لأنها قُتِلت بغير ذنب . وقال ٱبن أسلم : بأى ذنب ضُرِبت وكانوا يضربونها . وذكر بعض أهل العلم فى قوله تعالى « سُئِلَتْ » قال : طُلِبت ، كأنه يريد كما يُطْلَب بدم القتيل . قال : وهو كقوله : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى مطلوبا . فكأنها طُلِبت منهم ، فقيل أين أولادكم ؟ ! وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبى صالح « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » فتتعلق الجارية بأبيها فتقول : بأىّ ذنب

(١) رجع جـ ١٠ ص ١١٧

(٢) و يروى : وجدّى الذى منع الوائدات ... الخ .

قتلتني؟ ! فلا يكون له عذر ؛ قاله ابن عباس وكان يقرأ « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » وكذلك هو في مصحف أُبَيّ . وروى عِكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بثدييها ملطخا بدمائه فيقول يا ربّ هذه أمي وهذه قتلتني " والقول الأوّل عليه الجمهور ، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » على جهة التوبيخ والتبكيت لهم ، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها ، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها ؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب ، فبأيّ ذنب كان ذلك ، فإذا ظهر أنه لاذنب لها كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها . والله أعلم . وقرئ «قُتِّلَتْ» بالتشديد وفيه دليل بيِّن على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون ، وعلى أن التعذيب لا يُستحَق إلا بذنب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أي فتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر ، تطوى بالموت وتنشر في القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول : « مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » . وروى مرثد بن وداعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» إلى قوله : «الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » وتقع صحيفة الكافر في يده « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » إلى قوله : وَلَا كَرِيمٍ » . وروى عن أمّ سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة حُفَاةً عُراةً" فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء؟ قال : " شُغِلَ الناسُ يا أمّ سلمة " قلت : وما شَغَلهم ؟ قال : " نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " . وقد مضى في سورة « سبحان »[1] قول أبي السوّار العدوي : هما نشرتان وطية ، أما ماحييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا مِتّ طُوِيت ، حتى إذا بعثت نشرت « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » . وقال مقاتل : إذا مات المرء طويت صحيفة عمله فإذا كان يوم القيامة نشرت . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٠

الأمر يا بن آدم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو « نُشِرَتْ » مخففة على نشرها مرة واحدة لقيام الحجة . الباقون بالتشديد على تكرار النشر للمبالغة في تقريع العاصي وتبشير المطيع . وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ الكشط قلع عن شدة التزاق ؛ فالسماء تُكشَط كما يُكشَط الجلد عن الكبش وغيره ، والقشط لغة فيه . وفي قراءة عبد الله « وَإِذَا السَّمَاءُ قُشِطَتْ » وكشطت البعير كشطا نزعت جلده ، ولا يقال سلخته ؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلّدته وانكشط أي ذهب ؛ فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء . وقيل تطوى كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » فكأن المعنى قلعت فطويت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها . يقال : سعرت النار وأسعرتها . وقراءة العامة بالتخفيف من السعير . وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سعّرها غضبُ الله وخطايا بني آدم . وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة " وروي موقوفا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي أدنيت وقربت من المتقين . قال الحسن : إنهم يقربون منها ؛ لا أنها تزول عن موضعها . وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : زينت[1] والزلفى في كلام العرب القربة ؛ قال الله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ » وتزلف فلان تقرب .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ يعني ما عملت من خير وشر . وهذا جواب « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » وما بعدها . قال عمر رضي الله عنه : لهذا أجرى الحديث . وروى

(١) في نسخة : أدنيت .

عن ابن عباس وعمر رضى الله عنهما أنهما قرآاها فلما بلغا « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » قالا لهذا أجريت القصة ؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء علمت نفس ما أحضرت من عملها . وفى الصحيحين عن عدىّ بن حاتم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه و بينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه [وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم](١) بين يديه فتستقبله النار فمن آستطاع منكم أن يتق النار ولو بشق تمرة فليفعل " وقال الحسن : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » قسم وقع على قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » كما يقال : إذا نفر زيد نفر عمرو . والقول الأوّل أصح . وقال آبن زيد عن آبن عباس فى قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » آثنتا عشرة خَصْلة ؛ ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبىّ بن كعب .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أى أقسم و « لا » زائدة كما تقدم . ﴿ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ ﴾ هى الكواكب الخمسة الدرارى: زُحَل والمشترى وعُطَارِد والمرّيخ والزُّهَرة ؛ فيما ذكر أهل التفسير . والله أعلم . وهو مروىّ عن علىّ كرم الله وجهه . وفى تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما — لأنها تستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المزنى . الثانى — لأنها تقطع المجرّة ؛ قاله آبن عباس . وقال الحسن وقتادة: هى النجوم التى تخْنِس

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

بالنهار و إذا غربت، وقاله عليّ رضى الله عنه قال : هى النجوم تخنِس بالنهار وتظهر بالليل؛ وتكنِس فى وقت غروبها،أى تتأخر عن البصر لخفائها فلا تُرَى. وفى الصحاح: و «الخُنَّس» الكواكب كلها . لأنها تخنِس فى المغيب ، أو لأنها تخفى نهارا . ويقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء فى قوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ» إنها النجوم الخمسة،زُحَل والمشترى والمرِّيخ والزُّهَرة وعُطَارد،لأنها تخنِس فى مجراها،وتكنِس أى تستتر كما تكنِس الظِّباء فى المغار وهو الكناس. ويقال: سميت خُنَّسا لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم؛ يقال : خَنَس عنه يخنُس بالضم خنوسا تأخر، وأخنسه غيره إذا خَلَّفه ومضى عنه . والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع آرتفاع قليل فى الأرنبة ، والرجل أخنس والمرأة خنساء والبقر كلها خُنْس . وقد روى عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ» هى بقر الوحش . روى هشيم عن زكريا عن أبى إسحق عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل ، قال قال لى عبد الله بن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخنّس ؟ قلت : هى بقر الوحش؛ قال : وأنا أرى ذلك . وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله . وروى عن آبن عباس : إنما أقسم الله ببقر الوحش . وروى عنه عكرمة قال : «الخنّس» البقر و «الكُنَّس» هى الظِّباء ، فهى خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْن وآنقبضْن وتأخرن ودخلن كناسهنّ . القشيرى : وقيل على هذا «الخنّس» من الخَنَس فى الأنف وهو تأخير الأرنبة وقصر القصبة ، وأنوف البقر والظباء خُنْس . والأصح الحمل على النجوم لذكر الليل والصبح بعد هذا ، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان و جماد ، وإن لم يُعلَم وجهُ الحكمة فى ذلك . وقد جاء عن آبن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنَّخعى أنها بقر الوحش . وعن آبن عباس وسعيد بن جبير أنها الظِّباء . وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكنّس ، فقال : الظِّباء والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد

النجوم . وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماوردي . والكنّس الغُيَّب ؛ مأخوذة من الكِناس وهو كِناس الوحش الذي يختفي فيه . قال أَوْس بن حَجَر :

أَلم تر أنّ الله أنزل مُزْنَةً * وعُفْرُ الظِّباء في الكِناس تَقَمَّعُ (١)

وقال طَرَفة :

كأنّ كِناسَيْ ضالةٍ يَكْنُفانها * وأَطْرَ قِسِيٍّ تحت صُلْبٍ مُؤَيَّدِ (٢)

وقيل : الكُنوس أن تأوى إلى مكانسها ، وهي المواضع التي تأوى إليها الوحوش والظِّباء . قال الأعشى :

فلما أتينا الحيَّ أتْلَعَ أُنَّسٌ * كما أَتْلَعَتْ تحت المَكانِسِ رَبْرَبُ

يقال : تَلَعَ النهارُ ارتفع وأَتْلَعت الظَّبيةُ من كِناسها أي سمت بجيدها . وقال امرؤ القيس :

تَعَشَّى قليلاً ثم أَنْحَى ظُلُوفَهُ (٣) * يُثِيرُ التُّرابَ عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ

والكنس جمع كانس وكانسة ، وكذا الخنس جمع خانس وخانسة . والجوارى جمع جارية من جرى يجرى . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ؛ حكاه الجوهري . وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض . المهدوي : «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ» أدبر بظلامه ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وروى عنهما أيضا وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه . زيد بن أسلم : «عَسْعَسَ» ذهب . الفراء : العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير . الخليل وغيره : عسعس الليلُ إذا أقبل أو أدبر . المبرد : هو من الأضداد والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ؛ وقال عَلْقَمة بن قُرْط :

حَتَّى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسَا * وانجابَ عنها لَيْلُها وعَسْعَسَا

(١) تقمع : تحرك رءوسها من القمعة ؛ وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسعها .

(٢) قال : «كناسى» لأن الحيوان يستكن بالغداة في ظلها وبالعشي في فيئها . والضال : السدر البرى الواحدة ضالة . والأطر : العطف . والمؤيد : المقوى . يقول الشاعر : كأن كناسى ضالة يكنفان هذه الناقة لسعة ما بين مرفقيها وزورها .

(٣) تعشى : دخل في العشاء وهو أول الليل . ظلوفه : حوافره .

وقال رُؤْبة :

يا هِنــدُ ما أسرعَ ما تَعَسْعَسَا * مِن بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعا (١)

وهذه حجة الفراء . وقال ٱمرؤ القيس (٢) :

عَسْعَسَ حتى لو نشــاءُ ٱدَّنَا * كان لنا مِن نارِهِ مَقْبَسُ

فهذا يدل على الدُّنو . وقال الحسن ومجاهد : عسعس أظلم ؛ قال الشاعر :

حتّى إذا ما لَيْلُهُنَّ عَسْعَسَا * رَكِبْنَ مِن حَدِّ الظَّلامِ حِنْدِسَا

المــاوردىّ : وأصل العَسّ الأمتلاء ؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسٌّ لأمتلائه بمــا فيه فأطلق على إقبال الليــل لأبتداء ٱمتلائه ؛ وأطلق على إدباره لأنتهاء ٱمتلائه على ظـلامه ؛ لأستكمال ٱمتلائه به . وأما قول ٱمرئ القيس :

* ألمــا على الربــع القديم بِعسعسا (٣) *

فموضع بالبادية . وعَسْعَسٌ أيضا ٱسم رجل؛ قال الراجز :

* وعَسْعَسٌ نِعْــمَ الفــتى تَبَيَّاهْ *

أى تعتمده . ويقال للذئب العَسْعَس والعَسْعاس والعَسَّاس ؛ لأنه يَعُسّ بالليل ويطلب . ويقال للقنافذ العَسَاعِس لكثرة ترددها باللّيــل . قال أبو عمــرو : والتعسعس الشم ؛ وأنشـــد :

* كمنخر الذِّئب إذا تَعَسْعَسَا *

والتَّعَسْعُس أيضا طلب الصيد [بالليل] (٤) .

---

(١) تسعسعا : أدبر وفنى ؛ والسرعرع : الشاب الناعم .

(٢) كذا فى الأصول كلها ولم نجده فى ديوانه . وفى اللسان : كان له من ضوئه مقبس ، ثم قال : أنشده أبو البلاد النحوى وقال : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع . وٱدنا أصله : إذ دنا فأدغم .

(٣) تمامه : * كأنى أنادى أو أكلم أخرسا *

(٤) الزيادة من الصحاح .

قوله تعـالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى آمتـدّ حتى يصير نهارا واضحا ؛ يقال للنهار إذا زاد تنفس . وكذلك الموج إذا نَضَح المـاءَ . ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف . وقيـل : « إِذَا تَنَفَّسَ » أى آنشق وآنفلق ؛ ومنه تَنَفَّست القوسُ(١) أى تَصدَّعت . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هـذا جواب القسم . والرسـول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتـادة والضحاك . والمعنى « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ » عن الله « كَرِيمٍ » على الله . وأضاف الكلام إلى جبريل عليـه السلام ثم عَدّاه عنـه بقوله « تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ليعلم أهـل التحقيق فى التصديق أن الكلام لله عز وجل . وقيـل : هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ مَنْ جعله جبريلَ فقوّته ظاهرة؛ فروى الضحاك عن آبن عباس قال : من قوّته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه . ﴿ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ ﴾ أى عند الله جل ثنـاؤه ﴿ مَكِينٍ ﴾ أى ذى منزلة ومكانة ؛ فروى عن أبى صالح قال : يدخل سبعين سُرَادِقا بغـير إذن . ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى فى السموات ؛ قال آبن عباس : من طاعة الملائكة جبريل أنه لمـا أسرى برسـول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان :آفتح له ففتح فدخل ورأى ما فيها ، وقال لمـالك خازن النار : آفتح له جهنم حتى ينظر إليها فأطاعه وفتح له . ﴿ أَمِينٍ ﴾ أى مؤتمن على الوحى الذى يجىء به . ومن قال : إن المـراد محمد صلى الله عليه وسـلم فالمعنى « ذِى قُوَّةٍ » على تبليغ الرسالة « مُطَاعٍ » أى يطيعه من أطاع الله جل وعز . ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعـنى محمدا صلى الله عليه وسـلم ليس بمجنون حتى يتهـم فى قوله . وهو من جواب القسم . وقيل : أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربه جل وعز فقال : ماذاك إلىّ ؛ فأذن له الربّ جلّ ثناؤه فأتاه وقد سدّ الأفق ، فلما نظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه ، فقال المشركون : إنه مجنون ، فنزلت : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » وإنمـا رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بِنْيَته فخرّ مغشيا عليه .

---

(١) فى نسخ الأصل : تنفست القوس والنفوس أى تصدّعت . والألفة لا ذكرفيها لكلمة النفوس ولعلها زيادة من الناسخ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أي رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح « بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » أي بمطلع الشمس من قِبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين . أي من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها؛ قال الشاعر :

أَخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عَلَيْكُمُ * لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ

الماوردي : فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها أنه رآه في أفق السماء الشرقي ؛ قاله سفيان . الثاني في أفق السماء الغربي ، حكاه ابن شجرة . الثالث أنه رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ؛ قاله مجاهد . وحكى الثعلبي عن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : " إني أحبّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء " قال : لن تقدر على ذلك . قال : "بلى" قال : فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال : " بالأبطح " قال : لا يسعني . قال : " فبمِنًى " قال : لا يسعني . قال : " فبعرفات " قال : ذلك بالحرى أن يسعني . فواعده فخرج النبي صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخَشْخشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عرفات ، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه ، فتحول جبريل في صورته وضمه إلى صدره . وقال : يا محمد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وأن العرش على كاهله ، وأنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع — يعني العصفور — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إن محمدا

عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين . وهو معنى قول ابن مسعود . وقد مضى القول في هذا في « والنجم »(١) مستوفى فتأمله هناك . وفي « المبين » قولان : أحدهما أنه صفة الأفق؛ قاله الربيع . الثاني أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد . ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ بالظاء قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي أي بمتهم والظِّنة التهمة؛ قال الشاعر :

أَمَا وكِتابِ اللهِ لا عن شَناءَةٍ * هُجِرْتُ ولَكِنَّ الظَّنِينَ ظَنِينُ

واختاره أبو عبيد؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كَذَّبوه ؛ ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا، ولا يقولون : ما هو على كذا ، إنما يقولون : ما أنت على هذا بمتهم . وقرأ الباقون « بِضَنِينٍ » بالضاد أي ببخيل من ضَنِنت بالشيء أَضَنّ ضنًّا [فهو] ضَنِين . فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : لا يضنّ عليكم بما يَعلَم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقال الشاعر :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الحديثِ وإنَّنِي * بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَالَنِي لَضَنِينُ

والغيب القرآن وخبر السماء . ثم هذا صفة محمد عليه السلام . وقيل : صفة جبريل عليه السلام . وقيل : بظنين بضعيف . حكاه الفراء والمبرد؛ يقال : رجل ظَنِين أي ضعيف . وبئر ظَنُون إذا كانت قليلة الماء؛ قال الأعشى :

ما جُعِلَ الجُدُّ الظَّنُونُ الذي * جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الماطِرِ

مِثْلَ الفُرَاتِيِّ إذا ما طَمَا * يَقْذِفُ بالبُوصِيِّ والماهِرِ(٢)

والظَّنُون الدَّين الذي لا يدرى أيقضيه آخذه أم لا؛ ومنه حديث علي عليه السلام في الرجل يكون له الدَّين الظَّنون قال : يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا . والظَّنُون الرجل

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٩٤ وقول ابن مسعود هناك هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل والذى قال بأنه رأى ربه هو ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الجد : البئر تكون فى موضع كثير الكلأ . الفراتى : المنسوب إلى الفرات . والبوصى : ضرب من سفن البحر، والملاح أيضا . والماهر : السابح .

السيء الخلق؛ فهو لفظ مشترك . ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أى مرجوم ملعون كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبي صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ قال قتادة : فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته . كذا روى معمر عن قتادة؛ أى أين تذهبون عن كتابى وطاعتى . وقال الزجاج : فأى طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم . ويقال : أين تذهب وإلى أين تذهب . وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ أى إليها . قال : سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة؛ وأنشدنى بعض بنى عقيل :

تَصِيحُ بنا حَنِيفَةُ إذ رأتنا * وأىَّ الأرض تذهبُ بالصِّيَاحِ

يريد إلى أى أرض تذهب فحذف إلى . وقال الجنيد : معنى الآية مقرون بآية أخرى وهى قوله تعالى : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ» المعنى : أىّ طريق تسلكون أبين من الطريق الذى بينه الله لكم . وهذا معنى قول الزجاج . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى موعظة وزجر و«إنْ» بمعنى «ما» . وقيل : ماهو إلا ذكر . ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أى يتبع الحقّ ويقيم عليه . وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم — وهذا هو القدر وهو رأس القدرية — فنزلت : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه . وقال الحسن : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها . وقال وهب بن منبه : قرأت فى سبعة وثمانين (١) كتابا مما أنزل الله على الأنبياء مَنْ جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وفى التنزيل : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وقال تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » والآى فى هذا كثير وكذلك الأخبار وأن الله سبحانه هدى بالإسلام وأضل بالكفر كما تقدم فى غير موضع . ختمت السورة والحمد لله .

(١) فى تفسير الثعلبى : بضعة وثمانين .

سورة الانفطار

مكية عند الجميع وهى تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أى تشققت بأمر الله ؛ لنزول الملائكة ؛ كقوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تفطرت لهيبة الله تعالى . والفَطْر الشقّ ؛ يقال : فَطَرْته فانفطر، ومنه فَطَر نابُ البعيرِ طَلَع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء تَشَقّق، وسيف فُطار أى فيه شقوق ؛ قال عنترة :

وَسَيْفِى كالعَقِيقَةِ وَهْوَ كِمْعِى * سِلَاحِى لا أَفَلَّ ولا فُطَارَا[1]

وقد تقدّم فى غير موضع[2] . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ أى تساقطت ؛ نثرت الشيء أنثره نثرا فانتثر والاسم النِّثار . والنُّثار بالضم ما تناثر من الشيء، ودُرٌّ منثَّر شدّد للكثرة . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أى فُجّر بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا على ما تقدّم . وقال الحسن : فُجّرت ذهب ماؤها و يبست؛ وذلك أنها أوّلا راكدةٌ مجتمعة ، فإذا فُجِّرت تفرّقت فذهب ماؤها . وهذه الأشياء بين يدى الساعة على ماتقدّم فى « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المتاع قلبته ظهرا لبطن ، و بعثرت الحوض و بحثرته إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه . وقال قوم منهم الفرّاء : «بُعْثرت» أخرجت ما فى بطنها من الذهب والفضة . وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض

(١) العقيقة : شعاع البرق الذى يبدو كالسيف . والكمع : الضجيع . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤

ذهبها وفضتها . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ مثل : « يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وتقدّم . وهذا جواب « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » لأنه قسم فى قول الحسن وقع على قوله تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ » يقول : إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك . وقيل : أى إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها . وقيل : هو خبر وليس بقسم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ خاطب بهذا منكرى البعث . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الوليد بن المغيرة . وقال عكرمة : أبىّ بن خلف . وقيل : نزلت فى أبى الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحىّ . عن ابن عباس أيضا : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى ما الذى غرك حتى كفرت « بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى المتجاوز عنك . قال قتادة : غره شيطانه المسلّط عليه . الحسن : غره شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . رواه الحسن عن عمر رضى الله عنه . وروى غالب الحنفى قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » قال : " غره الجهل " وقال صالح بن مسمار : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » فقال : " غره جهله " . وقال عمر رضى الله عنه : كما قال الله تعالى « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » . وقيل : غره عفو الله إذ لم يعاقبه فى أوّل مرة . قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه فقال لك « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غرني ستورك المرخاة ؛ لأن الكريم هو الستار . نظمه آبن السَّمَّاك فقال :

يا كاتمَ الذّنبِ أَمَا تَسْتَحِي * واللهُ في الخَلْوةِ ثانيكا
غَرَّكَ من ربِّكَ إمهالُهُ * وسَتْرُهُ طول مَسَاويكا

وقال ذو النون المصريّ : كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر .

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري :

يا مَنْ غلا في العُجْبِ والتِّيهِ * وغَرَّهُ طُولُ تَمَادِيه
أَمْلَى لك اللهُ فبارزتَهُ * ولم تَخَفْ غِبَّ معاصيه

وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه، فنظر فإذا هو بالباب فقال : مالك لم تجبني ؟ فقال . لثقتي بحلمك وأَمْنِي من عقوبتك . فاستحسن جوابه فأعتقه . وناس يقولون : ما غرك ما خدعك وسوّل لك حتى أضعت ما وجب عليك . وقال آبن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة فيقول له : يابن آدم ماذا غرك بي؟ يآبن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يآبن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ . ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي قدر خلقك من نطفة ﴿فَسَوَّاكَ﴾ في بطن أمك وجعل لك يدين و رجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدلا سويّ الخلق ؛ كما يقال : هذا شيء معدّل . وهذه قراءة العامة وهي آختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي : « فَعَدَلَكَ » مخففا أي أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا . وقال [موسى بن عليّ آبن أبي رباح اللخمي عن أبيه عن جده][1] قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : "إن النطفة

(١) الزيادة من تفسير الثعلبي والطبري والدر المنثور . والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجده "ما ولد لك" قال يا رسول الله وما عسى أن يولد لي ، إما غلام أو جارية . قال "فمن يشبه" قال : فمن يشبه ؟ أمه أو أباه ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم . "لا تقل هكذا إن النطفة ... الحديث" .

إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم " أما قرأت هذه الآية ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : " فيما بينك وبين آدم " [وقال عكرمة وأبو صالح : « فى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »] إن شاء فى صورة إنسان ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وقال مكحول : إن شاء ذكرا وإن شاء أنثى . وقال مجاهد : « فِى أَىِّ صُورَةٍ » أى فى أى شَبَه من أب أو أمٍّ أو عمٍّ أو خالٍ أو غيرهم . و « فى » متعلقة بـ « رَكَّبَكَ » ولا تتعلق بـ « عَدَلَكَ » على قراءة من خفف ؛ لأنك تقول عدلت إلى كذا ولا تقول عدلت فى كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدر « فى » متعلقة بـ « عدلك » و « ما » يجوز أن تكون صلة مؤكدة ؛ أى فى أى صورة شاء ركبك . ويجوز أن تكون شرطية أى إن شاء ركبك فى غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير فـ « ما » بمعنى الشرط والجزاء ؛ أى فى صورة ما شاء أن يركبك ركبك .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ يجوز أن تكون « كَلَّا » بمعنى حقًّا و « أَلَا » فيبتدأ بها . ويجوز أن تكون بمعنى « لا » على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم فى عبادتكم غير الله محقون . يدل على ذلك قوله تعالى : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى ليس كما غررت به . وقيل : أى ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث . وقيل : هو بمعنى الردع والزجر . أى لا تغتروا بحلم الله وكرمه فتتركوا التفكر فى آياته . ابن الأنبارى : الوقف الجيد على « الدِّينِ » وعلى « رَكَّبَكَ » والوقف على « كَلَّا » قبيح . ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ ﴾ يأهل مكة ﴿ بِالدِّينِ ﴾ أى بالحساب و « بل » لنفى شىء تقدم وتحقيق غيره . وإنكارهم للبعث كان معلوما وإن لم يجر له ذكر فى هذه السورة .

قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أى رقباء من الملائكة ﴿ كِرَامًا ﴾ أى علىَّ ؛ كقوله تعالى : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الخراءة أو الجماع فإذا آغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط[1]] أو بغيره أو ليستره أخوه" . وروى عن علىّ رضى الله عنه قال : "لا يزال الملك موليا عن العبد ما دام بادى العورة" وروى "إن العبد إذا دخل الحمام بغير مئزر لعنه ملكاه" .

الثانيـة — وآختلف الناس فى الكفار هل عليهم حفظة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد؛ قال الله تعالى : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » . وقيل : بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » . وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ » وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » فأخبر أن الكفار يكون لهم كتاب ويكون عليهم حفظة . فإن قيل : الذى على يمينه أى شيء يكتب ولا حسنة له ؟ قيل له : الذى يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب . والله أعلم .

الثالثة — سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همّ بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا همّ العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا همّ بسيئة وجدوا منه ريح النتن . وقد مضى فى « ق » عند قوله : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[2] زيادة بيان لمعنى هذه الآية . وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع لمفارقة الملك العبد عند ذلك . وقد مضى فى آخر « آل عمران »[3] القول فى هذا . وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم . وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم . والله أعلم .

---

(١) الزيادة من الدر المنثور وفيه سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلا يغتسل بفلاة من الأرض ... ... الخ .

(٢) راجع ج ١٧ ص ١١

(٣) راجع ج ٤ ص ٣١٠ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ تقسيم مثل قوله : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الآيتين . ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى يصيبهم لهبها وحرّها ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى يوم الجزاء والحساب وكرر ذكره تعظيما لشأنه ، نحو قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وقال آبن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه ، وكل شيء من قوله : « وَمَا يُدْرِيكَ » فقد طوى عنه . ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ قرأ آبن كثير وأبو عمرو « يَوْمُ » بالرفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » أو ردا على اليوم الأوّل فيكون صفة ونعتا لـ« يَوْمَ الدِّينِ » . ويجوز أن يرفع بإضمار هو . الباقون بالنصب على أنه فى موضع رفع إلا أنه نصب ، لأنه مضاف غير متمكن ، كما تقول : أعجبنى يوم يقوم زيد . وأنشد المبرد :

مِنْ أَيِّ يَوْمَيَّ مِنَ المَوتِ أَفِرّْ * أَيَوْمَ لَم يُقْدَرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة عن الترجمة عن اليومين الأوّلين إلا أنهما نصبا فى اللفظ ، لأنهما أضيفا إلى غير محض . وهذا آختيار الفراء والزجاج . وقال قوم : اليوم الثانى منصوب على المحل كأنه قال : فى يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقيل : بمعنى إن هذه الأشياء تكون يوم ، أو على معنى يدانون يوم ؛ لأن الدِّين يدل عليه ، أو بإضمار آذكر . ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ لا ينازعه فيه أحد ، كما قال : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » تمت السورة والحمد لله .

ســورة المطففين

مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ، وهى ست وثلاثون آية

قال مقاتل : وهى أوّل سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان آيات من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » إلى آخرها مكى . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى النسائى عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله تعالى « وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » فأحسنوا الكيل بعد ذلك . قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هى أوّل سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة وكان هـذا فيهم ؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا ، فهم أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا . وقال قوم : نزلت فى رجل يعرف بأبى جهينة واسمه عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما و يعطى بالآخر ؛ قاله أبو هريرة رضى الله عنه .

الثانيـــة — قوله تعالى : « وَيْلٌ » أى شدة عذاب فى الآخرة . وقال ابن عباس : إنه وادٍ فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فهو قوله تعالى : « وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم . وروى عن ابن عمر قال : المطفِّف الرجل يستأجر المكيال

وهو يعلم أنه يحيف فى كيله فوزره عليه . وقال آخرون : التطفيف فى الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث . وفى الموطأ قال مالك : ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف . وروى عن سالم آبن أبى الجعد قال : الصلاة بمكيال فمن أوفى أوفى له ومن طفّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل فى ذلك : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » .

الثالثة — قال أهل اللغة : المطفِّف مأخوذ من الطَّفيف وهو القليل ، والمُطفِّف هو المقل حقّ صاحبه بنقصانه عن الحقّ فى كيل أو وزن . وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مُطفِّف ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ؛ وإنما أخذ من طَفّ الشيء وهو جانبه . وطِفَاف المَكُّوك وطَفَافه بالكسر والفتح ما ملأ أَصْباره وكذلك طَفّ المَكُّوك وطَفَفه ؛ وفى الحديث : "كُلُّكم بنو آدم طَفّ الصاع لَمْ تَمْلَئُوه" وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل ؛ والمعنى بعضكم من بعض قريب فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى . والطُّفَاف والطُّفَافة بالضم ما فوق المكيال . وإناء طَفَّاف إذا بلغ المِلْءُ طفافَه ؛ تقول منه : أطففت . والتطفيف نقص المكيال وهو الا تملأه إلى أَصْباره أى جوانبه ؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أَصْبارها أى إلى رأسها . وقول آبن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سَبْق الخيل : كنت فارسا يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّف بى الفرسُ مسجد بنى زُرَيْق حتى كاد يساوى المسجد . يعنى وَثَب بى .

الرابعة — المطفِّف هو الذى يخسر فى الكيل والوزن ولا يوفى حسب ما بيناه ؛ وروى آبن القاسم عن مالك أنه قرأ « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » فقال : لا تُطفِّف ولا تخلبْ[1] ولكن أرسل وصُبّ عليه صَبًّا حتى إذا آستوفى[2] أرسل يدك ولا تُمسك . وقال عبد الملك بن الماجشون : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطِّفاف ، وقال : إن البركة فى رأسه . قال : وبلغنى أن كيل فرعون كان مسحا بالحديدة .

---

(١) كذا فى الأصول وفى آبن العربى (ولا تجلب) .	(٢) فى بعض الأصول وآبن العربى «آستوى» .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ قال الفراء : أى من الناس ؛ يقال : ٱكتلت منك أى ٱستوفيت منك ، ويقال : ٱكتلت ما عليك أى أخذت ما عليك ، وقال الزجاج : أى إذا ٱكتالوا من الناس ٱستوفوا عليهم الكيل؛ والمعنى : الذين إذا ٱستوفوا أخذوا الزيادة وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا ، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم . الطبرى : « على » بمعنى عند .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدى الفعل فنصب ؛ ومثله نصحتك ونصحت لك وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله الأخفش والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَرَ الناسُ أتينا التاجر فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل . وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » حتى تصل به « هم » قال : ومن الناس من يجعلها توكيدا ، ويجيز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » والأول الاختيار ؛ لأنها حرف واحد . وهو قول الكسائى . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » ويبتدئ « هُمْ يُخْسِرُونَ » قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضا . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين إحداهما الخط ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا « كَالُوا » و « وَزَنُوا » بالألف ، والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربى ؛ كما يقال : صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك . قوله : « يُخْسِرُونَ » أى ينقصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخسرته ، و « هم » فى موضع نصب على قراءة العامة راجع إلى الناس؛ تقديره «وَإِذَا كَالُوا » الناس « أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلا * وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ

أراد جنيت لك ، والوجه الآخر أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون . وعن ٱبن عباس رضى الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان . وخصّ الأعاجم لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرّقين فى الحرمين ؛ كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون . وعلى القراءة الثانية « هم » فى موضع رفع بالابتداء ؛ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون . ولا يصح ؛ لأنه تكون الأولى ملغاة ليس لها خبر ، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها وإذا كالوا هم ينقصون أو وزنوا هم يخسرون .

الثانيــة — قال ٱبن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "خَمْسٌ بخمسٍ ما نقض قوم العهد إلا سلّط الله عليهم عدوّهم ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر" خرجه أبو بكر البزار بمعناه ومالك بن أنس أيضا من حديث ٱبن عمر . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة . وقال مالك بن دينار : دخلت على جار لى قد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول؟ أتهجر؟[1] قال : ياأبا يحيى كان لى مكيالان أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر ٱزداد عظما ، فمات من وجعه . وقال عكرمة : أشهد على كل كيّال أو وزّان أنه فى النار . قيل له : فإن ٱبنك كيال أو وزان . فقال : أشهد أنه فى النار . قال الأصمعى : وسمعت أعرابية تقول لا تلتمس المروءة ممن مروءته فى رءوس المكاييل ولا ألسنة الموازين . وروى ذلك عن علىّ رضى الله عنه . وقال عبد خير : مر علىّ رضى الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح فأكفأ الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ، ويفصل الواجب من النفل . وقال نافع : كان ٱبن عمر يمر بالبائع فيقول ٱتق الله وأوف الكيل

(١) هجر فى نومه ومرضه يهجر هجرا : هذى .

والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم . وقد روى أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة ، فقال أبو هريرة : فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى « كٓهيعٓصٓ » وقرأ في الركعة الثانية « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » قال أبو هريرة : فأقول في صلاتي ويل لأبي فلان كان له مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافي وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم ولا يخمنون تخمينا ﴿ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ فمسئولون عما يفعلون . والظن هنا بمعنى اليقين ؛ أى ألا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن . وقيل : الظن بمعنى التردد؛ أى إن كانوا لا يستيقنون بالبعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ويأخذوا بالأحوط ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — العامل في « يوم » فعل مضمر دل عليه « مَبْعُوثُونَ » والمعنى يبعثون « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . ويجوز أن يكون بدلا من يوم في « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » وهو مبنى . وقيل : هو في موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . وقيل : هو منصوب على الظرف أى في يوم؛ ويقال : أقم إلى يوم يخرج فلان فتنصب يوم؛ فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يوم خروج فلان . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ التقدير أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم .

الثانيــة — وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين ؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم في التطفيف ، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على التسوية والعدل في كل أخذ وإعطاء ، بل في كل قول وعمل .

الثالثــة — قرأ ابن عمر «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» حتى بلغ « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فبكى حتى سقط وامتنع من قراءة ما بعده ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول "يوم يقوم الناس لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فمنهم من يبلغ العَرَقُ كعبيه ومنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من يبلغ حَقْويه ومنهم من يبلغ صدره ومنهم من يبلغ أذنيه حتى إن أحدهم ليغيب في رشحه كما يغيب الضِّفدع (1) " . وروى ناس عن ابن عباس قال : يقومون مقدار ثلثمائة سنة . قال : ويُهوَّن على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة . وروى عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقومون ألف عام في الظُّلَّة". وروى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوم يقوم الناس لربّ العالمين حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " . وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم : "يقوم مائة سنة" . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغِفَاري : "كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لربّ العالمين لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر" قال بشير : المستعان الله .

قلت : قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخُدْري عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إنه ليخفَّف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا" في «سأل سائل» (2) . وعن ابن عباس : يُهوّن على المؤمنين قَدْرَ صلاتهم الفريضة . وقيل : إن ذلك

(1) أي في الماء .		(2) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٢ .

المقام على المؤمن كزوال الشمس ؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ثم وصفهم فقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده ومنّه آمين . وقيل : المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لربّ العالمين ؛ قاله ٱبن جبير. وفيه بعد ؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك وهي صحيحة ثابتة ، وحسبك بما في صحيح مسلم والبخاريّ والترمذيّ من حديث ٱبن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » قال : "يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه" ثم قيل : هذا القيام يوم يقومون من قبورهم . وقيل : في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا . وقال يزيد الرَّشْك : يقومون بين يديه للقضاء .

الرابعة — القيام لله ربّ العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقّه ، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فٱختلف فيه الناس ؛ فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبي طالب وٱعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه . وقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار حين طلع عليه سعد بن معاذ : "قوموا إلى سيّدكم" وقال أيضا : "من سرّه أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار" وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن ٱنتظر ذلك وٱعتقده لنفسه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة فإنه جائز ، وخاصة عند الأسباب كالقدوم من السفر ونحوه . وقد مضى في آخر سورة « يوسف »(1) شيء من هذا .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

(1) راجع ج ٩ ص ٢٦٥ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية : « كَلَّا » ردع وتنبيه ؛ أي ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان ، أو تكذيب بالآخرة فليرتدعوا عن ذلك . فهي كلمة ردع وزجر ثم استأنف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » . وقال الحسن : « كَلَّا » بمعنى حقًّا . وروى ناس عن ابن عباس « كَلَّا » قال : أَلَا تُصَدِّقُونَ ؛ فعلى هذا الوقف « لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . وفي تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار . وروى ناس عن ابن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم « لَفِي سِجِّينٍ » . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : سجين صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها . ونحوه عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب ؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خد إبليس . وعن كعب أيضا قال : سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة مكتوب فيها اسم كل شيطان تلقى أنفس الكفار عندها . وقال سعيد بن جبير : سجين تحت خَدِّ إبليس . يحيى بن سلّام : حجر أسود تحت الأرض يكتب فيه أرواح الكفار . وقال عطاء الخراساني : هي الأرض السابعة السفلى وفيها إبليس وذريته . وعن ابن عباس قال : إن الكافر يحضره الموت وتحضره رسل الله فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ورفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة ، وهي سجين وهي آخر سلطان إبليس فأثبتوا فيها كتابه . وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال : إن روح الفاجر إذا قبضت يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها ، فتدخل في سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجّين وهو خَدُّ إبليس ، فيخرج لها من سجّين من تحت خد إبليس رَقٌّ فيُرْقَم فيوضع تحت خَدِّ إبليس . وقال الحسن : سجّين في الأرض السابعة . وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم . قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء . وقال :

سجّين صخرة فى الأرض السابعة . وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "سجّين جُبٌّ فى جهنم وهو مفتوح" وقال فى الفلق : "إنه جُبٌّ مُغَطًّى" . وقال أنس : هى دركة فى الأرض السفلى . وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم : سجّين أسفل الأرض السابعة" . وقال عكرمة : "سجّين خسار وضلال ؛ كقولهم لمن سقط قدره : قد زلق بالحضيض . وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : « لَفِي سِجِّينٍ » لفى حبس وضيق شديد فِعّيل من السجن ؛ كما يقول : فِسِّيقٌ وشِرِّيب ؛ قال ابن مقبل :

وَرُفْقَةٍ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضَاحِيَةً ﴿1﴾ * ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

والمعنى كتابهم فى حبس ؛ جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم ، أو لأنه يَحُلّ من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلَّ الزجر والهوان . وقيل : أصله سجّيل فأبدلت اللام نونا . وقد تقدّم ذلك . وقال زيد بن أسلم : سجّين فى الأرض السافلة وسجّيل فى السماء الدنيا . القشيرى : سجّين موضع فى السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون . وهذا دليل على خبث أعمالهم وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال فى كتاب الأبرار : « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أى ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك . ثم فسره له فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ أى مكتوب كالرقم فى الثوب لا ينسى ولا يمحى . وقال قتادة : مرقوم أى مكتوبٌ رُقِم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وقال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حمير؛ وأصل الرقم الكتابة؛ قال :

سَأَرْقُمُ فى الماءِ القَرَاحِ إليكُمُ * على بُعْدِكُمْ إنْ كانَ لِلْماءِ رَاقِمُ

وليس فى قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ » ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربيا كما لا يدل فى قوله : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » بل هو تعظيم لأمر سجين . وقد مضى فى مقدّمة الكتاب ـــ والحمد لله ـــ أنه ليس فى القرآن غير عربى ﴿2﴾ . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

---

(١) الذى فى التاج نقلا عن الجوهرى : * ورجلة يضربون الهام عن عرض *

(٢) راجع ج ١ ص ٦٨ .

أى شدة وعذاب يوم القيامة للمكذبين . ثم بين تعالى أمرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد . ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى فاجر جائر عن الحق، معتدٍ على الخلق فى معاملته إياهم وعلى نفسه، وهو أثيم فى ترك أمر الله . وقيل : هذا فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقراءة العامة « تتلى » بتاءين وقراءة أبى حيوة وأبى سماك وأشهب العقلى والسُّلمى « إِذَا يُتْلَى » بالياء . وأساطير الأولين أحاديثهم وأباطيلهم التى كتبوها وزخرفوها . واحدها أسطورة وإسطارة وقد تقدّم .

قوله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « كَلَّا » ردع وزجر؛ أى ليس هو أساطير الأولين . وقال الحسن : معناها حقّا « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وقيل : فى الترمذىّ عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت فى قلبه نكتةٌ سوداء فإذا هو نزع وٱستغفر الله وتاب صُقِل قلبه فإن عاد زِيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الران الذى ذكر الله فى كتابه « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» " قال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب . قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه . قال مجاهد : هى مثل الآية التى فى سورة البقرة « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » الآية . ونحوه عن الفراء ؛ قال : يقول كثرت المعاصى منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرَّين عليها . وروى عن مجاهد أيضا قال : القلب مثل الكفّ ورَفَع كفّه، فإذا أذنب العبد الذنب ٱنقبض وضمّ إصبعه ؛ فإذا أذنب الذنب ٱنقبض وضمّ

أخرى حتى ضمّ أصابعه كلها ، حتى يُطبَع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّين ، ثم قرأ « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . ومثله عن حذيفة رضى الله عنه سواء . وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذ أذنب صار فى قلبه كوخزة الإبرة ، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخل أو كالغِرْبال لا يعى خيرا ولا يثبت فيه صلاح . وقد بينا فى «البقرة»(١) القول فى هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معنى لإعادتها . وقد روى عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن آبن جريج عن عطاء عن آبن عباس ، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن آبن عباس شيئا الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الرَّان الذى يكون على الفخذين والساق والقدم وهو الذى يلبس فى الحرب . قال : وقال آخرون الرَّان الخاطر الذى يخطر بقلب الرجل وهذا مما لا يُضْمن عُهْدةُ صحته . فالله أعلم . فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا . وكذلك أهل اللغة عليه ؛ يقال : ران على قلبه ذَنْبُه يَرين رَيْنا ورُيونا أى غلب . قال أبو عبيدة فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غلب ؛ وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك ؛ وقال الشاعر :

وكَمْ رانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلى قَلْبِ فاجِرٍ * فَتابَ مِنَ الذَّنْبِ الّذى رانَ وٱنْجَلَى

ورانت الخمر على عقله أى غلبته ، وران عليه النعاس إذا غطاه ؛ ومنه قول عمر فى الأُسَيْفع — أُسَيْفع جُهَينة — : فأصبح قد رِينَ به . أى غلبته الديون وكان يُدَان ؛ ومنه قول أبى زُبَيْد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سُكْرا فقال :

ثُمّ لَمّا رآه رانَتْ بِهِ الخَمْـ * ـرُ وألّا تَرِينَـهُ بِاتّقاءِ

فقوله : رانت به الخمر ، أى غلبت على عقله وقلبه . وقال الأموى : قد أَرَان القومُ فهم مُرِينون إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت . وهذا من الأمر الذى أتاهم مما يغلبهم فلا يستطيعون آحتماله . قال أبو زيد يقال : قد رِينَ بالرجل رَيْنا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٨ فما بعدها .

به . وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يَسْوَدَّ القلبُ من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب ، وهذا أشد من الرين (١) ، والإقفال أشد من الطبع . الزجاج : الرين هو كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين ، يقال : غين على قلبه غطى . والغين شجر ملتف الواحدة غيناء أى خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان . وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب . وذكر الثعلبي عن ابن عباس : « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى غطى عليها . وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وأبو بكر والمفضل « رانَ » بالإمالة ؛ لأن فاء الفعل الراء وعينه الألف منقلبة من ياء فحسنت الإمالة لذلك . ومن فتح فعلى الأصل ؛ لأن باب فاء الفعل فى فَعَلَ الفتح مثل كال وباع ونحوه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ووقف حفص « بل » ثم يبتدئ « ران » وقفا يبين اللام لا للسكت .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ ﴾ أى حقا « إنهم » يعنى الكفار ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ . وقيل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس كما يقولون بل « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرَى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة ولا خَسَّت منزلةُ الكفار بأنهم يُحجَبون . وقال جل ثناؤه : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا . وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لَمَحْجُوبُونَ » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وعلى الأول الجمهور وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه . ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى

(١) فى اللسان : هو الختم ؛ أى الطبع على القلب هو الختم كما فى « اللسان » مادة « رين » .

ملازموها ومحترقون فيها غير خارجين منها ، « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » . ويقال : الجحيم البـاب الرابع من النار . ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم أى تقول لهم خزنة جهنم ﴿ هَذَا الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ رسل الله فى الدنيا .

قوله تعـالى : كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ « كَلَّا » بمعنى حقًّـا والوقف على « تُكَذِّبُونَ » . وقيل : أى ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا بل كتابهـم فى سجّين وكتاب المؤمنين فى عِلِّيين . وقال مقاتل : كلّا أى لا يؤمنون بالعذاب الذى يَصْلَونه . ثم آستأنف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » مرفوع فى علّيين على قدر مرتبتهم . قال آبن عبـاس : أى فى الجنة . وعنه أيضا قال : أعمالهم فى كتاب الله فى السماء . وقال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وروى آبن الأجلح عن الضحاك قال : هى سِدْرة المنتهى ينتهى إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها ، فيقولون : رَبِّ ! عبدك فلان ؛ وهو أعلم به منهم ، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب . فذلك قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » . وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صعد بها إلى السماء ، وفتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكة بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم من تحت العرش رَقٌّ فَيُرْقَم ويُخْتَم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقربون . وقال قتادة أيضـا : « فِى عِلِّيِّينَ » هى فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى . وقال البَرَاء بن عازب قال النبي صلى الله عليه وسلم : "عِلّيون فى السماء السابعة تحت العرش" . وعن آبن عباس أيضا : هو لوح من زبرجدة خضراء معلّق بالعرش أعمالهم مكتوبة فيه . وقال الفراء : عِلّيون آرتفاع بعد آرتفاع . وقيل : عِلّيون أعلى الأمكنة . وقيل : معناه علو فى علو مضاعف كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون .

وهو معنى قول الطبرى . قال الفراء : هو آسم موضوع على صفة الجمع ولا واحد له من لفظه ؛ كقولك : عشرون وثلاثون والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا فى المذكر والمؤنث بالنون ، وهو معنى قول الطبرى . وقال الزجاج : إعراب هذا الآسم كإعراب الجمع كما تقول هذه قِنّسرون ورأيت قِنّسرين . وقال يونس النحوى : واحدها عِلّىّ وعِلّيّة . وقال أبو الفتح : عِلّيين جمع عِلّىّ وهو فِعّيل من العُلُوّ . وكان سبيله أن يقول عِلّيّة كما قالوا للغرفة عِلّيّة ؛ لأنها من العلو ، فلما حذفت التاء من عِلّيّة عوضوا منها الجمع بالواو والنون كما قالوا فى أرضين . وقيل : إن علّيين صفة للملائكة فإنهم الملأ الأعلى ؛ كما يقال : فلان فى بنى فلان ؛ أى هو فى جملتهم وعندهم . والذى فى الخبر من حديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أهل عِلّيين لينظرون إلى الجنة من كذا فإذا أشرف رجل من أهل عِلّيين أشرقت الجنة لضياء وجهه فيقولون ما هذا النور فيقال أشرف رجل من أهل عِلّيين الأبرار أهل الطاعة والصدق" . وفى خبر آخر : "إن أهل الجنة ليرون أهل عِلّيين كما يُرَى الكوكب الدُّرِّىّ فى أفق السماء" يدل على أن عِلّيين آسم الموضع المرتفع . وروى ناس عن آبن عباس فى قوله « عِلّيّين » قال : أخبر أن أعمالهم وأرواحهم فى السماء الرابعة . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ أى ما الذى أعلمك يا محمد أىّ شىء علّيون على جهة التفخيم والتعظيم له فى المنزلة الرفيعة . ثم فسره له فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقيل : إن « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » ليس تفسيرا لعلّيين بل تمّ الكلام عند قوله « عِلّيون » ثم آبتدأ وقال : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أى كتاب الأبرار كتاب مرقوم ؛ ولهذا عكس الرقم فى كتاب الفجار ؛ قاله القشيرى . وروى : أن الملائكة تصعد بعمل العبد ، فإذا آنتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم : إنكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما فى قلبه ، وأنه أخلص لى عمله فاجعلوه فى عِلّيين فقد غفرت له ، وأنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا آنتهوا به إلى ماشاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على مافى قلبه وأنه لم يخلص لى عمله ، فاجعلوه فى سِجّين .

قوله تعالى : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشهد عمل الأبرار مقربو كلِّ سماء من الملائكة . وقال وهب وآبن إسحق : المقربون هنا إسرافيل عليه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى ينتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها و يكتب فهو قوله : «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» أى يشهد كتابتهم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أى أهل الصدق والطاعة . ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى نَعْمة والنَّعمة بالفتح التنعيم ؛ يقال : نعّمه الله وناعمه فتنعّم وآمرأة منعّمة ومناعمة بمعنى . أى إن الأبرار فى الجنات يتنعّمون . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى الأسرة فى الحِجَال ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ؛ قاله عكرمة وآبن عباس ومجاهد . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم فى النار " ذكره المهدوى . وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى بهجته وغضارته ونوره ؛ يقال : أنضر النباتُ إذا آزهرّ ونوّر . وقراءة العامة « تَعْرِفُ » بفتح التاء وكسر الراء « نَضْرَةَ » نصبا ؛ أى تعرف يا محمد . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب وشيبة وآبن أبى إسحق : « تُعْرَفُ » بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول « نَضْرَةُ » رفعا . ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ أى من شراب لا غش فيه . قاله الأخفش والزجاج . وقيل : الرحيق الخمر الصافية . وفى الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . والمعنى واحد . الخليل : أقصى[1] الخمر وأجودها . وقال مقاتل وغيره : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ؛ قال حسان :

(١) كذا فى الأصول كلها ولعل الصواب : أصفى الخمر .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (١)

وقال آخر (٢) :

أَمْ لا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ وذِكْرُهُ * أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

﴿ مَخْتُومٌ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال مجاهد : يختم به آخر جرعة . وقيل : المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما فى الكأس انختم ذلك بخاتم المسك . وكان ابن مسعود يقول : يجدون عاقبتها طعم المسك . ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى قالا : ختامه آخر طعمه . وهو حسن ؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر فى آخرها ، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك . وعن مسروق عن عبد الله قال : المختوم الممزوج . وقيل : مختوم أى ختمت ومنعت عن أن يمسها ماسّ إلى أن يفكّ ختامَها الأبرارُ . وقرأ علىّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائى « خَاتَمُه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار اجعل خاتمه مسكا تريد آخره . والخاتم والختام متقاربان فى المعنى إلا أن الخاتم الاسم والخِتام المصدر ؛ قاله الفراء . وفى الصحاح : والخِتام الطين الذى يختم به . وكذا قال مجاهد وابن زيد : خُتِم إناؤه بالمسك بدلا من الطين . حكاه المهدوى . وقال الفرزدق :

* وبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ (٣) *

وقال الأعشى :

* وَأَبْرَزَها وعَلَيْها خَتَمْ (٤) *

أى عليها طينة مختومة ؛ مثل نَفَضٍ بمعنى مَنْفُوض وقَبَضٍ بمعنى مَقْبُوض . وذكر ابن المبارك وابن وهب واللفظ لابن وهب عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى « خِتَامُهُ مِسْكٌ » خَلْطُه ليس بخاتم يختم ؛ ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم : إن خَلْطه من الطِّيب كذا وكذا

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء . (٢) هو أبو كبير الهذلى .

(٣) صدر البيت : * فبتن جنابتى مصرعات *

(٤) صدره : * وصهباء طاف يهودبها *

إنمـا خَلْطه مسك، قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلا من أهل الدنيـا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبـق ذو رُوح إلا وجد ريح طيبهـا . وروى أبيّ بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : "غُدْران الخمر" . وقيل : مختوم فى الآنيـة وهو غير الذى يجرى فى الأنهـار . فالله أعلم . ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ أى وفى الذى وصفناه من أمر الجنـة ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى فليرغب الراغبون ؛ يقال : نَفِستُ عليه الشيء أَنْفَسه نَفاسةً أى ضَنِنت به ولم أحبّ أن يصير إليه . وقيل: الفاء بمعنى إلى أى و إلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل؛ نظيره : «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ» . ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أى ومزاج ذلك الرحيق ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علو وهو أشرف شراب فى الجنة . وأصل التّسنيم فى اللغة الآرتفاع، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسـفل؛ ومنه سـنام البعير لعلوه من بدنه، وكذلك تسنيم القبـور . وروى عن عبـد الله قال : تسنيمٌ عينٌ فى الجنة يشرب بها المقربون صرفا، و يمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب . وقال آبن عباس فى قوله عز وجل : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » قال : هذا ممـا قال الله تعالى « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقيل : التسنيم عين تجرى فى الهواء بقدرة الله تعالى فتنصبّ فى أوانى أهل الجنة على قدر ملئها، فإذا آمتلأت أمسك المـاء فلا تقع منه قطرة على الأرض ولا يحتاجون إلى الآستقاء؛ قاله قتادة . آبن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . وكذا فى مراسـيل الحسن . وقـد ذكرناه فى سـورة « الإنسان »(1) . ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشرب منهـا أهل جنـة عدنٍ وهم أفاضل أهل الجنـة صرفا، وهى لغيرهم مزاج . و « عَيْنًا » نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفة ليس يعرف له آشتقاق، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ«عينا» نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم . وعند الأخفش بـ « يُسْقَوْنَ » أى يسقون عينا أو من عين . وعند المبرد بإضمار أعنى على المدح .

(1) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء فما بعدها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك . روى ناس عن ابن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي مُعَيْط والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والعاص ابن هشام وأبو جهل والنضر بن الحرث وأولئك ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عَمّار وخَبّاب وصُهَيب وبلال ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ على وجه السخرية ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم . وقيل : أي يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ؛ يقال : غمزت الشيء بيدي ؛ قال :

وكُنْتُ إذا غَمَزْتُ قَناةَ قَوْمٍ * كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزني فقبضت رجلي . الحديث ؛ وقد مضى في « النساء »(1) . وغمزته بعيني . وقيل : الغمز بمعنى العيب يقال غمزه أي عابه ، وما في فلان غمزة أي عيب . وقال مقاتل : نزلت في عليّ بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلمزهم المنافقون وضحكوا عليهم وتغامزوا . ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا ﴾ أي انصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذويهم ﴿ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أي معجبين منهم . وقيل : معجبون بما هم عليه من الكفر متفكهون بذكر المؤمنين . وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسُّلَمي : « فَكِهِينَ » بغير ألف . الباقون بألف . قال الفراء : هما لغتان مثل

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٢٦ فما بعدها .

طَمِعٌ وطامِـعٌ وحَذِرٌ وحاذِرٌ وقد تقدم فى سورة « الدخان» (١) والحمد لله . وقيل : الفكِهُ الأشِر البطِر والفاكه الناعم المتنعم . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أى إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ فى آتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ لأعمالهم موكلين بأحوالهم رقباء عليهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى هـذا اليوم الذى هو يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا . نظيره فى آخر سورة « المؤمنين » (٢) وقد تقدم . وذكر آبن المبارك : أخبرنا محمـد بن بشار عن قتادة فى قوله تعالى « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » قال : ذكر لنـا أن كعبا كان يقول إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكُوَى؛ قال الله تعـالى فى آية أخرى : « فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » قال : ذكر لنـا أنه آطلع فرأى جماجم القوم تغلى . وذكر آبن المبارك أيضا : أخبرنا الكلبىّ عن أبى صالح فى قوله تعالى « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » قال : يقال لأهل النار وهم فى النار آخرجوا فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قـد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا آنتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ؛ فذلك قوله : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وقد مضى هـذا فى أول سورة « البقرة » (٣) . ومعنى « هَلْ ثُوِّبَ » أى هل جوزى بسخريتهم فى الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك . وقيل : إنه متعلق بـ « يَنْظُرُونَ » أى ينظرون هل جوزى الكفار فيكون معنى هل [التقرير] وموضعها نصبا بـ « يَنْظُرُونَ » . وقيل : آستئناف لا موضع له من الإعراب . وقيل : هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض « هَـلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ » أى أثيب وجوزى . وهو من ثاب يثوب أى رجع ؛ فالثواب ما يرجع على العبـد فى مقابلة عمله ويستعمل فى الخير والشر . ختمت السورة والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٥ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٠٨ .

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع وهي خمس وعشرون آية

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ أي انصدعت وتفطّرت بالغمام والغمام مثل السحاب الأبيض . وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس . وروى عن عليّ عليه السلام قال : تشقّ من المجرة . وقال : المجرة باب السماء . وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي سمعت وحُقّ لها أن تسمع . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أذن الله لشيء كإذنه لنبيّ يتغنى بالقرآن " أي ما استمع الله لشيء ؛ قال الشاعر :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ * وإنْ ذُكِرتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنوا

أي سمعوا . وقال قَعْنَب بن أمّ صاحب :

إنْ يَأْذَنُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحًا * وما هُمُ أَذِنُوا منْ صالحٍ دَفَنُوا

وقيل : المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق . وقال الضحاك : حُقّت أطاعت وحُقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ؛ يقال : فلان محقوق بكذا . وطاعة السماء بمعنى أنها لاتمتنع مما أراد الله بها . ولايبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب . وقال قتادة : حُقّ لها أن تفعل ذلك ؛ ومنه قول كُثَيِّر :

فإنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا * وَحُقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتِ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى بسطت ودكت جبالها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تمدّ مدّ الأديم " لأن الأديم إذا مدّ زال كل آنثناء فيه وآمتدّ وآستوى . وقال آبن عباس وآبن مسعود : ويزاد فى سعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه لكثرة الخلائق فيها . وقد مضى فى سورة «إبراهيم» (١) أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهى آلساهرة فى قول آبن عباس على ماتقدم عنه . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى أخرجت أمواتها وتخلت عنهم . وقال آبن جبير : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : ألقت ما فى بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها . أى خلا جوفها فليس فى بطنها شيء وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة . وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقيل : ألقت ما آستودعت وتخلت مما آستحفظت ؛ لأن الله تعالى آستودعها عباده أحياء وأمواتا ، وآستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى فى إلقاء موتاها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى وحُقَّ لها أن تسمع أمره . وآختلف فى جواب «إذا» فقال الفراء : « أَذِنَتْ » والواو زائدة ، وكذلك «وَأَلْقَتْ» . آبن الأنبارى : قال بعض المفسرين جواب « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » « أَذِنَتْ » وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع «حتى — إذا» كقوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» ومع «لمّا» كقوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » معناه «نَادَيْنَاهُ» والواو لاتقحم مع غير هذين . وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » فيأيها الإنسان إنك كادح . وقيل : جوابها مادل عليه «فَمُلَاقِيهِ» أى إذا السماء آنشقت لاقى الإنسان كدحه . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » قاله المبرد . وعنه أيضا : الجواب « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وهو قول الكسائى ؛ أى إذا السماء آنشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح

(١) راجع ج ٩ ص ٣٨٣ .

ما قيل فيه وأحسنه . وقيــل : هو بمعنى آذكر « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » . وقيــل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أى إذا كانت هــذه الأشياء علم المكذبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم . وقيل : تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها . والقرآن كالآية الواحدة فى دلالة البعض على البعض . وعن الحسن : إن قوله « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » قسم . والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ المراد بالإنسان الجنس أى يابن آدم . وكذا روى سعيد عن قتادة : يابن آدم إن كدحك لضعيف فمن آستطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقيل : هو معيّن ؛ قال مقاتل : يعنى الأسود بن عبد الأســد . ويقال : يعنى أبىّ بن خلف . ويقال: يعنى جميع الكفار ؛ يعنى يأيها الكافر إنك كادح . والكدح فى كلام العرب العمل والكسب ؛ قال آبن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا * أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِى الْعَيْشَ أَكْدَحُ

وقال آخر :

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ * وَبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

أى أعمل . وروى الضحاك عن آبن عباس : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى راجع « إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا » أى رجوعا لا محالة « فَمُلَاقِيهِ » أى ملاقٍ ربك . وقيل : ملاقٍ عملك . القتبى : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقــاء ربك . والملاقاة بمعنى اللقاء أى تلقى ربك بعملك . وقيل : أى تلاقى كتاب عملك ؛ لأن العمل قد آنقضى ولهذا قال : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ لا مناقشة فيه . كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حوسب يوم القيامة عُذِّب" قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» فقال : "ليس ذاك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب" أخرجه البخاري ومسلم والترمذي . وقال حديث حسن صحيح . ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أزواجه في الجنة من الحور العين «مَسْرُورًا» أي مغتبطا قرير العين . ويقال : إنها نزلت في أبي سلمة ابن عبد الأسد وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة . وقيل : إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته . والأول قول قتادة ، أي إلى أهله الذين قد أعدّهم الله له في الجنة .

قوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة ؛ قاله ابن عباس . ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر . قال ابن عباس : يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه ملك فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وقال قتادة ومقاتل : يفسك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك . ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أي بالهلاك فيقول : يا ويلاه يا ثبوراه . ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرها . وقرأ الحرميان وابن عامر والكسائي «وَيُصَلَّى» بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : «ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ» وقوله : «وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ» . الباقون «وَيَصْلَى» بفتح الياء مخففا فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : «إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ» وقوله : «يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى» وقوله : «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ» . وقراءة ثالثة رواها أبان

عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكي عن ابن كثير « وَيُصَلَّى » بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففا؛ كما قرئ « وَسَيُصْلَوْنَ » بضم الياء؛ وكذلك في « الغاشية » قد قرئ أيضا : « تُصْلَى نَارًا » وهما لغتان صَلَى وأصلى؛ كقوله : « نَزَلَ، وَأَنْزَلَ » . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُورًا ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة؛ وقرأ قول الله تعالى : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه فقال : « إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا » . ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار يحور إذا رجع؛ قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ * يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وقال عكرمة وداود بن أبي هند : يَحُور كلمة بالحبشية ومعناها يرجع . ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق؛ ومنه الخبز الحُوّارى؛ لأنه يرجع إلى البياض . وقال ابن عباس : ما كنت أدري ما يَحُور حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها حُوري حوري أي ارجعي إليّ؛ فالحَوْر في كلام العرب الرجوع؛ ومنه قوله عليه السلام : "اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر" يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة . وكذلك الحُوْر بالضم . وفي المثل «حُوْرٌ في مَحَارة» أي نقصان في نقصان يضرب للرجل إذا كان أمره يُدبِر؛ قال الشاعر (1) :

وَاسْتَعْجَلُوا عَنْ خَفِيفِ الْمَضْغِ فَازْدَرَدُوا * وَالذَّمُّ يَبْقَى وَزَادُ الْقَوْمِ فِي حُورِ

والحُور أيضا الاسم من قولك : طحنت الطاحنةُ فما أحارت شيئا؛ أي ما ردّت شيئا من الدقيق . والحُور أيضا الهَلَكة؛ قال الراجز (2) :

* فِي بِئْرِ لَا حُورٍ سَرَى وَلَا شَعَرْ *

(1) قائله سبيع بن الخطيم؛ يريد الأكل يذهب والذم يبقى .

(2) هو العجاج .

قال أبو عبيدة : أى بئر حُورٍ ، و « لا » زائدة ، وروى " بَعْـد الْكَوْن "[(١)] ومعناه من آنتشار الأمر بعد تمامه ، وسُئِل مَعْمَر عن الحَوْر بعدَ الْكَوْن فقال : هو الكُنْتِيّ ، فقال له عبد الرزاق : وما الكُنْتِيّ ؟ فقال : الرجل يكون صالحا ثم يتحول رجل سوء ، قال أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ كُنْتِيّ كأنه نسب إلى قوله : كنتُ فى شبابى كذا ، قال :

فأَصبحتُ كُنْتِيًّا وأَصبحتُ عاجِنًا * وشَرُّ خِصالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكِبَر ، وقال آبن الأعرابى : الكُنْتِيّ هو الذى يقول كنتُ شابا وكنتُ شجاعا ، والكانِيّ هو الذى يقول : كان لى مال وكنت أهب ، وكان لى خيل وكنت أركب .

قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ظنّ بل يحور إلينا ويرجع . ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ قبل أن يخلقه عالما بأن مرجعه إليه . وقيل : بلى ليحورنّ وليرجعنّ . ثم آستأنف فقال : « إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا » من يوم خلقه إلى أن بعثه . وقيل : عالما بما سبق له من الشقاء والسعادة .

قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أى فأقسم و « لا » صلة . ﴿ بِالشَّفَقِ ﴾ أى بالحمرة التى تكون عند مغيب الشمس حتى تأتى صلاة العشاء الآخرة . قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم كثير عددهم عن مالك : الشَّفَق الحمرة التى فى المغرب ، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء . وروى آبن وهب قال : أخبرنى غير واحد عن علىّ بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وعُبَادة بن الصّامت وشدّاد بن أَوْس

(١) الكون هنا : مصدر كان التامة يقال : كان يكون كونا أى وجد واستقر . (النهاية) .

وأبي هريرة أن الشَّفَق الحُمْرة ، وبه قال مالك بن أنس . وذكر غيرُ ابن وهب من الصحابة عُمر وابن عُمر وابن مسعود وابن عباس وأنساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير ، ومن التابعين سعيد بن جبير وابن المسيّب وطاوس وعبد الله بن دينار والزهريّ ، وقال به من الفقهاء الأوزاعيّ ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحق . وقيل : هو البياض ؛ روى ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعيّ وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه . وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . وروى عن ابن عمر أيضا أنه البياض والاختيار الأول ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ كأنه الشَّفَق وكان أحمر فهذا شاهد للحمرة ؛ وقال الشاعر :

* وأَحْمَر اللَّوْنِ كَمُحْمَرِّ الشَّفَقْ *

وقال آخر :

قُمْ يا غلامُ أَعِنِّي غيرَ مُرْتَبِكٍ * على الزَّمانِ بِكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

ويقال للمَغْرة الشَّفَق . وفي الصحاح : الشَّفَق بقية ضوء الشمس وحُمْرتها في أول الليل إلى قريب من العَتَمة . قال الخليل : الشَّفَق الحُمْرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل غاب الشَّفَق . ثم قيل : أصل الكلمة من رقّة الشيء ؛ يقال : شيء شَفِق أي لا تماسك له لرقته . وأشفق عليه أي رَقَّ قلبه عليه ، والشَّفَقة الاسم من الإشفاق وهو رِقّة القلب وكذلك الشَّفَق ؛ قال الشاعر (١) :

تَهْوَى حَيَاتِي وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا * والموتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ

فالشَّفَق بقية ضوء الشمس وحُمْرتها فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس . وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا . وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب . وقال ابن أبي أُوَيْس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر .

(١) هو إسحق بن خلف . وقيل هو لابن المعلى . اللسان .

قال علماؤنا : فلما لم يتحدد وقته سقط ٱعتباره . وفى سنن أبى داود عن النعمان بن بشير قال : أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يصليها لسقوط القمر لثالثة . وهذا تحديد ثم الحكم معلق بأول الأسم . لا يقال : فينتقض عليكم بالفجر الأول فإنا نقول الفجر الأول لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّن الفجر بقوله وفعله فقال : "وليس الفجر أن تقول هكذا — فرفع يده إلى فوق — ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها" وقد مضى بيانه فى آية الصيام من سورة « البقرة »(1) فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال « وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » . وقال عكرمة : ما بقى من النهار . والشَّفَق أيضا الردىء من الأشياء ؛ يقال : عطاء مُشَفَّق أى مُقَلَّل ؛ قال الكُمَيْت :

مَلِكٌ أَغَرُّ مِنَ المُلوكِ تَحَلَّبَتْ * للسّائلين يَدَاهُ غَيْرَ مُشَفَّقِ

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى جمع وضم ولف وأصله من سَوْرة السلطان وغضبه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ، ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها فسكن الخلق إليه ثم ٱنذعروا وٱلتفوا وٱنقبضوا ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هوله وحشا ، وهو قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى بالليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالنهار على ما تقدم . فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرا بالنهار فى تصرفه . هذا معنى قول ٱبن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابئ ٱبن الحرث البُرْجُمىّ :

فإنّى وإيّاكُمْ وشَوْقًا إِلَيْكُمُ * كَقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أناملُهْ

يقول : ليس فى يدى من ذلك شيء كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شيء ؛ فإذا جَلَّل الليلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فٱجتمعت له فقد وَسَقَها . والوَسْق ضمك الشيء

(1) راجع جـ ٢ ص ٣١٨ فما بعدها .

بعضه إلى بعض، تقول : وسقْته أسقُه وسْقا . ومنه قيل : للطعام الكثير المجتمع وَسْق وهو ستون صاعا . وطعام موسوق أي مجموع، وإبلٌ مستوسقة أي مجتمعة ؛ قال الراجز :(١)

إن لنا قلائِصًا حقائقا * مُسْتَوسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائقا

وقال عكرمة : « وَمَا وَسَقَ » أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي ؛ فالوسقُ بمعنى الطرد ؛ ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر وسيقة ؛ قال الشاعر(٢) :

* كما قافَ آثارَ الوَسيقةِ قائفُ *

وعن آبن عباس : « وَمَا وَسَقَ » أي وما جَنّ وستر . وعنه أيضا : وما حمل وكل شيء حملته فقد وَسَقْته ؛ والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقَت عيني الماء ؛ أي حملته . ووَسَقَت الناقةُ تَسِقُ وَسْقا أي حملت وأغلقت رَحِمها على الماء، فهي ناقة واسق ونُوق وساق مثل نائم ونيام وصاحب وصحاب؛ قال بشر بن أبي خازم :

أَلَظَّ بِهِنّ يَحْدوهُنّ حتى * تَبَيَّنَت الحِيالُ مِنَ الوِساقِ

ومواسيق أيضا . وأوسقت البعير حملته حمله وأوسقت النخلةُ كثر حَمْلها . وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان : حَمَلَ من الظلمة . قال مقاتل : أو حمل من الكواكب . القشيري ومعنى حَمَلَ ضمّ وجمع والليل يجلّل بظلمته كل شيء فإذا جَلّلها فقد وَسَقها . ويكون هذا القَسَم قَسَما بجميع المخلوقات؛ لاشتمال الليل عليها ؛ كقوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » . وقال آبن جبير : « وَمَا وَسَقَ » أي وما عمل فيه يعني التهجد والاستغفار بالأسحار ؛ قال الشاعر :

ويَوْمًا تَرانا صالحين وتارةً * تَقُومُ بِنا كالْواسِقِ الْمُتَلَبِّبِ

أي كالعامل .

---

(١) هو العجاج كما في اللسان مادة « وسق » .

(٢) قائله الأسود بن يعفر، وصدره : * كذبت عليك لا تزال تقوفني *

قوله تعـالى : ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أى تم وآجتمع وآسـتوى . قال الحسن : آتسق أى آمتلأ وآجتمع . آبن عباس : آستوى . قتادة : آسـتدار . الفراء : آتساقـه آمتلاؤه وآستواؤه ليالى البدر وهو آفتعال من الوسق الذى هو الجمع ؛ يقال: وسقته فآتسق ، كما يقال: وصلته فآتصل ، ويقال : أمر فلان مُتَّسِق أى مجتمع على الصلاح منتظم . ويقال : آتسق الشيء إذا تتابع . ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قرأ أبو عمرو وآبن مسعود وآبن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وآبن كثير وحمزة والكسائى « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح البـاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسـلم أى لتركبنّ يا محمد حالا بعـد حال ؛ قاله آبن عباس . الشعبي : لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القربة من الله تعالى . آبن مسعود : لتركبنّ السماء حالا بعد حال ؛ يعنى حالاتها التى وصفها الله تعـالى بها من الآنشقاق والطىّ وكونها مرة كالمُهْل ومرة كالدِّهان . وعن إبراهيم عن عبد الله : « طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» قال : السماء تقلب حالا بعد حال . قال: تكون وردة كالدِّهان وتكون كالمُهْل . وقيل : أى لتركبنّ أيها الإنسان حالا بعـد حال من كونك نطفة ثم علقـة ثم مضغة ثم حيّا وميتا وغنيا وفقيرا . فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : « يَأَيُّهَـا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ » وهو آسم للجنس ومعناه الناس . وقرأ الباقون « لَتَرْكَبُنَّ » بضم الباء خطابا للناس وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ لمـا ذكر قبل هـذه الآية فمن يؤتَى كتابه بيمينه ومن يؤتَى كتابه بشماله . أى لتركبنّ حالا بعـد حال من شدائد القيامة ، أو لتركبنّ سنة من كان قبلكم فى التكذيب وآختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد وقد جاءت بذلك أحاديث (١) ؛ فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن على عن جابر رضى الله عنـه ، قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "إن آبن آدم لفى غفلة عمـا خلقه الله عز وجل إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك آكتب رزقـه وأثره وأجله وآكتبه شـقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٤ .

آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت ٱرتفع ذانك الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته ردّ الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة ٱنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد " ثم قال الله عز وجل « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن قدامكم أمرا عظيما فٱستعينوا بالله العظيم " فقد ٱشتمل هذا الحديث على أحوال تعترى الإنسان من حين يخلق إلى حين يبعث ، وكله شدّة بعد شدة ، حياة ثم موت ، ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدائد . وقال صلى الله عليه وسلم : " لتركبنّ[1] سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه" قالوا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ خرجه البخاري . وأما أقوال المفسرين ، فقال عكرمة : حالا بعد حال ، فطيما بعد رضيع وشيخا بعد شباب ، قال الشاعر :

كَذَلِكَ الْمَرْءُ إِنْ يُنْسَأْ لَهُ أَجَلٌ ... يَرْكَبْ عَلَى طَبَقٍ مِنْ بَعْدِهِ طَبَقُ

وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه . وقال الحسن : أمرا بعد أمر ، رخاءً بعد شدّة ، وشدّة بعد رخاء ، وغنًى بعد فقر ، وفقرا بعد غنًى ، وصحة بعد سقم ، وسقما بعد صحة . سعيد بن جبير : منزلة بعد منزلة ، قوم كانوا في الدنيا متّضعين فٱرتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة . وقيل : منزلة عن منزلة وطبقا عن طَبق[2] ، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ، لأن كل شيء يجر إلى شكله . ٱبن زيد : ولتصيرنّ من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة . وقال ٱبن عباس : الشدائد والأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ،

(١) رواية البخاري " لتتبعن " بدل " لتركبن " . (٢) في نسخة : طبقة .

والعرب تقول لمن وقع فى أمر شديد : وقع فى بنات طبق وإحدى بنات طبق ؛ ومنه قيل للداهية الشديدة : أمّ طبق وإحدى بنات طبق . وأصلها من الحيات ؛ إذ يقال للحية أم طبق لتحوّيها . والطبق فى اللغة الحال كما وصفنا ؛ قال الأقرع بن حابس التميمى :

إِنِّى ٱمْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ * وساقَنِى طَبَقٌ مِنْهُ إلى طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع ؛ قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه . وقيل لأبى بكر الوراق : ما الدليل على أن لهذا العالم صانعا ؟ فقال : تحويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر المنية ، ونسخ العزيمة . ويقال : أتانا طبقٌ من الناس وطبق من الجراد أى جماعة . وقول العباس فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

تُنْقَلُ مِنْ صَالَبٍ إلَى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ

أى قرن من الناس . يكون طباق الأرض أى ملأها . والطبق أيضا عظم رقيق يفصل بين الفَقَارين . ويقال : مضى طبق من الليل وطبق من النهار أى معظم منه . والطبق واحد الأطباق فهو مشترك . وقرئ « لَتَرْكَبِنَّ » بكسر الباء على خطاب النفس و « لَيَرْكَبَنَّ » بالياء على ليركبن الإنسان . و « عن طبقٍ » فى محل نصب على أنه صفة لـ« طبقا » أى طبقا مجاوزا لطبق . أو حال من الضمير فى « لَتَرْكَبُنَّ » أى لتركبن طبقا مجاوزين لطبق أو مجاوزا أو مجاوزة على حسب القراءة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى أى شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات . وهذا ٱستفهام إنكار . وقيل : تعجيب أى ٱعجبوا منهم فى ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أى لا يصلون . وفى الصحيح : إن أبا هريرة قرأ « إِذَا السَّمَاءُ ٱنْشَقَّتْ » فسجد فيها فلما ٱنصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها . وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن المعنى

لا يذعنون ولا يطيعون فى العمل بواجباته . ٱبن العربى : والصحيح أنها منه وهى رواية المدنيين عنه وقد ٱعتضد فيها القرآن والسنة . قال ٱبن العربى : لما أممت بالناس تركت قراءتها ؛ لأنى إن سجدت أنكروه وإن تركتها كان تقصيرا منى فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدى . وهذا تحقيق وعد الصادق بأن يكون المعروف منكرا والمنكر معروفا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : « لولا حِدْثان قومك بالكفر لهدمت البيت ولرددته على قواعد إبراهيم » . ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهرى يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع منه ، وهو مذهب مالك والشافعى و يفعله الشيعة ، فحضر عندى يوما فى محرس ٱبن الشواء بالثغر — موضع تدريسى — عند صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصفّ وأنا فى مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعى فى صفّ واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة و يتطلع على مراكب تحت الميناء ، فلما رفع الشيخ يديه فى الركوع وفى رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرقىّ كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فٱقتلوه وٱرموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبى من بين جوانحى وقلت : سبحان الله هذا الطُّرْطُوسى فقيه الوقت . فقالوا لى : ولم يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك فى رواية أهل المدينة عنه . وجعلت أُسكِّنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغير وجهى فأنكره وسألنى فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لى أن أُقْتل على سنة؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك . فقال : دع هذا الكلام وخذ فى غيره .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به . وقال مقاتل : نزلت فى بنى عمرو بن عمير وكانوا أربعة فأسلم آثنان منهم . وقيل : هى فى جميع الكفار . ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب . كذا روى الضحاك عن آبن عباس . وقال مجاهد : يكتمون من أفعالهم . آبن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة؛ مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ؛ يقال : أوعيت الزاد والمتاع إذا جعلته فى الوعاء؛ قال الشاعر :

الخيرُ أَبْقَى وإِنْ طَالَ الزمانُ بِهِ * والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِن زادِ

ووعاه أى حفظه ؛ تقول : وعيتُ الحديث أعيه وَعْيًا وأذنٌ واعية . وقد تقدم[1] . ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى موجع فى جهنم على تكذيبهم . أى آجعل ذلك بمنزلة البشارة . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ آستثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وعملوا الصالحات أى أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أى ثواب ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى غير منقوص ولا مقطوع ؛ يقال : مننت الحبل إذا قطعته . وقد تقدم[2] . وسأل نافع بن الأزرق آبن عباس عن قوله « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » فقال : غير مقطوع . فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول[3] :

فَتَرَى خَلْفَهُنَّ مِنْ سُرْعَةِ الرَّجْـ * ـعِ مَنِينًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

قال المبرد : المنين الغبار ؛ لأنها تقطعه وراءها . وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » لا يُمَنّ عليهم به . وذكر ناس من أهل العلم أن قوله « إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ » ليس آستثناء وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا . وقد مضى فى « البقرة[4] » القول فيه والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٤١ .
(٣) تقدم هذا البيت بلفظ : فترى خلفها من الرجع والوقـ * ـع منينا ... الخ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٦٩ .

سورة البروج

مكية باتفاق . وهي ثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾

قَسَمٌ أقسم الله به جلّ وعزّ . وفى «البروج» أقوال أربعة : أحدها — ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك . الثانى — القصور ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ومجاهد أيضا . قال عِكرمة : هى قصور فى السماء . مجاهد : البُرُوج فيها الحَرَس . الثالث — ذات الخَلْق الحَسَن ؛ قاله المِنْهال بن عمرو . الرابع — ذات المنازل؛ قاله أبو عبيدة ويحيى ابن سلام . وهى اثنا عشر بُرْجًا ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر . يسير القمر فى كل برج منها يومين وثلث يوم؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما ، ثم يَسْتَسِرّ(١) ليلتين ؛ وتسير الشمس فى كل بُرْج منها شهرا . وهى : الحَمَل ، والثَّوْر ، والجَوْزاء ، والسَّرَطان ، والأسَد ، والسُّنْبُلة ، والميزان ، والعَقْرب ، والقَوْس ، والجَدْى ، والدَّلْو ، والحُوت . والبروج فى كلام العرب : القصور؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »(٢) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ أى الموعود به . وهو قَسَمٌ آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير اختلاف بين أهل التأويل . قال ابن عباس : وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه . ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ اختلف فيهما ؛ فقال علىّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضى الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وهو قول الحسن .

(١) سرر الشهر (بفتحتين) : آخر ليلة منه ؛ وهو مشتق من قولهم : استسر القمر ؛ أى خفى ليلة السرار ؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين .		(٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢

ورواه أبو هريرة مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة ..." خرّجه أبو عيسى الترمذيّ في جامعه وقال : هذا حديث [حسن](١) غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى ابن عبيدة يضعَّف في الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره . وقد روى شعبة وسفيان الثَّوْريّ وغير واحد من الأئمة عنه . قال القُشَيْرِي فيوم الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

قلت : وكذلك سائر الأيام والليالي ؛ فكل يوم شاهد وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يَسار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتي على العبد إلا ينادَى فيه يابن آدم أنا خَلْق جديد وأنا فيما تَعْمَل عليك شهيد فاعمل فيّ خيرا أشهدْ لك به غدًا فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبدًا ويقول الليل مثل ذلك". حديث غريب من حديث معاوية ، تفرد به عنه زيد العَمِّي(٢) ، ولا أعلمه مرفوعا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد . وحكى القُشَيْرِيّ عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيّب : الشاهد التَّرْوِية ، والمشهود يوم عَرَفة . وروى إسرائيل عن أبي إسحق عن الحرث عن عليّ رضي الله عنه : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر . وقاله النَّخَعيّ . وعن عليّ أيضا : المشهود يوم عرفة . وقال ابن عباس والحسين ابن عليّ رضي الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ »(٣) .

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

(٢) في كتاب الأنساب للسمعاني : « العمي » بفتح العين المهملة وتشديد الميم ، هذه النسبة إلى العم وهو بطن من تميم ، وفي تهذيب التهذيب : «قال علي بن مصعب : سمي زيد العمي لأنه كان كلما سئل عن شيء ، قال حتى أسأل عمي » .

(٣) آية ١٠٣ سورة هود .

قلت : وعلى هذا ٱختلفت أقوال العلماء فى الشاهد فقيل : الله تعالى ؛ عن ٱبن عباس والحسن وسعيد بن جُبير؛ بيانه : « وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا »(١) ؛ « قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ »(٢) . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ٱبن عباس أيضا والحسين ٱبن علىّ ؛ قرأ ٱبن عباس « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »(٣) ، وقرأ الحسين « يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا »(٤) .

قلت : وأقرأ أنا « وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »(٥) . وقيل : الأنبياء يشهدون على أممهم ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » . وقيل : آدم . وقيل : عيسى بن مريم ؛ لقوله : « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ »(٦) . والمشهود أمّته . وعن ٱبن عباس أيضا ومحمد بن كعب : الشاهد الإنسان ؛ دليله : « كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »(٧) . مُقاتل : أعضاؤه ؛ بيانه : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٨) . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ؛ بيانه : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ »(٩) . وقيل : الشاهد الحَفَظة ، والمشهود بنو آدم . وقيل : الليالى والأيام . وقد بيناه .

قلت : وقد يشهد المال على صاحبه ، والأرض بما عُمِل عليها ؛ ففى صحيح مسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ ونِعْمَ صاحبُ المسلم هو لمن أعْطَى منه المسكين واليتيم وٱبن السبيل — أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة " . وفى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قال : " أتدرون ما أخبارها " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " فإن أخبارها أن تشهد على

---

(١) آية ٧٩ سورة النساء . (٢) آية ١٩ سورة الأنعام . (٣) آية ٤١ سورة النساء .
(٤) آية ٤٥ سورة الأحزاب . (٥) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٦) آية ١١٧ سورة المائدة .
(٧) آية ١٤ سورة الإسراء . (٨) آية ٢٤ سورة النور . (٩) آية ١٤٣ سورة البقرة .

كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا وكذا — قال — فهذه أخبارها". قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلق، شهدوا لله عزّ وجلّ بالوحدانية. والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يوم الجمعة؛ كما رَوى أبو الدَّرْداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثِروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ..." وذكر الحديث. خرّجه ابن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يومُ عَرَفة مشهود، لأن الملائكة تشهده وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النَّحْر إن شاء الله. وقال أبو بكر العَطّار: الشاهد الحَجَرُ الأسود؛ يشهد لمن لَمَسَه بصدق وإخلاص ويقين. والمشهود الحاجّ. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهودُ محمد صلى الله عليه وسلم؛ بيانه: «وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ — إلى قوله تعالى — : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (١).

قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي لُعِن. قال ابن عباس: كل شيء في القرآن «قُتِل» فهو لعن. وهذا جواب القَسَم — في قول الفرّاء — واللام فيه مضمرة؛ كقوله: «والشَّمْسِ وَضُحَاهَا — ثم قال — قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» أي لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي قُتِل أصحابُ الأخدود والسماءِ ذاتِ البروج؛ قاله أبو حاتم السِّجِسْتانيّ. ابن الأنباريّ: وهذا غلط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: واللهِ قام زيد؛ على معنى قام زيد واللهِ. وقال قوم: جواب القَسَم «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا». وقيل: جواب القسم محذوف؛ أي والسماءِ ذاتِ البروج لَتُبْعَثُنّ. وهذا اختيار ابنِ الأنباريّ. والأخدود: الشق العظيم

(١) آية ٨١ سورة آل عمران.

المستطيل في الأرض كالخَنْدَق، وجمعه أخاديد. ومنه الخدّ لمجاري الدموع، والمِخدّة؛ لأن الخدّ يوضع عليها. ويقال: تخدّد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح. قال طَرَفة:

ووجهٌ كأنّ الشمس حلت رداءَها * عليه نقيّ اللون لم يتخدّد

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ «النار» بدل من «الأخدود» بدل الاشتمال. و«الْوَقُودِ» بفتح الواو قراءة العامة، وهو الحطب. وقرأ قَتادة وأبو رَجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر؛ أي ذات الاتقاد والالتهاب. وقيل: ذات الوقود بأبدان الناس. وقرأ أشهب العقيلي وأبو السَّمّال العَدَوي وابن السَّمَيْقَع «النَّارُ ذاتُ» بالرفع فيهما؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود. ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنَجْرَان في الفَتْرة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وقد اختلفت الرواية في حديثهم. والمعنى متقارب. ففي صحيح مسلم عن صُهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان مَلِك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر؛ فلما كَبِر قال للملك: إني قد كَبِرت فابعث إليّ غلاما أعلّمه السحر؛ فبعث إليه غلاما يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحرَ مرّ بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحرَ ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحرَ فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبَست الناس فقال: اليومَ أعلمُ آلساحرُ أفضلُ أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللّهمّ إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهبَ فأخبره فقال له الراهب: أيْ بُنَيّ؛ أنت اليومَ أفضلُ منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتَلَى؛ فإن ابتُليتَ فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يبرئ الأكْمَه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليسٌ للملِك كان قد عَمِيَ فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما

يشفي الله؛ فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ اللهَ فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله . فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك : من ردّ عليك بصرَك ؟ قال ربّي . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ ! قال : ربّي وربُّك الله . فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك : أيْ بُنيّ ! أقد بلغ من سِحْرك ما تُبرئ الأكْمَهَ والأبرص ، وتفْعَل وتفعل ؟ ! فقال : إني لا أَشْفِي أحداً ، إنما يشفي الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له : آرجع عن دينك . فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقّه حتى وقع شِقّاه . ثم جيء بجليس الملِك فقيل له : آرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقّه به حتى وقع شِقّاه . ثم جيء بالغلام فقيل له : آرجع عن دينك؛ فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : آذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فآصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذِرْوَته فإن رجع عن دينه و إلا فآطرحوه؛ فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال : اللّهمّ آكْفِنيهم بما شئت؛ فرَجَف بهم الجبلُ فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملِك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهمُ الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : آذهبوا به فآحملوه في قُرْقُور(1) فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه و إلا فآقذفوه؛ فذهبوا به فقال : اللّهمّ آكفِنيهم بما شئت؛ فآنكفأت بهم السفينة فغرقوا . وجاء يمشي إلى الملِك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملِك : إنك لستَ بقاتِلي حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصْلُبُني على جِذْع ، ثم خُذْ سَهْمًا من كِنانتي(2) ثم ضَع السَّهمَ في كَبِد القَوْس ثم قل : بآسم الله ربِّ الغلام ، ثم آرمِني ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناسَ في صَعيد واحد وصَلَبه على جِذع ، ثم أخذ سهمًا من كِنانته ثم وضع السّهم في كَبِد القَوْس ثم قال : بآسم الله ربّ الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه فوضع يده في صُدغه في موضع السّهم فمات؛ فقال الناس : آمنا بربّ الغلام ! آمنا بربّ الغلام ! آمنا بربّ

(1) القرقور (بضم القافين) : السفينة الصغيرة .
(2) الكنانة (بالكسر) : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

الغلام ! فأُتِيَ الملكُ فقيل له : أرأيتَ ما كنتَ تحذَر ؟ قد والله نزَل بك حَذَرُك ، قد آمن الناس ؛ فأمر بالأخدودِ في أفواه السِّكك ، فخُدّت وأُضْرِم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأحْمُوه فيها — أو قيل له اقتحم — ففعلوا ؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : "يا أُمَّه اصْبِرِي فإنك على الحق" . خرّجه الترمذي بمعناه . وفيه : "وكان على طريق الغلام راهب في صومعة" قال مَعْمَر : أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه : "أن الدابة التي حبست الناس كانت أسدًا وأن الغلام دُفِن — قال — فيُذكر أنه أُخرِج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صُدْغه كما وضعها حين قُتِل" . وقال : حديث حسن غريب . ورواه الضحاك عن ابن عباس قال : كان مَلِك بنَجْرَانَ وفي رَعِيّته رجل له فتًى فبعثه إلى ساحر يعلّمه السحر ، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل ؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب ، فدخل في دين الراهب ؛ فأقبل يوما فإذا حيّة عظيمة قطعت على الناس طريقهم ، فأخذ حجرا فقال باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما ؛ فقتلها . وذكر نحو ما تقدم . وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك : لا إله إلا إلٰه عبد الله بن ثامر[(1)] ؛ وكان اسمَ الغلام ، فغضب الملك وأمر فخُدّت أخاديد ، وجُمِع فيها حطب ونار وعرض أهل مملكته عليها ، فمن رجع عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على دينه قذفه في النار . وجيء بامرأة مرضع فقيل لها ارجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك — قال — فأشفقت وهمت بالرجوع ، فقال لها الصبيّ المرضع : يا أمي ، اثبتي على ما أنت عليه فإنما هي غُمَيضة ؛ فألقوْها وابْنَها . وروى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم . وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، أخذهم يوسف ابن شراحيل بن تُبّع الحِميرى ، وكانوا نَيِّفًا وثمانين رجلا ، وحَفَر لهم أخدودا وأحرقهم فيه . حكاه الماوَرْديّ ، وحكى الثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل ، أخذوا رجالا

---

(1) في الأصول : « ... إلا الله عبد الله ... » وهو تحريف .

ونساء تخذوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار ، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم : تكفرون أو تُقذفون فى النار ؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ؛ وقاله عَطِيّة العَوْفِىّ . وروى نحو هـذا عن آبن عباس . وقال علىّ رضى الله عنه : إن مَلِكًا سَكِر فوقع على أخته ، فأراد أن يجعل ذلك شَرْعًا فى رَعِيّته فلم يقبلوا ؛ فأشارت عليه أن يخطب بأن الله ـــ عز وجل ـــ أحلّ نكاح الأخوات فلم يُسمع منه . فأشارت عليه أن يَخُدّ لهم الأخدود ويُلقى فيه كلّ من عصاه . ففعل . قال : وبقاياهم ينكحون الأخوات وهم المجوس ، وكانوا أهل كتاب . وروى عن علىّ أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيًّا بعثه الله تعالى إلى الحبشة ، فآتبعه ناس فخدّ لهم قومُهم أخدودا ، فمن آتبع النبىّ رمى فيها ، فجىء بآمرأة لها بُنَىّ رضيع فجزعت ، فقال لها : يا أُمّاه ، آمضى ولا تجزعى . وقال أيوب عن عِكْرِمة قال : « قُتِلَ أَصحابُ الأُخْدُودِ » قال : كانوا من قومك من السِّجِسْتان . وقال الكلبىّ : هم نصارى نَجْران ، أخذوا بها قوما مؤمنين فخدّوا لهم سبعة أخاديد ، طول كل أخدود أربعون ذراعا ، وعرضه آثنـا عشر ذراعا . ثم طرح فيه النِّفْط[1] والحطب ، ثم عرضوهم عليها ؛ فمن أبى قذفوه فيها . وقيل : قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين . وقال مقاتل : أصحـاب الأخدود ثلاثة ؛ واحد بنجران ، والآخر بالشام ، والآخر بفارس . أمّا الذى بالشـام فأنطنيانوس الرومى ، وأما الذى بفارس فبختنصّر ، والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نُوَاس . فلم يُنزل الله فى الذى بفارس والشام قرآنا ، وأنزل قرآنا فى الذى كان بنجران . وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة والآخر بنجران ، آجر أحدهما نفسه ، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل ؛ فرأت آبنة المستأجر النور فى قراءة الإنجيل ، فأخبرت أباها فأسلم . وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وآمرأة ، بعد ما رُفع عيسى ، فخدّ لهم يوسف بن ذى نواس بن تُبّع الحِمْيَرِىّ أخدودا وأوقد فيه النـار ؛ وعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار ، وقال : من رجع عن دين عيسى لم يقذف . وإن آمرأة معها ولدها صغير لم يتكلم ، فرجعت ، فقال لها آبنها : يا أمّاه ، إنى أرى أمامك

(١) النفط (بالكسر وقد يفتح) : دهن معدنى سريع الاحتراق ، توقد به النار ويتداوى به .

نارا لا تطفأ، فقذفا جميعا أنفسهما فى النار، فجعلها الله وآبنها فى الجنة . فقُذف فى يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا . وقال آبن إسحق عن وهب بن مُنَبّه : كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيميون (١)، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجابَ الدعوة، وكان سائحا فى القُرَى لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بَنّاء يعمل الطين . قال محمد بن كعب القُرَظى : وكان أهلُ نجران أهلَ شرك يعبدون الأصنام، وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلّم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون بنى بها خَيْمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهـل نجران، وكان عبد الله إذا مرّ بصاحب الخَيْمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليـه ويسمع منـه حتى أسلم، فوحّد الله وعبده وجعل يسأله عن آسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال : يآبن أخى، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن آبنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان . فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم آسم الله الأعظم، عَمَد إلى قِداح (٢) فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى آسما يعلمه إلا كتبه فى قِدْح، لكل آسم قِدْح، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحًا قِدحا، حتى إذا مرّ بالآسم الأعظم قذف فيها بقِدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرّه شىء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم آسمَ الله الأعظم الذى كتمه إياه، فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع . فقال له : يآبن أخى، قد أصبته، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضرّ إلا قال : يا عبد الله، أتوحّد الله وتدخل فى دينى فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البـلاء ؟ فيقول : نعم؛ فيوحّد الله ويُسلم فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضرّ إلا أتاه فآتبعه على دينه ودعا له فعوفى؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال له :

(١) فى تاريخ الطبرى : « فيميون » بالفاء .
(٢) القدح (بالكسر) : السهم قبل أن ينصل و يراش ، جمعه قداح .

أفسدت علىّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى ، فلأمثلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس . وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقى فيها شىء إلا هلك، فيُلقَى فيها فيخرج ليس به بأس ؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلى حتى توحّد الله وتؤمنَ بما آمنتُ به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلّطت علىّ وقتلتنى . فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه بعصا فشجّه شجّة صغيرة ليست بكبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه ، وآجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصــل النصرانية بنجران . فسار إليهم ذو نُوَاس اليهودى بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فآختاروا القتل فخدّ لهم الأخدود ؛ فحرّق بالنار وقتّل بالسيف ومثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا . وقال وهب بن مُنَبِّه : آثنى عشر ألفا . وقال الكَلْبى : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفــا (١) . قال وهب : ثم لمــا غلب أرياط على اليمن خرج ذو نواس هاربا فاقتحم البحر بفرسه فغَرِق . قال آبن إسحق : وذو نواس هذا آسمــه زرعة بنُ تبــان (٢) أسعد الحميرى ، وكان أيضا يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شــعرٍ تَنُوس ، أى تضطرب ، فسُمِّىَ ذا نواس ؛ وكان فعل هذا بأهل نجران فأفلت منهم رجل آسمه دَوْس ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس فى البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أتُوعِدُنى كأنــك ذو رُعَيْنٍ * بأنْعَــمِ عِيشــةٍ أو ذو نُوَاس

وكائنْ كان قبلك من نَعِــيمٍ * ومُلْكٍ ثابتٍ فى الناس راسِ

قــديمٍ عهدُه من عَهْــدِ عادٍ * عظيمٍ قاهرِ الجبروت قاسِ

أزال الدّهرُ ملكَهمُ فأضحى * يُنَقَّــلُ من أناس فى أناس

(١) فى بعض النسخ : « تسعين ألفا » .

(٢) هو كغراب أو كرمان ، ويكسر . وهو أول من كسا البيت الحرام .

وذورُعَيْن ملك من ملوك حِمير . ورُعَيْن حِصن له . وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير ابن سبأ .

مسئلة — قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة فى هذه الآية ، ما كان يَلقاه من وَحّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك. وذكر لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقَوْن من الأذى والآلام، والمشقات التى كانوا عليها ؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسّكه به ، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته ، ودخول الناس فى الدين مع صِغر سِنّه وعظم صبره . وكذلك الراهب صَبَرَ على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم ، صَبَرُوا على الطرح فى النار ولم يَرْجِعوا فى دينهم . ابن العربى : وهذا منسوخ عندنا ، حسب ما تقدم بيانه فى سورة « النحل »(١) .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قَوِيت نفسه وصَلُب دينه أولى ، قال الله تعالى مخبرا عن لُقمان : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »(٢) . وروى أبو سعيد الخُدْرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أعظم الجهاد كلمةَ عَدْلٍ عند سلطان جائر " . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب . وروى ابن سَنْجَر محمد بن سَنْجر عن أُمَيْمة مولاة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قالت : كنت أوَضّئ النبىّ صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال : أوصنى . فقال : " لا تشرك بالله شيئا وإن قُطّعت أو حُرّقت بالنار ... " الحديث . قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شىء من ذلك . ويكفيك قصّة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقَتْل والأسر والحرق ، وغير ذلك . وقد مضى فى « النّحل » أن هذا إجماع ممن قوى فى ذلك ؛ فتأمله هناك(٣) .

---

(١) راجع ج ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها ، وص ٢٠٢ (٢) آية ١٧ سورة لقمان .
(٣) راجع ج ١٠ ص ١٨٠

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ دعا على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى . وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ؛ أى إنهم قُتلوا بالنار فصبَروا . وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين ؛ فإنه روى أن الله قبض أرواح الذين أُلقُوا فى الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود . وقيل : إن المؤمنين نَجَوْا وأحرقت النار الذين قعدوا ؛ ذكره النحاس . ومعنى «عليها» أى عندها ؛ وعلى بمعنى عند . وقيل : « عليها » على ما يدنو منها من حافات الأخدود ؛ كما قال :

* وبات على النار النَّدَى والمُحَلَّقُ (١) *

والعامل فى « إذ » «قُتِل» ؛ أى لعنوا فى ذلك الوقت . ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى حضور . يعنى الكفار كانوا يَعرضون الكفر على المؤمنين فمن أبَى ألقَوْه فى النار؛ وفى ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجدّ (٢) فى ذلك . وقيل : «على» بمعنى مع ؛ أى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وقرأ أبو حَيْوة « نَقِمُوا » بالكسر . والفصيح هو الفتح . وقد مضى فى « براءة » القول فيه (٣) . أى ما نَقَم الملكُ وأصحابُه من الذين حرّقهم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ أى إلا أن يصدّقوا . ﴿ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى الغالب المنيع . ﴿ الْحَمِيد ﴾

(١) البيت لأعشى قيس ، وصدره :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) فى بعض النسخ : « أى بالجد » بدل « ثم بالجد » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠٧

اى المحمود فى كل حال . ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا شريك له فيهما ولا نديد . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى حرقوهم بالنار . والعرب تقول : فتن فلان الدرهم والدينار، إذا أدخله الكُور لينظر جودته . ودينار مفتون . ويسمّى الصائغ الفتّان ، وكذلك الشيطان ؛ وورق فتين ؛ أى فضة محترقة . ويقال للحرة[1] فتين ؛ أى كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الايات البينات على يدى الغلام . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ لكفرهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ فى الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار . وقد تقدم عن ابن عباس . وقيل : « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين . وقيل : لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق . والحريق : اسم من أسماء جهنم ؛ كالسعير . والنار دركات وأنواع ولها أسماء . وكأنهم[2] يعذبون بالزمهرير فى جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق . فالأول عذاب ببردها ، والثانى . عذاب بحرها . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله ؛ أى صدقوا به وبرسله . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ أى بساتين . ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ أى العظيم ، الذى لا فوز يشبهه .

(١) الحرة (بفتح الحاء المهملة) : أرض ذات حجارة سود نخرة. (٢) فى نسخة من الأصل : «وكانوا» .

قوله تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى أخذه الجبابرة والظَّلَمة ؛ كقوله جل ثناؤه : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . وقد تقدم (1) . قال المبرّد : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ » جواب القسم ؛ المعنى : والسماء ذاتِ البروج إن بطش ربك . وما بينهما معترض مؤكِّد للقسم . وكذلك قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : إن القَسَم واقع على ذكر صفته بالشدة . ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ يعنى الخلق — عند أكثر العلماء — يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم عند البَعْث . وروى عكرمة قال : عَجِب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه الأموات . وقال ابن عباس : يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة . وهذا اختيار الطبرى . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ أى السَّتور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ﴿ الْوَدُودُ ﴾ أى المحبّ لأوليائه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضا « الودود » أى المتودّد إلى أوليائه بالمغفرة . وقال مجاهد : الوادّ لأوليائه ؛ فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : الرحيم . وحكى المبرّد عن إسمعيل بن إسحق القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ؛ وأنشد قول الشاعر :

وأركب فى الرَّوْع عُريانةً * ذاولَ الجناح لقاحًا ودودا

أى لا ولد لها تَحِن إليه . ويكون معنى الآية : إنه يغفر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله ؛ ليكون بالمغفرة متفضلا من غير جزاء . وقيل : الودود بمعنى المودود ؛ كرَكُوب وحَلُوب ؛ أى يودّه عباده الصالحون ويُحِبّونه . ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما « المجيدِ » بالخفض نعتاً للعرش . وقيل : لـ« ربك » ؛ أى إن بطش ربك المجيد لشديد .

(1) آية ١٠٢ سورة هود راجع ج ٩ ص ٩٥

ولم يمتنع الفصل لأنه جارٍ مجرى الصفة فى التشديد . الباقون بالرفع نعتا لـ« ذو » وهو الله تعالى . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل ، والله سبحانه المنعوت بذلك ، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم فى آخر «المؤمنون»[(١)] . تقول العرب : فى كل شجر نار ، وآستمجد المَرْخ والعَفار[(٢)] ؛ أى تناهيا فيه حتى يقتبس منهما . ومعنى ذو العرش : أى ذو المُلْك والسلطان ؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه ؛ وإن لم يكن على سرير . ويقال : ثُلّ عَرْشُه ؛ أى ذهب سلطانه . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف »[(٣)] وخاصة فى « كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » . ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أى لا يمتنع عليه شيء يريده . الزمخشري : « فَعَّالٌ » خبر آبتداء محذوف . وإنما قيل : « فَعَّالٌ » لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة . وقال الفراء : هو رفع على التكرير والآستئناف ؛ لأنه نكرة محضة . وقال الطَّبَرِيّ : رفع « فَعّال » وهى نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب « الغفور الودود » . وعن أبى السَّفَر[(٤)] قال : دخل ناس من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أبى بكر رضى الله عنه يعودونه فقالوا : ألَا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رآنى ! قالوا : فما قال لك ؟ قال قال : إنى فعال لما أريد .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أى قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذّبة لأنبيائهم ؛ يؤنسه بذلك ويسلّيه . ثم بيّنهم فقال . ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وهما فى موضع جرّ على البدل من « الجنود » . المعنى : أنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله . ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك . ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٧ .　(٢) المرخ والعفار : شجرتان من أكثر الشجر نارا ، يتخذ منهما الزناد . والعرب تضرب بهما المثل فى الشرف العالى . و « آستمجد » : آستكثر .　(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠
(٤) هو سعيد بن يحمد الهمدانى .

لك ؛ كدأب من قبلهم . وإنمــا خص فرعون وثمود ؛ لأن ثمود فى بلاد العرب، وقصتهم عنــدهم مشهورة و إن كانوا من المتقــدمين . وأمر فرعون كان مشهورا عند أهــل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين فى الهلاك ؛ فدلّ بهما على أمثالها فى الهلاك . والله أعلم .

قوله تعــالى : وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أى يقدر على أن ينزل بهــم ما أنزل بفرعون. والمحاط به كالمحصور . وقيل : أى والله عالم بهم فهو يجازيهم . ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ أى متناهٍ فى الشرف والكرم والبركة؛ وهــو بيان ما بالناس الحاجةُ إليــه من أحكام الدين والدنيا لا كما زعم المشركون . وقيــل « مجيد » أى غير مخلوق . ﴿ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى مكتوب فى لوح . وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل : هــو أم الكتاب ؛ ومنــه آنتسخ القرآن والكتب . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : اللوح من ياقــوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر مَلَك يقال له ماطريون (١) ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة ، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء ؛ يرفع وضيعا ويضع رفيعا ، ويغنى فقيرا ويفقر غنيًّا ، يُحيِى ويميت، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو . وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى فى جبهــة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . وقيــل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخليقــة، وبيانُ أمورهم، وذكرُ آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضيةُ النافذة فيهم ، ومآلُ عواقب أمورهم ؛ وهو أمُّ الكتاب . وقال آبن عباس : أوّل شيء كتبه الله تعــالى فى اللوح المحفوظ « إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رســولى ، من آستسلم لقضائى وصبر على بلائى وشــكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصــدّيقين ، ومن لم يستسلم لقضائى

(١) فى روح المعانى : « ساطريون » .

ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ إلهًا سواي » . وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعّده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : « بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرةً في اللّوح المحفوظ ؛ يُعِزّ ويُذِلّ ، ويبتلي ويفرح ، ويفعل ما يريد ؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ » . وقال بعض المفسرين : اللّوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وقرأ ابن السَّمَيْقَع وأبو حَيْوَة « قرآنُ مجيدٍ » على الإضافة ؛ أي قرآن ربٍّ مجيد . وقرأ نافع « في لوحٍ محفوظٌ » بالرفع نعتا للقرآن ؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح . الباقون (بالجر) نعتا للوح . والقرّاء متفقون على فتح اللام من «لَوح» إلا ما رُوي عن يحيى بن يَعْمر ؛ فإنه قرأ في « لُوحٍ » بضم اللام ؛ أي إنه يلوح ، وهو ذو نور وعُلُوّ وشرف . قال الزمخشريّ : واللُّوح الهواء ؛ يعني اللُّوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللّوح . وفي الصحاح : لاح الشيء يلوح لَوْحًا أي لمح . ولاحه السَّفَر : غيّره . ولاح لَوْحا ولُواحا عطش ، والتاح مثله . واللَّوْح : الكَتِف وكلّ عظم عريض . واللَّوْح : الذي يكتب فيه . واللُّوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض . والحمد لله .

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوّله :
" سورة (الطارق) "

* * *

كمل طبع الجزء التاسع عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الأوّل سنة ١٣٦٩
(١٠ ينايرسنة ١٩٥٠) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣/١٩٤٨/٥٠٠٠)